آيات الدعاء فى القرآن الكريم

دعاء الأنبياء والرُّسل

الدكتور
محمد محمود أحمد

الدكتور
موسى الخطيب

مركز الكتاب للنشر

164721

الطبعة الأولى
١٩٩٩



مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون : ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس : ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر : ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ت : ٢٧٢٣٣٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله. والصلاة والسلام على رسول الله محمَّد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه، واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد: فقد اقتضت حكمة الله أن يجعل أنبياءه أكمل البشر خَلقًا وخُلقا، وأفضلهم علما، وأشرفهم نسبا، وأصدقهم قولا، وأشدهم فطنة، كما قد صانهم عن العيوب الخلقية والجسدية.

والأنبياء أحاطهم الله بالرعاية وشملهم بالعناية والهداية قال الله تعالى فى شأن محمد ﷺ ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨] وقال سبحانه فى شأن موسى عليه السلام ﴿ لِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩].

فالله سبحانه وتعالى تولى تأديبهم وتربيتهم، وعصمتهم من الوقوع فى الذنوب والمعاصى فلم تكن حياتهم لأنفسهم، بل كانوا مثلا يُهتَدى بهديهم، ويُسار على نهجهم، ثم غدت سننهم وذكراهم من بعد وفاتهم مصابيح تضيئ للإنسانية ظلمة الحياة، وتوضح لها طرق الرشاد، فهم الهداة الذين أمرنا الله بالاقتداء بهم. قال الله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٩-٩٠].

وهؤلاء الأنبياء كانوا فى نهاية الطاعة والعبادة وفعل الخير. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وإذا تتبعنا آيات القرآن الكريم نراها تُسبغ على كل نبى أكمل الصفات وأسمى النعوت التى سنذكرها عند الكلام على كل نبى وأدعيته التى وردت فى القرآن الكريم.

وأنبياء الله لو لم يكونوا بهذه المثابة من الكمال الإنساني لصغر شأنهم في أعين الناس ولما استجاب لهم أحد، ولو كذبوا أو خانوا وقبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ولكانوا مضلين لامرشدين فتذهب الحكمة من إرسالهم، لهذا نفى الله الخيانة عن جميع الأنبياء بقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [1] [آل عمران:١٦١].

والقرآن الكريم يخالف العهد القديم فى نظرته إلى الأنبياء، فالعهد القديم ينسب إلى الأنبياء مالا يجوز نسبته إليهم من كبائر المعاصى[2] ، وهو محض افتراء فضلاً عن أن هذا يخالف الحقيقة والواقع، ويتنافى مع عصمة أنبياء الله عن كبائر الذنوب، فقد تلقاهم ربهم واجتباهم وهداهم ومدحهم وزكّاهم واختارهم واصطفاهم، وقد صرّح القاضى أبو بكر العربى بعدم جواز نسبة العصيان للآباء الأقربين إلينا المماثلين لنا، فكيف يجوز أن يُنسب إلى الأنبياء عليهم السلام[3].

فإنه يجب تنزيه الرسل وكل الأنبياء عن المعاصى لأنهم صفوة الله من خلقه، والأسوة الحسنة لهم فى تنفيذ ما أمر الله به أو نهى عنه.

وقد حكى القرآن قصص هؤلاء الأنبياء ولم يؤيد واحدة من هذه الادعاءات، وهذه ميزة للقرآن يتميز بها على العهد القديم، فإن وصف هؤلاء الأنبياء بهذه المثالب وغيرها من شأنه أن يترك انعكاسات سيئة على نفسية المؤمن التقى الورع فيقول فى نفسه: إن كان هذا حال أنبياء الله ورسله، فلا حرج علينا فى العمل مثلهم، وهذه ثغرة يمكن أن يستغلها أصحاب النفوس المريضة للانزلاق فى المعاصى والآثام، فضلا عن أن هذا يخالف الحقيقة والواقع، ويتنافى كما قلنا مع عصّمة أنبياء الله عن كبائر الذنوب.

فالأنبياء ـ فى نظر الاسلام ـ معصومون عن المعاصى.

---

(١) ومعنى كلمة (يغل) أى يخون.

(٢) وصف العهد القديم الأنبياء بالكذب والخداع وارتكاب كبائر المعاصى، فنسب إلى يعقوب الخداع، وادعى أن لوطا زنى بابنتيه، وقال عن هارون أنه دعا الإسرائيليين لعبادة العجل، وقال عن داود أنه زنى بزوجة قائده أوربا، وعن سليمان أنه عبد الأصنام إرضاء لزوجاته. وهو كما قلنا، كذب لا محالة ومحض افتراء، فليحذر الأخ المسلم من الوقوع فيه، فإنه لا يصح بالنسبة إلى عوام المسلمين وجهلة الفسّاق، فما بالك بالأنبياء، وليتدبر هذا من له عقل سليم ودين قوى، وهذا هو الحق الأبلج الذى ندين لله عز وجل به، والذى يجب أن يعتقده المسلم فى الأنبياء والمرسلين(وانظر التفسير الكبير لفخر الرازى ٢٦/ ١٨٩).

(٣) وانظر روح المعانى للألوسى فى موضعه..

والإسلام جعل الإيمان بالأنبياء من أركان العقيدة الإسلامية، قال تعالى: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [البقرة:١٣٨].

وقال تعالى فى بيان عقيدة المؤمنين : ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فالمسلمون يؤمنون بجميع أنبياء الله ويحترمونهم ويجلّونهم، فمن كفر بنبى من النبيين الذين نصّ عليهم القرآن فهو غير مؤمن. قال سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا (١٥١)**﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

فالإسلام بموجب هذه التعاليم وضع أساسا للتعارف والإخاء والوحدة بين شعوب الأرض، لأن الناس متى آمنوا بجميع المرسلين سهل تفاهمهم على ما يمكن أن يبقى بينهم من الخلاف.

هذه ميزة اختص بها الإسلام وجعل إمكان التقارب بينه وبين غيره من الأديان سهلا وممكنا عندما أوجب على متّبعيه الإيمان بجميع أنبياء الله ورُسُله وما نزل عليهم من الكتب السماوية واحترامهم.

والأنبياء والرسل كثيرون، ولكن لم ترد اسماؤهم جميعا فى القرآن وإنما أشار الله إليهم بقوله مخاطبا رسوله محمد ﷺ ﴿**وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ**﴾[النساء:١٦٤] أما الذين نصّ عليهم القرآن فهم (٢٥) خمسة وعشرون يجب الإيمان بهم تفصيلا وهم:

(١) آدم (٢) إدريس (٣) نوح (٤) هود (٥) صالح (٦) إبراهيم (٧) لوط (٨) إسماعيل (٩) اسحق (١٠) يعقوب (١١) يوسف

(١٢) شعيب (١٣) أيوب (١٤) ذو الكفل (١٥) موسى (١٦) هارون

(١٧) داود (١٨) سليمان (١٩) إلياس (٢٠) اليسع (٢١) يونس

(٢٢) زكريا (٢٣) يحيى (٢٤) عيسى (٢٥) مُحمّد، عليهم السلام أجمعين.

والأنبياء ليسوا بدرجة واحدة من الفضل والمكانة، بل قد فضّل الله بعض النبيين على بعض، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[الإسراء: ٥٥].

وقد رفع الله درجة محمد ﷺ فوق درجة النبيين بأن أرسله إلى الناس كافة، بينما أرُسل الأنبياء السابقون إلى أُممهم خاصة، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[سبأ: ٢٨].

كما أن الرسول محمداً ﷺ هو خاتم النبيين فقد اختتمت به الرسالة وأتى بالكامل من التشريع، قال تعالى:

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ومن الرسل من وصفهم القرآن (بأولى العَزْم) وهم الذين أمر الله رسوله محمداً ﷺ بالاقتداء بهم فى جهادهم بقوله:

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾[الأحقاف: ٣٥].

وإنما سموا (بأولى العزم) لأن عزائمهم كانت قوية، وابتلاؤهم كان شديداً، وجهادهم كان شاقا. وهم خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومُحمّد عليهم جميعا الصلاة وأتم التسليم، وهم أصحاب الشرائع، وقد ذكرهم الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾[الأحزاب: ٧].

وقال الله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[الشورى: ١٣].

والرسل الذين وردت لهم أدعية فى القرآن الكريم، عددهم سبعة عشر رسولا وهم: (١) آدم (٢) نوح (٣) إبراهيم (٤) لوط (٥) موسى (٦) شعيب (٧)هود (٨) صالح (٩) يعقوب (١٠) يوسف (١١) داود (١٢) سليمان (١٣) أيوب (١٤) يونس (١٥) زكريا (١٦) عيسى (١٧) محمد ، عليهم الصلاة والسَّلام. أما باقى رسل الله الذين وردت لهم أدعية فى القرآن الكريم، فقد اقتضى السياق أن نقدم موجزاً عن قصصهم كما حكاها القرآن، وشرحنا أدعيتهم تفصيلا، مع استخلاص الدروس والعبر المستفادة منها.

وهناك من الأنبياء من لم يرد له دعاء البته فى القرآن الكريم وهم أربعة: إلياس واسحق ويحيى واليسع عليهم السلام، ومنهم من امتدحه الله تعالى لصبره وهم ثلاثة: إسماعيل وإدريس وذو الكفل، قال تعالى: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾[الأنبياء:٨٥] .

فامتداح الله لهم بسبب صبرهم إما أنه أقام صبرهم هذا الذى امتُدحوا من أجله مقام قوله تعالى، على لسان هود عليه السلام ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[هود:٥٦] ، وكقول مؤمن آل فرعون حينما توعّدوه ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٤].

وإما أن يكون هؤلاء الرسل الثلاثة قد دعوا فعلا ولم تكن المناسبة مواتيه لسرد أدعيتهم فى القرآن الكريم، ولهذا لا مانع البته من اعتبار صبرهم هذا الذى امتُدحوا من أجله لونا من ألوان الدعاء النفسى بل يستحسن.

أضف إلى هذا أن إسماعيل قد يكون دعا فعلا أو ضمنا مع أبيه إبراهيم حينما شرعا يرفعان قواعد البيت. يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[البقرة:١٢٧].

فهو إما متلفِّظ بالدعاء مع أبيه أو مؤمِّن على دعائه.

أما هارون عليه السلام فلم ترد له فى القرآن الكريم آيات تحمل دعاءه استقلالا، وإنما كانت أدعيته مع أخيه موسى لزمالتهما فى الرسالة والدعوة وذلك كقوله تعالى فى سورة يونس : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[يونس:٨٨ ، ٨٩].

أما الأنبياء[1] وهم المكلفون من الله بشريعة خاصة بهم دون تبليغها للغير، أو المكلفون باتباع من سبقهم من الرسل.. وهذا هو أرجح التعاريف التى اعتدَّ بها جمهور العلماء الباحثين فى هذا المقام.

هؤلاء الأنبياء عليهم السلام مثل لقمان ـ على القول بنبوته ـ لم نعثر لهم على أدعية فى القرآن الكريم.

وهذا لاينبغى أن يحمل المرء على أنهم مازاولوا الدعاء ولا باشروه، وكيف يكون ذلك والدعاء مخ العبادة، بل هو الطاعة والعبادة بعينها، وكيف يُستساغ لنبى أن يترك الدعاء، وأن يدع السلاح البتّار الذى منحه الله تعالى لعباده المؤمنين وفى مقدمتهم الرسل والأنبياء.

نقول إن القرآن الكريم قد تعرض لذكر بعض الرسل دون البعض الآخر كما تعرض لأدعية بعضهم لا لجميعهم وفيهم أولو العزم، ولعل السبب فى ذلك طول الأمد بين أقوامهم فى عرضهم للدعوة، وماجره ذلك من الجدال والعناد والمحاربة، زد على هذا ما تحمله هذه الأدعية فضلا عن أسبابها من أهداف وغايات نبيلة ودروس مفيدة ومجدية، وفيها العبرة، ومنها الموعظة والذكرى للمؤمنين.

(١) الأنبياء : جمع نبى والنبى مشتق من نبأ، وجاء فى شرح القاموس: والنبئ بالهمز هو المخبر عن الله تعالى، فإن الله أخبره بتوحيده وأطلعه على غيبه وأعلمه أنه نبى، وقيل من النبوة أى الرفعة وسمى نبيا لرفعة محله عن سائر الناس. والنبوة قد تكون قاصرة على صاحبها ويسمى حينئذ نبيا، وقد تكون مقترنة بتكليف تقويم سلوك جماعة من الناس فيسمى هذا التكليف رسالة ويدعى صاحبها رسولا، وعلى هذا فكل رسول نبى، وليس كل نبى رسولاً.

لهذا لم يذكر القرآن لنبى من الأنبياء دعاء لأنهم ما أمروا بالتبليغ، أى تبليغ رسالة الله لغيرهم. أما الرسل فاقتضى أمرهم بالتبليغ، الدعاء الذى لم يخصوا به أنفسهم بل عنوا به رسالة ربهم، وما تقتضيه المصلحة لها، وما ورد فى القرآن من الدعاء لأنفسهم إنما كانت الغاية منه رسالة الله ودينه، فإذا طلب الرسول النصر وحمايته، إنما يقصد من وراء ذلك نصر رسالة الله والمؤمنين بها.

والله يصطفى أنبياءه ورسله، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وأنبياؤه ورسله المصطفون الأخيار هم مظهر لجميع كمالاته تعالى، فكانوا عليهم السلام فى قمة الطاعة والعبادة وفعل الخير، وكانوا كما وصفهم الحق تبارك وتعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[الأنبياء: ٧٣].

ولما كان الأنبياء والرسل فى هذه المنزلة الرفيعة من الطاعة والترفع عن أهواء النفس والبعد عن المعاصى أمرنا الله بالإقتداء بهم، والأخذ بسيرهم والتشبه بهم قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنعام: ٩٠].

وسورة الفاتحة التى يرددها المسلمون فى صلواتهم جعل الله فيها هذا الدعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ۝٧﴾[الفاتحة: ٦، ٧].

وفى مقدمة هؤلاء الذين أنعم الله عليهم: الأنبياء والرسل، وفى هذا الدعاء إيحاء من الله للمؤمنين أن يجعلوا الأنبياء قدوتهم فى كافة أعمالهم وأقوالهم ودعائهم .نسأل الله تعالى أن يجعل عبادتنا صحيحة، ودعاءنا مستجابا وعملنا خالصا لوجهه الكريم... وعسانا بهذه المحاولة أن نكون قد أسهمنا فى شئ من خدمة القرآن، فبآياته نهتدى وبنوره نستضئ، وهو إمامنا فيما أردنا وقصدنا، والله الهادى إلى سواء السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

شغفنا بسير هؤلاء المرسلون الأخيار، وحاولنا قدر الطاقة أن نقتبس من أدعيتهم القرآنية شعاعا نستضىء به ..

وكنا بقلوبنا مع ابراهيم عليه السلام وهو بوادى مكة المجدب يسلم ابنه للقدر المرهوب ويسأل الله الأنيس لأهله ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[إبراهيم: ٣٧].

وكنا مع يونس وهو يواجه الكرب العظيم ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧].

وكنا مع موسى فى مدين، وهو يحس لذع الوحشة والحاجة ويناجى ربه فيقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[القصص: ٢٤].

وكنا مع عيسى وهو يواجه مساءلة دقيقة، ويدفع عن نفسه دعوى الألوهية: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[المائدة: ١١٧].

وكنا.. مع غيرهم من المرسلين الأخيار.. وفى هذا الكتاب سياحة محدودة مع قصصهم وأدعيتهم القرآنية.. ومافيه من توفيق هو محض الفضل الأعلى.

وهذه .. عزيزى القارىء.. بضاعتنا المزجاة تُعرض عليك، وبنات أفكارنا نزفها إليك. فإن صادفت كفؤاً كريما لم تعدم منه إمساكا بمعروف أو تسريحا بإحسان.. وإن كان غيره فالله المستعان..

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود: ٨٨].

المؤلفان



نوح عليه السلام

١- قصة نوح عليه السلام

٢- أدعية نوح عليه السلام فى القرآن الكريم

٣- دروس وعبـــر

الفصل الأول
قصة نوح عليه السلام

هو الأب الثانى للبشرية كما يُدعى بآدم الثانى، وهو أول الرسل كما جاء فى حديث الشفاعة عن النبى ﷺ[1].

وهو نوح بن لامك بن متوشالح بن أخنوخ (وهو النبى إدريس عليه السلام) بن بارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيت بن آدم أبى البشر، وأُم نوح هى «شمخاء بنت أنوش» وكان أبوه وأمه مؤمنين[2].

ورد ذكر قصة نوح فى ثلاثة وأربعين موضعا من القرآن الكريم اقتضى كل موضع منها أن يذكر من القصة ما يقتضيه السياق والمقام، غير أنها وردت مفصّلة فى سور الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء والقمر وسورة نوح وهى مختلفة اللفظ بحسب ما تكون العناية موجهه نحوه من البيان وملخصها:

نشأ نوح عليه السلام بين قوم يعبدون الأصنام[3]. فاجتباه ربه وخصّه بالرسالة والنبوة وأن يدعو قومه لعبادة الله وتوحيده والتزام طاعته والإيمان بالآخرة، ونبذ الأصنام التى كانوا عليها عاكفين.

وقد لبث نوح فى قومه زمنا طويلا ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا﴾[العنكبوت: ١٤]. يدعوهم إلى عبادة الله ولكن هذه المدة لم تؤت ثمارها فيهم، فلم يؤمن برسالته إلا القليل منهم، أما السواد الأعظم وأشراف الأمة

---

(١) ثبت فى الصحيحين فى حديث الشفاعة عن النبى ﷺ قوله: «يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض» وبعض العلماء يؤول هذا الحديث ويقول برسالة آدم وإدريس، فيكون نوح عليه السلام هو النبى الثالث.

(٢) نقلا عن سفر التكوين / الإصحاح الرابع.

(٣) كان لقوم نوح آلهة أخرى، قيل هى الكواكب السيارة، وبما أن هذه الكواكب تظهر ليلا وتغيب نهاراً، لذا اتخذوا الأصنام واسطة تقربهم إلى آلهتهم، وهى كما ذكرها القرآن ﴿ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾. [نوح: ٢٣].

وعرانينهم فأبوا الانصياع لدعوته عتواً ونفوراً وإباءً واستكبار حيث طعنوا فيه وفى رسالته، وهزؤا بمن اتبعوه وطالبوه بطردهم، لأنهم أراذل القوم، ويقصدون بذلك الفقراء من العمال والمزارعين وأصحاب المهن الوضيعة، وهؤلاء - فى نظرهم - قد اتبعوا نوحا دون روّية ولا تفكير، وهم ليسوا من ذوى الفضل!

وكان الوالد إذا بلغ ولده سن الرشد يوصيه أن لايتبع نوحا أبداً ما عاش، لذا توارثوا الإصرار على الشرك وأمعنوا فى العصيان.

استمر نوح فى دعوته محاولا إقناع قومه، وآخذ يحاورهم ويجادلهم، ويحذرهم عذاب الله، ويدعوهم إلى رحمته ورضوانه وامتد وعظة لهم حتى شمل ساعات الليل والنهار وحالات الجهر والسر فلم يزدهم دعاؤه لهم إلا فراراً منه ومن دعوته وكلما كرَّر لهم النصح والإرشاد زادوا غلواً فى النفور والاستعلاء،ووضعوا أصابعهم فى آذانهم وستروا وجوههم بثيابهم حتى لا يسمعوا صوت الحق ولايروا الداعى إليه، وقد أصروا على إعراضهم عن دعوة الله، وتكبروا عن اتباع نوح عليه السلام والاستجابة له تكبراً عظيما، وقالوا فى تبرم وأنفه: إنك قد أكثرت الجدل وإنا لن نترك مانحن عليه، فأتنا بالعذاب الذى تخوفنا نزوله بنا، فرد عليهم بأن أمر عذابهم بيد الله الذى أرسله لابيده، ولما بلغ نوح درجة اليأس من إيمان قومه بعد تسعمائة وخمسين سنة - على ما نصه القرآن - أقامها فيهم يدعوهم ولا يألوهم نصحا عندئذ لجأ إلى ربه يشكو قومه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧ ، ١١٨].

كما دعا على قومه بالهلاك.

﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾[1] [نوح: ٢٦- ٢٧].

(١) وديارا: أى من يسكن داراً.

سفينة النجاة

استجاب الله لدعاء نوح. وأراد سبحانه قبل أن يهيئ له وللمؤمنين برسالته أسباب النجاة فأوحى إليه أنه لن يؤمن أحد سوى من آمن، وأمره بأن لا يحزن بسبب تكذيب الكافرين له وإيذائهم إياه لأن الله سيغرقهم أجمعين.

أمر الله نوحا أن يصنع سفينة النجاة وأعلمه أنه سيكون أثناء صنعها محاطا بعنايته مشمولا برعايته، ونهاه أن يدعو للكفار بالنجاة بعد أن أصروا على كفرهم لأنه حكم عليهم بالغرق.

شرع نوح فى صنع السفينة وكان تحوله من داع إلى الله إلى نجار سببا فى تعجب الكفار منه والسخرية به، فصاروا إذا مروا عليه سخروا منه ومن عمله، ولعل أشد ما أثار سخريتهم منه أنهم علموا أنه يعمل تلك السفينة لينجوا بها ومن معه من العذاب النازل بهم استبعادا منهم لوقوعه، فكان هو أيضا يسخر منهم ومن غفلتهم عن الحق وبلادتهم عن أخذ الحيطة لأنفسهم باتباعه بإحسان وتنجية أنفسهم، وصار يتهددهم بذلك العذاب.

الطوفان: هلاك الكافرين ونجاة المؤمنين

فلما أتم نوح عدته وجاء الموعد ورأى الأمارة التى بينه وبين ربه على ابتداء أمر الطوفان وهو أن يفور تنور أهله الذى يعملون فيه الخبز بأن ينبثق منه الماء، وأمره الله تعالى أن يحمل فى السفينة أهله وأقاربه ومن آمن من قومه وكانوا قليلا باستثناء اثنين كفرا بالله هما إحدى زوجاته وأحد أبنائه. كذلك أمر الله نوحا أن يحمل معه فى السفينة من كل صنف من حيوان وطير ووحش زوجين اثنين، ذكرا وأنثى لأجل أن تبقى بعد غرق سائر الأحياء فتتناسل ويبقى نوعها على الأرض، فلما استووا على ظهر السفينة قال نوح ﴿**ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[هود:٤١] حيث أنجاهم من الهلاك، وحلت عزاليها السماء، وانفجرت عيون الأرض، وحملت المياة السفينة ومن فيها، ومكثت ما شاء الله أن

تمكث إلى أن غرق كل ما على الأرض من إنسان وحيوان، ثم استقرت السفينة على الجودى من جبال أرارات[1].

ولما أراد نوح دخول السفينة نادى ابنه وكان فى معزل عنه وقال ﴿**يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ**﴾[هود : ٤٢] فأبى أن يلبى نداء والده وأصرّ على عصيانه، وظن أن ما يجرى عوارض طبيعية عادية، وكان يأمل أن ينجو بدون ركوب السفينة ﴿**قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ**﴾[هود : ٤٢] أى يمنعنى ﴿**قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**﴾[هود : ٤٣] فهلك مع الهالكين.

ثارت الشفقة فى قلب نوح على ابنه فسأل ربه ضارعا أن ينجى ابنه، ألم يعده ربه من قبل بأنه سينجيه مع أهله، وابنه من أهله، والله إذا وعد وفى وهو أعدل الحاكمين.

فردَّ الله عليه بأنه ليس من أهله الذين وعدهم بالنجاة لأنه لم يؤمن بل أصرّ على الكفر، وقد عمل أعمالا غير صالحة، وعاتب الله نوحا أن يطلب طلباً إلا إذا كان على يقين أنه حق وصواب، ونبهه ونصحه أن لا يكون من زمرة الظالمين الذين يشفعون فى عقاب الله ولو كان المجرم ابنه، ويدَعَون شفقة الأبوة تتغلب على حكم الله.

ندم نوح على ما صدر منه واعترف بذنبه، فاعتذر عنه، وطلب المغفرة والرحمة على ما فرط منه، إلى أن تمت المدة التى لم يكن للسفينة أن تقّر فيها على الأرض إلا بها، واستوت السفينة على جبل الجودى من «ديار بكر» بعد أن ابتلعت الأرض ماءها، وأقلعت السماء وغاض الماء.. وقال الله لنوح ومن معه ﴿**اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ**﴾ [هود:٤٨].

وخرج من فى السفينة، وبارك الله فيهم، فكثروا وملأوا الأرض، ولم ينسل من كان مع نوح من غير أبنائه.

(١) يقع جبل أرارات فى أرمينيه (فى تركيا)، وهو الذى استقرت عليه سفينة نوح عليه السلام وفق ما قرره الباحث العلمى (جون موريس)، والذى قاد حملتين كشفيتين متتاليتين فى أرمينيه عامى ١٩٧٢ و ١٩٧٣، وانظر كتاب من دلائل الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسنة النبوية . تأليف د. موسى الخطيب.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧].

وقد دلت بحوث السيرليونارد[١] على أن ارتفاع الفيضان لم يكن أقل من خمس وعشرين قدما، وكان ارتفاع الطوفان كما ورد فى التوراة ستا وعشرين قدما.

وكان من رأى السيرليونارد أن الطوفان لم يشمل الدنيا كلها، ولكنه كان سيلا عارماً طغى على وادى دجلة والفرات وأغرق كل المنطقة المأهولة الواقعة بين الجبال والصحراء، وكانت هذه المنطقة بالنسبة لسكانها هى الدنيا بأسرها.

وقد سجل سكان الوادى بعد الطوفان، قصته على اثنى عشر لوحا، ذكروا فيها غرق سكان هذه المنطقة باستثناء رجل ورع بنى سفينة، ركب فيها وأخذ معه أفراد أسرته وبعض الحيوانات والدواب، وهؤلاء وحدهم هم الذين كُتِبَتْ لهم النجاة[٢].

---

(١) السيرليونارد وولى: رئيس البعثة التى اشترك فيها المتحف البريطانى وجامعة بنسلفانيا الأمريكية إلى العراق فى أوائل عام ١٩٢٠م والتى كان الغرض منها التنقيب عن جزء من التاريخ الماضى.

(٢) نقلا عن كتاب (الأرض التى تعيش عليها) تأليف: روث مور- ترجمة اسماعيل حنى، ص٢٦-٣٥.

الفصل الثانى
أدعية نوح عليه السلام فى القرآن الكريم

أدعية نوح عليه السلام فى القرآن الكريم تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: هو المشتمل على الأدعية الصادرة منه عليه السلام حيث اقتضاها المقام.

والقسم الثانى: هو المشتمل على الأدعية التى أمره الله تعالى بها.

القسم الأول

قال نوح فى سورته: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا﴾[نوح: ٢١].

فى هذه الآية يبث نوح شكواه إلى ربه مما يلاقى من قومه من إعراض وإصرار على العصيان، وهذه الشكوى اقتضاها كل ماذكر قبلها من آيات فى أول سورة نوح.

والشكوى غالبا ما تدفع صاحبها إلى الالتجاء إلى الله طلبا للنصرة والانتقام وهذا ما أوضحته الآيات التاليات لآيتنا هذه.

والشكوى وإن لم تكن دعاء صريحا إلا أنها متضمنة له وممهدة له، لذلك جاءت آيتا الأنبياء والشعراء لتجعل هذه الشكوى دعاء صريحا، ونداء واضحا.

فآية الأنبياء تقول: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء: ٧٦] أى نادى نوح ربه واستغاث به قبل أن يدعوه أحد من الرسل المذكورين فى الآيات السابقة على هذه الآية وهم (إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب عليهم السلام).

ويتابع نوح بث شكواه إلى ربه بعد أن بذل غاية جهده فى سبيل هداية قومه، وبعد أن ضاقت فى وجهه كل السبل لإصلاحهم، طلب صراحة من ربه أن يكون

حكما بينه وبينهم ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء: ١١٧ ، ١١٨].

وطلب من الله أن يمده بالنصر عليهم ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٣٩].

كما دعا على قومه بالهلاك ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[نوح: ٢٦ ، ٢٧].

دعا نوح ربه أن لايترك على الأرض أحداً من الكافرين، لأنه سبحانه وتعالى إن ترك الكافرين متمادين فى ضلالهم أضلوا غيرهم عن الحق ونشروا آثامهم، وانتقل فسادهم إلى ذريتهم بالوراثة فهم لايلدون إلا من كان على شاكلتهم فى الكفر والفجور.

ومقالة نوح عليه السلام هذه لم تكن تبرما بقضاء الله وقدره فى قومه حيث لم يؤمنوا، كما أنها لم تكن يأسا من رحمة الله فى عدم إيمانهم، ولا تعجلا منه بنزول العذاب بقومه، أو انتقاما لنفسه وإرضاءً لشهواته، كما أنها لم تكن إملاء منه على الله وأمراً لابد من فعله، كما لايجوز للعقل البشرى أن يتخذ هذا ومثله طعنا فى نوح أو إخوانه المرسلين، أو فى رسالته المستلزمة للصبر والحكم والرحمة، لأن نوحا نبى الله ورسوله فشأنه شأن الرسل فى أقوالهم وأفعالهم من العصمة والنطق، بعيداً عن الهوى، لأن الله صنعهم على عينه واصطفاهم على سائر خلقه فهم بهداه يهتدون، وعلى طريق الحق سالكون، ولولا أن الله تعالى عليم بهذا الدعاء مريدًا له ما أجراه على لسان نوح عليه السلام، ولما تحرك في صدره، ويدعم ذلك النص والاستقراء.

أما النص فقوله تعالى ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[هود: ٣٦]. وأما الاستقراء: فهو لبثه فى قومه داعيا ألف سنة إلا خمسين عاما، ورأى بنفسه كيف ينصح الرجل ابنه ويحذره من دعوته، فقد كان الرجل ينطلق بابنه حتى يصل إلى نوح ويقف قباله ويقول له احذر هذا فإنه كذاب، وإن أبى أوصانى بمثل هذه الوصية، فكان الكبير يموت وينشأ الصغير

بعده على هذه الوصية محافظا ومنفذاً، لذا توارثوا الإصرار على الشِّرك، وأمعنوا فى العصيان.

لقد انتهت الرسالة بالنسبة لهؤلاء القوم الجاحدين. . وقوم هذه حالتهم وتلك سجاياهم فلابد أن يوضع لهم حد، فاستنطقت حالتهم هذه نوحا بما ساغ له أن يدعو به عليهم فاستجاب الله دعاءه، وأمره بصنع السفينة التى تنجيه ومن آمن معه من الغرق. . ولكن كيف ذلك؟

العناية الإلهية قد ألهمته من قبل أن يزرع الشجر، وبعد استوائه وصلاحيته للصناعة يقطعه ويختزنه، حتى أصبح لديه الشيء الكثير من الخشب الذى أوحى الله إليه أن يصنع السفينة منه، ولكن على أى مثال وأية صورة؟

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾[هود:٣٧]. . فلن نتركك وحيداً فى الميدان إنما سنعلمك الصنع، ونكون لك عونا بالوحى والإلهام، فلا تجزع ولا تفزع، أمامك الطائر فاصنعها على مثاله، وانظر إلى الحوت تتعلم منه كيف يسير فى الماء، وعلى غرارهما فاصنع سفينتك، ولك الوحى منا والإرشاد من جانبنا.

(واصنع الفلك) وهى التى وصفها القرآن بأنها ﴿ الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾[القمر:١٤]. وبأنها ﴿ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [الشعراء:١١٩]. أى مسامير.

شيء لم يره قومه، ولم يسبق له مثال من قبل، وسفاهة القوم تغلبهم ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾[هود:٣٨]. ولا همّ للملأ الكبار من القوم إلا السخرية والاستهزاء ممن يدعوهم إلى خيرهم، فيستكبرون ويهزأون، فهم يقولون: إن نوحا انقلب إلى نجار بعد أن كان ينصح، إنه صبأ إلى تابعين من أراذل القوم وسفلتهم، لقد اتخذ النجارة حرفة له وصناعة، فما باله انقلب فيما بين عشيَّة وضحاها إلى نجار يصنع بعد أن كان ينصح، ماباله يصنع مثل هذا الهراء الذى لانفع فيه ولم يسبقه إليه أحد؟!

وقالوا: مجنون! ما باله يصنع هذه السفينة هل يأتى لها بالثيران لتجرها. . أم أنه سيطيرها فى الهواء!! لهذا كله أراد نوح عليه السلام بدعائه هذا أن يطهّر

الأرض من المفسدين، ويعمرها بالصالحين، وأن تنار الدنيا بكلمة التوحيد، وأن يُطاع الله ولا يعُصَى لتنزل الرحمات، وتكثر البركات، ويمضى الناس قدما على طريق الحق.. وكان هذا الدعاء هو آخر الأسلحة التى فى يده، والذى به يستطيع أن يستبدلهم بآخرين، لله حامدين شاكرين، ولنعمائه حافظين محافظين.. وبعد أن استكملت السفينة أسباب قوتها، واستجمعت عناصر وحدتها.

دعا نوح ربه قائلا:

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠].

لم يكن هذا الدعاء من نوح عجزا عن أداء رسالته أو ضعفا فى عقيدته أو تشفيا لنفسه من قومه، لابل كان رحمة منه شملت الكافر والمؤمن.

أما الكافرون فكان الطوفان نهاية حياتهم، ومصير عصيانهم فقد وضع لهم بهذا الدعاء حدا لسيئاتهم، وحجزهم عن التمادى فيها لوامتدت بهم السنون، وحال بينهم وبين ما يشتهون من المزيد من الذنوب والآثام.

وأما المؤمنون الذين آمنوا ونجوا معه فى السفينة، فقد كان الطوفان مصدر سعادتهم وطمأنينتهم، حيث أتاح لهم ولذريتهم من بعدهم حرية الكلمة والعمل وحرية العبادة والتوحيد بطاعة الله تعالى، فعبّد الطريق وطهره وأزال ما به من الكفر والإلحاد حيث لم يبق على الأرض من الكافرين ديارا، واصبح الصغار - أى صغار المسلمين وأولادهم وأحفادهم - يتنسّمون أريج الإيمان، ويشتمون عطر الإخلاص والطاعة، وأصبح المناخ ملائما لوحدانية لا تشوبها شائبة الشرك، وأصبحت الحياة ممهدة لبذل الطاعة واتباع الأوامر الإلهية واجتناب النواهى الربانية... فنوح يطلب من ربه النصرة لأنه عيل صبره وغلبت عليه طبائع البشر وظهر للكافرين أنهم غلبوه على أمره... وكأنه بقوله: ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ ﴾ يستنجد بالله مستغيثا وقائلا يا رب إنى عجزت عن الانتصار لدينك فانتصر يا إلهى لذاتك المقدسة فانهم كفروا بك، وعصوا أمر رسالتك وكذبوا نبيك وأصبحوا حجر عثرة أمام الراغبين فى الدخول فى رحاب إيمانك، بل صاروا مصدر شر مستطير على الموحدين المؤمنين بك المتبعين لشريعتك.

فاستجاب الله نداءه ولبى استغاثته فانسابت أبواب السماء بماء منهمر وتفجرت الأرض عيونا، فالتقى الماء على أمر قد قدر.. ولما بلغ السيل الزّبى بل جاوز القيعان والربا وتحركت السفينة بين أمواج كالجبال ارتفاعا وأبصر نوح ابنه مقتربا من الحِمام، لانت أعطاف رحمته، واتجهت به طبائع البشرية إلى ابنه «كنعان» قائلا اركب معنا ولا تكن من الكافرين، فردَّ الشقي رد الخائب الخاسر ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ فأجابه ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ [هود:٤٣]. ولما حال بينهما الموج حتى غاب عن بصره وهو فلذة كبده اعتلج صدره هَمّا وحزنا، فاتجه إلى مفرّج الكروب ومغيث الملهوف وجامع الشتات والهادى إلى سواء الصراط قائلا: يارب إن ابنى من أهلى وقد وعدتنى ووعدك الحق أن تنجينى وأهلى وأنت أحكم الحاكمين.. فأوحى الله إليه أنه ليس من أهلك لأنه عملا غير صالح، لأن أهل المرء هم أهل دينه وعقيدته وشريعته أما ابنك فقد آثر الكفر على الإيمان واشترى الضلالة بالهدى..

فهؤلاء الذين اتبعوك هم الذين وعدتك بنجاتهم واستبقاء حياتهم أما من خالفك وإن كان بينك وبينهم وشائج القربى رحما ونسبا فهم أهل الشقوة وإن آووا إلى ركن شديد.

وإياك إياك أن تحملك عاطفتك البشرية على أن تجادلنى فى شىء لا تعلمه أو تسألنى عن شىء لا تدركه، إنى أعظك وأرشدك حتى لاتكون من الجاهلين[1].. عندئذ أدرك نوح أن حنانه لابنه أبعده عن الحق، وإشفاقه عليه أذهبه عن الصواب وكان الأولى به والأفضل والأجدر أن يشكر ربه على نجاته ونجاة قومه معه، وأن يحمده على هلاك من عصوه وآذوه وتنكروا لمبادئه وكان حريا به أن يرفع أكف الضراعة إلى مولاه تائبا ومستغفرا ونادما، وهذا هو ما فعله نوح وما ارتضاه ضميره وما حملته عليه عصمته فانبرى قائلا ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود:٤٧].

فهو فى دعائه هذا يعترف بتجنبه الصواب، ويقر بوحدانية الله والتجائه إليه ويعقد النيّة عازما على اجتناب الاستفسار عما لا علم له به، ثم يطلب من ربه

(١) قال فى التسهيل : وليس فى ذلك وصف له بالجهل بل فيه ملاطفة وإكرام (التسهيل (٢/١٠٦).

المغفرة والرحمة فى صورة الحيّى الذى يمنعه حياؤه فى أن يكون طلبه هذا صريحا، تأدبا مع الله تعالى ووقارا، وكيف لا يكون نوح على هذه الصورة وهو القائل لقومه: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٣ ، ١٤] ترفق فى الطلب وتحشم فى الرجاء قائلا: رب إن لم تدركنى بغفران ذنبى وتشملنى بواسع رحمتك أكن فى عداد الذين خسروا أنفسهم ودينهم وأكن من الجاهلين، ولقد جاء دعاؤه كدعاء أبيه آدم وأمه حواء قبله حيث قالا ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣].

وقال نوح ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود:٤٧].

فسبحان من أنطقهما بأسلوب واحد ولفظ معين مع ما بينهما من تباعد فى الزمن..

القسم الثانى

عندئذ لم يترك الله نوحا بل علمه كيف يثنى عليه ويشكره إذا اعتلى السفينة فقال له إذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:٢٨] أى إذا امتطيتها وخاضت بك لجة البحر وشقت بمن معك عبابه فاشكرنى واثن على واختر اللفظة اللائقة بالشكر والثناء وهى لفظة «الحمد لله» .. حتى ذهب الشافعية إلى أنه لا تصح الخطبة بل لا تنعقد خطبة الجمعة إلا بلفظ، الحمد لله، إذ هو أسمى ما حمد الله به نفسه وعلمه رسله وخلقه.

والله تعالى بأمره هذا، يعلمه ويعلّم عباده كيف يقدّمون بين يدى دعائهم من الحمد لله والثناء عليه، بما يكون مقدمة للدعاء وممهدا وعاملا من أهم العوامل على استجابته وقبوله، فهو تعالى يعلّمه الدعاء بعد أن علّمه الحمد والثناء، والدعاء هو قوله تعالى ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٩].

فالله تعالى يأمر نوحا أن يقول دائما عند نزوله أى منزل: «اللهم أنزلنى منزلا مباركا كثير الخيرات والبركات»... ثم أمره أن يثنى عليه تعالى بقوله «وأنت خير المنزلين» أى الذى يختار المنازل الحسنة المباركة.

وفى هذا إيذان بفضل نوح عليه السلام كما أنه إشعار بأن فى هذا الدعاء والثناء مندوحه عما سواه... فلما استكملت السفينة رحلتها وبلغت غايتها وانحسر الماء بقوله تعالى ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾[هود:٤٤].. فغيض الماء فعلا، وقضى الأمر، وأنجز الله وعده بنصر عباده وإهلاك أعدائه، واستقرت السفينة على الجودى وهو جبل بالموصل أو بالشام كما قيل، وكان ذلك فى العاشر من المحرم، حيث روى أنه عليه السلام ركب السفينة في العاشر من رجب ونزل منها فى العاشر من المحرم فصام ذلك اليوم شكرا لله وسُنّة متبعة، عندئذ أكرم الله نوحا غاية الإكرام وقال له ﴿اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود:٤٨] أى اهبط من السفينة على الأرض بسلامة وعافية وأمان وبركات وخيرات نامية متزايدة عليك، وعلى الأمم الناشئة المؤمنة معك فى السفينة، أما الأمم الناشئة الكافرة من الأمم التى معك فسوف نمتّعهم فى الدنيا ثم يمسّهم منا فى الآخرة عذاب أليم وذلك بسبب تمّردهم وكفرهم وعصيانهم وشِركهم.

بعد هذه الرحلة الطويلة والسنوات العديدة التى هى عمر نوح والتى تخللتها عدة أدعية صدرت منه عليه السلام لقومه وعلى قومه ولابنه ولنفسه، بعد هذا كله أحب نوح عليه السلام أن يكون آخر أمره استغفارا لنفسه وللعامة والخاصة ممن معه ومن يأتون بعده فقال النبى المعصوم ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا﴾ [نوح:٢٨].

يأمل نوح من ربه بل ويطمع فى كرمه أن يغفر له ما صدر عنه من ترك الأولى والأفضل حيث دعا على قومه وكان الأجدر به ألا يفعله لأن فيه انتقاما للنفس وتحقيقا لشهواتها وحظها... كذلك يغفر له طلب النجدة لابنه وسؤاله الحفاظ عليه وهولا يعلم ما قُدّر له، وما دام كذلك فما حق له أن يسأل ربه ما

ليس له به علم.. ثم ثنى بطلب المغفرة لأحب الناس إليه وهما والداه وكانا مؤمنين معه فى السفينة وهو بهذا الطلب يضرب المثل الأعلى فى بر الوالدين حيث لم ينسهما فى خضم حياته المليئة بالعديد من المشاكل، يضرب المثل الرائع هذا ليكون لمن معه ولمن بعده خير قدوة تحتذى وخير أسوة تؤتسى.

ثم ثلث بطلب المغفرة لمن ناصروه وعزروه ووقروه فكانوا له اللحمة والسداة وهم الذين آمنوا به وكانوا معه فى السراء والضراء وتكبّدوا المشاق، وامتطوا معه عباب الماء ولشدة اتصالهم به جعلهم الله تعالى كأنهم من أهل بيته، والحقيقة أن بيت التوحيد هو خير دار تتجمع فيه النفوس الطاهرة والقلوب المليئة بالإيمان.

ثم طلب المغفرة لكل من يأتى بعده من مؤمنى ومؤمنات الرسل والأنبياء.. ولقد استجمع فى دعائه هذا أسباب قبوله حيث بدأ بنفسه، وهذا أيضا من سُنّة رسولنا الأعظم، ثم ثنّى بوالديه، وعمّمه بعد ذلك لجميع المؤمنين والمؤمنات.

ثم ختم دعاءه هذا بما يقى البشر من كفر الكافرين وإلحاد الملحدين وظلم الظالمين فقال عليه السلام ﴿لا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا﴾[نوح:٢٨] أى يارب أتضرع إليك أن لاتزد الظالمين أنفسهم وغيرهم إلا تبارا وهلاكا.

فسيدنا نوح عليه السلام يدعو على الظالمين مطلقا فى ختم دعائه، وذلك لما لاقاه من تجبّر قومه وتأبيهم نصيحته، ومحاربتهم لدعوته ورسالته ونكرانهم الخالق وكفرانهم نعمه وآلاءه.

وجاز للرسول أن يدعو على قومه عند نفاد صبره خصوصا بعد أن أخبره تعالى بقوله: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾ [هود:٣٦] وبعد أن خاطبه تعالى قائلا: ﴿ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود:٣٧].

فإذا كان الله تعالى قد نهاه أن يخاطبه فى شأنهم أو أن يدعو لهم، فيعتبر ذلك إجازة له أن يدعو عليهم لينقى البشرية منهم، ولذلك سهل له كل وسائل النجاة ودبر للكفرة كل وسائل الإهلاك.

والرسول بشر قد يحصل منه اليأس، كما يجوز أن يقلّ منه الاحتمال..
وذلك بدليل قوله تعالى لنبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام فى سورة الكهف:
﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦].

وقوله تعالى فى سورة هود ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾[فاطر: ٨].

وكما يصح أن يدعو على قومه لانحراف عقيدتهم وخبث نيّاتهم وجحودهم الرب ونعمائه، جاز أن يدعو على من كان على دربهم سائرا من الظلمة الفاسقين.

ولذا لا ينبغي لمعترض أن يقول كيف ساغ لنوح وهو نبى مرسل أن يدعو بهذه الأدعية مع أنه بُعِث رحمة للناس لا دعاء عليهم .. كما أن فيمن دعا عليهم صغارا ما ارتكبوا إثما ولا اقترفوا ذنبا.. وللرد على هذا نقول:

روى أن الله أعقم أرحام النساء قبل الطوفان أربعين سنة أو تسعين فلم يكن فيهم صبى حين أغرقوا، أو يقال بأن الله تعالى أراد إيلام الآباء والأمهات حين إبصارهم فلذات أكبادهم يغرقون... أو لعلهم غرقوا مع آبائهم وأهلهم، لاعلى وجه العقاب بل كما يموتون غرقى أو حرقى لانقضاء آجالهم حتى قال الحسن: علم الله براءة الصبيان فأهلكهم بغير عذاب.

الفصل الثالث
دروس وعبر

يمكن استنتاج ما يلى من أدعية سيدنا نوح عليه السلام لتكون قبسا يهتدى به.

١- نبى الله نوح عليه السلام يضرب لنا مثلا أعلى فى قوة العزيمة ومضائها واستمرارها عبر دعوته التى استمرت زمنا طويلا دون أن تهين له إرادة أو تتزعزع له عقيدة.

﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا ﴾[العنكبوت: ١٤].

ولكن ما مبعث هذه العزيمة القوية وما ركائزها فى نفس نبى الله نوح.

لقد كان مبعثها إيمانه القوى بربه واعتماده عليه فى كل ما يصادفه من صعاب وأذى.

٢- استعصاء العلاج فى بعض الحالات والأحايين على المصلحين، وتمرد الخلق على الله والرسل بشتى وسائل التمرد والإباء.

شاهده ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٦، ٧][(١)].

لقد رفض هؤلاء القوم دعوة نبيهم نوح عليه السلام جملة وتفصيلا حتى أنهم رفضوا الاستماع والنظر إليه، وهذا نهاية الإعراض عنه، والإيذاء لشعوره.

أضف إلى هذا وصمهم إياه بالجنون ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[المؤمنون: ٢٥].

---

(١) واستغشوا ثيابهم: تغطوا بها

وهددوه بالرجم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾[الشعراء:١١٦]. ولكن نوحا أمام هذا التهديد لم يتراجع بل لجأ إلى ربه وطلب الحكم بينه وبينهم، بين المظلوم والظالمين من غير تحديد .

﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ [الشعراء:١١٨].

٣- على الدعاة والمصلحين أن يتجمَّلوا بالصبر وأن يتحملوا الأذى.

٤- على الدعاة والمصلحين أن يكونوا ذا لسان وحجة وإقناع، شاهده ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [هود:٣٢].

٥- التلويح بالدعاء قبل التصريح، شاهده ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح:٢١].

٦- التجاء العبد إلى مولاه طلبا للنجاة له ولمن آمن به عند اشتداد الكرب وتأزم الأمور، شاهده ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾[الشعراء:١١٧]، وقوله ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر:١٠].

٧- تسلية الله رسله عند الأزمات واستنفاد صبرهم، شاهده ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[هود:٣٦].

٨- جواز الدعاء على العصاة والكافرين حتى لوكان فى هذا هلاكهم وإبادتهم حفاظا على الخلق والفضيلة وأهلها، شاهده ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[نوح:٢٦].

٩- قرن الدعاء بما يبرره من الحجج والبراهين، شاهده ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[نوح:٢٧].

١٠- استجابة الله دعاء من دعاه عند مشيئة لذلك، شاهده ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[المؤمنون:٢٧].

١١- حفظ الله لرسالاته وأنبيائه ورسله وأوليائه، شاهده ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[1][هود:٣٧].

(١) واصنع الفلك بأعيننا: الأعين كناية عن الرعاية والحفظ، يقال للمسافر «صحبتك عين الله» أى رعاية الله وحفظه.

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾[١][هود: ٤٤].

تنبيه : هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها، وحوت من بدائع الفوائد نهايتها، وجمعت من المحاسن اللفظية والمعنوية ما يضيق عنه نطاق البيان. وقد اهتم بإظهار لطائفها وأسرارها العلامة أبوحيّان حيث قال رحمه الله: في هذه الآية أحد وعشرون نوعًا من البديع: المناسبة في قوله : ﴿أَقْلِعِي وَابْلَعِي﴾، والمطابقة بذكر الأرض والسماء، والمجاز في ﴿يَا سَمَاءُ﴾ المراد مطر السماء، والاستعارة في ﴿أَقْلِعِي﴾، والإشارة في ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ فإنها إشارة إلى معان كثيرة، والتمثيل في ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ عبر بالأمر عن إهلاك الهالكين ونجاة الناجين، والإرداف في ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ فلفظ واستوت كلام تام أردفه بلفظ ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ قصداً للمبالغة في التمكن بهذا المكان، والتعليل في﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ فإنه علة للاستواء. والاحتراس في﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وهو أيضا ذم لهم، والإيجاز وهو ذكر القصة باللفظ القصير مستوعبا للمعاني الجمّة، وعدّد بقية الوجوه وهي: الإيضاح، والمساواة، وحُسْن النسق[٢]، وصحة التقسيم، وحسن البيان، والتمكن، والتجنيس، والتسهيم، والمقابلة، والتهذيب، والوصف»[٣].

وتأمل كيف أن القرآن لم يقل «يا أرض ابلعي فبلعت» ويا سماء أقلعي فاقلعت، لأن ذلك يوهم إمكان المخالفة، والتمرد على العظمة الإلهية، بل قال فقط ﴿ يَا أَرْضُ ابْلَعِي ..وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ لأن الأمر الإلهي لايرد، والكون كله خاضع لكلمته (كن فيكون).

---

(١) «يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي» بين الأرض والسماء طباق، وبين ابلعي واقلعي جناس ناقص، وكلاهما من المحسنات البديعية. روى أن أعرابيا سمع هذه الآية فقال : هذا كلام القادرين لايشبه كلام المخلوقين.

ويروى أن ابن المقفّع، وكان أفصح أهل زمانه رام أن يعارض القرآن فنظم كلاما، وجعله مفصّلا ، وسماه سورا، فمر يوما بصبي فسمعه يقرأ الآية «قيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي»فرجع إلى بيته ومحا ماكان قد بدأ به، وقال: أشهد أن هذا لايعارض أبداً، وما هو من كلام البشر. (روح المعاني: ١٢، ٦٣).

(٢) حسن النسق: عبارة عن أن يأتي المتكلم بالكلمات من النثر، والأبيات من الشعر متتاليات متلاحمات تلاحما سليما مستحسنا لامعيبا ولا مستهجنا.

(٣) النهر المادّ من البحر (٥/ ٢٢٨).

ثم أشار الله إلى النتيجة التى ترتّبت على ذلك بقوله : ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾[(١)] أى ذهب الماء، فإن غيض تشير إلى انقطاع مادة الماء من نبع الأرض ومطر السماء ولولا ذلك لما غاض الماء.

ثم بيّن الله الغاية التى توخّاها من الطوفان بقوله : ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾[(٢)] وحقيقته معناها: هلك من قضى الله هلاكه، ونجا من قدّر له النجاة. وجمله ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ تشعر بأن الإهلاك والإنجاء كانا بأمر مُطاع، وقضاء من لا يُردّ قضاؤه.

كذلك يضيف القرآن استقرار السفينة على جبل الجودى بلفظ (استوت) دون استقرت لما فى الاستواء من الإشعار بجلوس متمكن لازيغ فيه ولا ميل ولا حركة، فبهذا الاستواء تسكن قلوب أهل السفينة ويسهل خروجهم منها بدون خوف، بخلاف معنى استقرت فإنه يحمل معنى الزيغ والميل.

وأخيراً ينهى القرآن الآية بقوله ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا دعاء على الهالكين، ووصفهم بالظلم ليعلم الذين من بعدهم أن جميع من هلك كان مستحقا للهلاك، احتراسا لما قد يتوهم أن الهلاك بعمومه قد شمل من لا يستحق العذاب.

١٢- حنان الأبوّة حنان غريزى، ينسى الأب أحيانا الصواب فى القول والفعل فيدفعه إلى مالا ينبغى أن يكون منه، شاهده ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾[هود:٤٥].

١٣- لفت أنظار الرسل والمصلحين إلى تجنب ما لا ينبغى فعله أو قوله، شاهده ﴿فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[هود:٤٦].

١٤- التمادى فى الضلال والتمسك بالأوهام عند اشتداد الأزمات هو شأن العصاة المعاندين، شاهده ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ [هود:٤٣].

---

(١) يُعرف هذا فى علم البلاغة بفن (الإشارة) وهو أن يكون اللفظ القليل دالا على المعنى الكثير.

(٢) هذا ما يعرف فى علم البلاغة باسم (الإرداف) وهو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع، بل يعبر عنه بلفظ هو ردف المعنى وتابعه.

١٥- العصمة من الأخطار لاتكون إلا بفضل الله ورحمته، شاهده ﴿ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾[هود:٤٣].

١٦- الحفاظ على الأجناس البشرية وغيرها من الكوارث، شاهده ﴿ احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾[هود: ٤٠].

١٧- جواز الدعاء على الظالمين مطلقا سواء كانوا فى عصر الداعى أم قبله أم بعده، شاهده ﴿ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا ﴾[نوح:٢٨].

١٨- إظهار محاسن التوحيد والمداومة على الاستغفار وبيان فائدته، شاهده﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾[نوح: ١٠، ١١].

١٩- تقديم الحمد والثناء على الله بما هو أهله بين يدى دعائه، شاهده﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾[هود: ٤٥]، ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾[المؤمنون:٢٩].

٢٠- الدعاء عند بلوغ السفر والحلول بالمكان، شاهده ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾[المؤمنون:٢٩].

٢١- الاعتراف بالخطأ والندم والاعتذار فوراً، وطلب الغفران والرحمة، شاهده ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[هود:٤٧].

٢٢- تقديم الداعى نفسه فى الدعاء إذا دعا لغيره، شاهده ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾[نوح:٢٨].

٢٣- البر بالوالدين بالدعاء لهما بعد وفاتهما، شاهده ﴿ وَلِوَالِدَيَّ ﴾[نوح:٢٨].

٢٤- ثناء الله على المصطفين من خلقه تقديراً لجهادهم، وتعويضا لصبرهم حيث جعل الله الثناء عليهم ممتداً إلى يوم القيامة، شاهده ﴿ سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ ، ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الصافات ٧٩ ، ٨١].

٢٥- على الدعاة والمصلحين أن يتّصفوا بالحنان والعطف على رعيتهم وذوى قرابتهم، شاهده ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾[نوح:٢٨].

٢٦- أهل المرء حقا هم أهل عقيدته ودينه ولا اعتبار بصلة الدم والرحم والنسب والعصب، شاهده ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[1] [هود:٤٦]، ﴿وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾[2][هود: ٤٠].

كانت رابطة القربى ومازال من أهم الحوافز التى ينقاد إليها الإنسان ويخصها بقسط كبير من تضحيته وميله الشخصى، والإسلام أعطى لصلة القرابة حظا كبيراً من العناية والرعاية، لأن طبيعة الإنسان ومصلحته تقوم على مراعاتها والقيام بواجباتها. ولكن مراعاة القربى شرط أساسى للقيام بحقها ألا وهو الإيمان بالله والسير بموجب شريعته، فالمسلم عليه أن لا يخص بالود من يكفر بالله ويعصيه ولو كان من أقرب الناس إليه نسبا. جاء فى القرآن ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾[المجادلة: ٢٢].

وفى قصة نوح عليه السلام يعرض لنا القرآن مثلا حيا على ذلك، فنوح تأخذه عاطفة الشفقة على ولده فيطلب من ربه أن ينجى ابنه من الهلاك، فيعاتبه الله على ذلك، ويعتبر عمله من الجهل الذى لايليق أن يتصف به.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[هود: ٤٥ ، ٤٦].

والذى ينشده القرآن من وراء ذلك هو توجيه الإنسان إلى أن أعماله الصالحة هى المعوّل عليها فى نيل السعادة فى الآخرة، وأنه ليس للشفاعات والقرابات أى تأثير فى نجاته من عذاب الله إن كان عاصيا، وهذا ما أكده القرآن أيضا.

(١) قال ابن عباس فى قوله تعالى «إنه ليس من أهلك» كان ابنه من صلبه، ولكنه لم يكن مؤمنا، وما بغت أمرأة نبى قط، ومعنى الآية: إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك (الطبرى: ١٢/ ٥١) وقد نبهت الآية أن أهله هم الصلحاء، وأهل دينه وشريعته، فمن لا صلاح له لا نجاة له، ومدار الأهلية القرابة الدينية لا القرابة البدرية.

(٢) والمقصود ابنه وزوجته.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[التحريم: ١٠].

ففى هلاك امرأة نوح وامرأة لوط، بسبب بغيهما وانحرافهما عن الطريق المستقيم عظة قرآنية بليغة هى: أن القرابة مهما اشتدت لايمكن أن تغنى الإنسان شيئا إن كان سيىء العمل.

٢٧- التوفيق بين الطبقات:

من عهد نوح يعرض القرآن لطبيعة المجتمع الإنسانى الذى ينقسم إلى طبقتين:

طبقة الأشراف والأغنياء (الإقطاعيين والرأسماليين، البورجوازيين) وطبقة العمال والفقراء (البروليتاريا) فالقرآن يصوّر لنا فى قصة نوح عليه السلام أن الطبقة الفقيرة العاملة هى التى تستجيب لدعوة الرسل لما فيها من عدالة ومساواة ورحمة، تسرى بينهم وبين الأغنياء وتنصفهم من ظالميهم ومستغليهم.

ولكن طبقة الأشراف والأغنياء تمردت على دعوة الرسول، نوح عليه السلام وخاطبته بكلام فظ غليظ ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾[هود:٢٧] فهذا القول يصف نسق تفكيرهم الذى امتزج بالكبرياء والبطر. كما يخاطبون الطبقة الفقيرة بصلف وغرور ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[هود:٢٧].

أى أنهم أفضل منهم فلا مجال لأن يلتقوا معهم عند أى معتقد أو كفاح مشترك، ويبدو أن طبقة الأشراف قد وعدت نوحا بأن تجتمع معه وتتقبل دعوته إذا طرد هؤلاء العمال والفقراء من مجلسه ومعيشته، ولكن نوحا أبى ذلك وأجابهم قائلا:

﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾[هود: ٢٩، ٣٠].

ثم يتابع نوح عليه السلام تنفيذ مزاعمهم ﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾[هود: ٣١].

فالقرآن منذ أربعة عشر قرنا عمل على تحطيم هذا التفاوت الاجتماعى بما جاء فيه من آيات تحث على المساواة بين الناس. لقد أراد الله أن يبين للناس فى قصة نوح أن ليس للأغنياء والأشراف أى امتياز على غيرهم، فالمجتمع الإنسانى الذى يريده الله هو مجتمع المساواة بين بنى البشر فى الحقوق والواجبات، وجعل التفاضل بين الناس على أساس من العلم والتقوى، وما يقدمه كل فرد من خير لمجتمعه. قال الله تعالى﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات: ١٣] ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٩].

فالقرآن يرى أنه لو أصغى رجال المال إلى صوت الحق لما كان هناك صراع بين الطبقات..!

٢٨- من دلائل الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم:

إن القرآن فى وصفه قدرة الله فى هذا الكون، يسبغ على الوصف المراد تعبيراً دقيقا، فهمه العرب منذ أربعة عشر قرنا، فهماً ينسجم مع ما وصلت إليه عقولهم من الإدراك، كما يفهمه الرجل المتمدن اليوم فهماً جديداً بما تسلح به من علم ومعرفة، وبما توصل إليه من مكتشفات علمية فى مجال هذا الكون، والأمثلة على ذلك كثيرة فى القرآن الكريم، ولكنا هنا سنقتصر على مثالين وردا فى قصة نوح عليه السلام.

قال الله تعالى ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[نوح: ١٦].

أى وجعل القمر فى السماء الدنيا منوراً لوجه الأرض فى ظلمة الليل، قال الإمام الفخر: القمر فى السماء الدنيا وليس فى السموات بأسرها ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[نوح: ١٦] أى وجعل الشمس مصباحا يستضئ به أهل الدنيا كما يستضئ الناس بالسراج فى بيوتهم، ووصف الشمس بالسراج لأنها تضئ بذاتها، ونحن نعلم الآن أن الشمس نجم ينتج الضوء والحرارة بالطاقة المتولدة عن التفاعلات

النووية بداخله. وعَبّر عن القمر بالنور لأنه يستمد نوره من غيره، فهو ليس مضيئا بذاته بل هو يعكس الضوء الذى يستقبله من الشمس، وهذا ما أثبته العلم الحديث من أن القمر جرم مظلم يستمد نوره من الشمس، وجاء فى القرآن على لسان نوح عليه السلام ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾[نوح:١٧] فهذه الآية تعلن بأن الله سوّانا من النبات، وأن استمرار حياتنا متوقف على النبات. ومن المدهش أن هذه الآية هى حقيقة علمية.

يقوم النبات بواسطة أوراقه الخضراء بعملية حيوية تسمى؛ التمثيل الضوئى (الكلوروفيللى) حيث تقوم الخلايا النباتية الخضراء بامتصاص الطاقة الشمسية لتحول ثانى أكسيد الكربون والماء إلى سكر ونشا مع تحرير الأكسچين فى الجو، ومن المعروف أن الحيوانات لا تستطيع صنع غذائها بنفسها، ولكنها تعتمد على النبات فى صنع الغذاء من المواد الأولية فى التربة (الأرض)، ويقوم النبات بالتمثيل الضوئى بصنع الكربوهيدرات كالسكر والنشا كمواد أساسية لتوليد الطاقة لنشاط الحيوان والإنسان، كما يقوم النبات بصنع البروتين الذى لا يقل أهمية عن الكربوهيدرات لأنه لازم لنمو وتعويض الخلايا الحية، ولتوضيح ذلك فإن النبات يمتص النتروجين (من الهواء الجوى أو المركبات النتروچينية فى التربة) والماء ليتحدا مع الكربون والأيدروجين والأكسچين لإنتاج الأحماض الأمينية، وهى مركبات أساسية لصنع البروتين، لأن الأحماض الأمينية تتحد مع الكبريت والفوسفور، فتتحول بذلك إلى مركبات بروتينية معقدة تختلط بالماء فيتكون البروتوبلازم الذى يبنى بدوره أجسام الكائنات الحية[1].

ومن ثم فقد قرر علماء الأحياء أنه بالنسبة لجميع الحيوانات، وضمنها أنا وأنت أيها القارئ، وكذلك جميع البكتريا التى تعيش عن طريق أكل النباتات أو المنتجات النباتية، أو الحيوانات التى أكلت هذه النباتات، فقد نأكل سمكة كانت تعيش على أكل أسماك أصغر، وهذه بدورها كانت تعيش على أسماك أصغر وأصغر، أو ديدان، أو غيرها من الحيوانات، ولكن إذا تتبعنا هذه السلسلة حلقة

---

(١) وانظر كتاب «من دلائل الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسنة النبوية» تأليف د. موسى الخطيب.

حلقة، فلابد أن نجد نباتات فى نهايتها . . فالنباتات إذن هى قاعدة وأساس هرم الحياة الذى يحتل الجنس البشرى قمته[1].

وهكذا نرى أن القرآن أوجز وصف غذاء الإنسان والعناصر التى يعيش منها كما قرره العلم حديثا، فسبحان من أحاط بكل شئ علما.

---

(١) نقلا عن كتاب (الماء معجزة الطبيعة) لمؤلفه طومسون كينج.



١- أدعية هود عليه السلام فى القرآن الكريم

٢- أدعية صالح عليه السلام فى القرآن الكريم

٣- دروسٌ وعبــر

تمهـــيد

اتفق الرواه وأهل الأخبار على تقسيم العرب من حيث القدم إلى العرب العاربة، وهم الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام، وهم قبائل كثيرة منهم: عاد وثمود وجرهم وطسم وجديس وأميم ومدين وعملاق وعبيل وجاسم وقحطان وبنو يقطن، وغيرهم، ويقال لهم أيضا، العرب البائدة، وسبب تسميتهم أنهم بادوا أى هلكوا ولم يبق على وجه الأرض أحد من نسلهم.

أما قوم عاد فإنهم من نسل (عاد بن عوص بن إرم). وأما قوم ثمود فإنهم من نسل (ثمود بن جائر بن إرم)، وإرم هو ابن سام بن نوح.

وذهب الرواة إلى وجود طبقتين لقوم عاد هما: عاد الأولى، وعاد الثانية وكانت عاد الأولى من أعظم الأمم بطشا وقوة، وكانت مؤلفة من بطون كثيرة تزيد على الألف. والقرآن يشير إلى هلاكهم فى قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾[النجم: ٥٠، ٥١].

وقد بعث الله فى قوم عاد نبيا منهم اسمه (هود) وهو من نسب (عبد الله بن رياح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم)، والخلود إحدى قبائل عاد التى يرى بعض أهل الأخبار أنها إحدى عشر قبيلة، ويقال أن هوداً عليه السلام أول من تكلم بالعربية.

أما ثمود فقد بعث الله نبيا منهم اسمه (صالح) وهو من نسب (صالح بن عبيد بن آسف بن ماسخ بن عبيد بن خادر بن ثمود بن جائر بن إرم).

وفى صحيح ابن حبان عن أبى ذر فى حديثه الطويل فى ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه «منهم أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أباذر» وأما العرب المستعربة، فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام.

وكان إسماعيل عليه السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم، ولكن أنطقه الله بها فى غاية الفصاحة والبيان وكذلك كان يتلفظ بها رسولنا صلى الله عليه وسلم.

الفصل الأول
أدعية هود عليه السلام فى القرآن الكريم

كانت مساكن عاد (قوم هود عليه السلام) بالأحقاف قال الله تعالى ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾[1] [الأحقاف: ٢١] ولم يعين القرآن موقعها، ولكن أهل الأخبار يقولون: إنها كانت فى المنطقة الواقعة شمال حضرموت ويحدها شمالا الربع الخالى وشرقها عمان، وهى أرض مطلة على البحر يقال لها «الشحر» واسم واديهم مغيث[2] وقد بنت عاد مدينة اسمها (إرم) التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾[3] [الفجر: ٦ ، ٧].

وكان قوم هود عبدة أصنام يعبدونها من دون الله تعالى، ضاهوا فى عبادتها قوم نوح، ومن أشهر أصنامهم ثلاثة: صر وصمود وهرا، وفى أثر مروى عن ابن عباس أنهم اتخذوا صنما يقال له «الهتار»، فبعث الله إليهم هوداً، من أوسطهم نسبا وأصبحهم وجها، فدعاهم إلى عبادة الله، وأمرهم أن يوحِّدوه، وأن يكفُّوا عن ظلم الناس فأبوا ذلك وكذَّبوه وقالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[4] [فصلت: ١٥].

«وعاد» هو أبو القبيلة التى اشتهرت باسمه، وكانت تعيش فى بلهنية ورغد من العيش ردحا من الزمن، بسبب ما منَّ الله به عليهم من نعم وفيرة وخيرات كثيرة، حيث انسابت المياه فى العيون، واخضرَّت الأرض بالزروع، وناءت

---

(١) والأحقاف جمع حقف وهى الرمال.

(٢) فى (ص ٣٣٣) من القسطلانى مانصه: وكان قوم هود يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بالشجر من اليمن، وهذا يخالف ما هو معروف، فإن الأحقاف فى شمال حضرموت وهو يجعلها فى جنوبها على المحيط الهندى.

(٣) ويرجح علماء الآثار بناء على تنقيبات كثيرة أن موضع إرم هو جبل إرم ويقع على مسافة ٢٥ ميلا إلى الشرق من العقبة، وقد وجدت فى جانب الجبل آثار جاهلية قديمة.

(٤) تفسير المنار : ج ٨ ص : ٤٩٧.

الأشجار بأنواع الثمار، وشيَّد القوم بكل موضع مرتفع من الطريق بناءً شامخا كالعلم لمجرد اللهو والعبث، وأقاموا القصور الفخمة ظنا منهم أنهم مخلّدون، فلم يتخذوا هذه النعم أسبابا لمعرفة خالقها، ولا ركائز لسعادة البشرية ورفاهيتها، بل تنكّروا للخالق فعبدوا أصناما نحتوها بأيديهم، وكانوا إذا اعتدوا على أحد من الخلق فعلوا فعل الجبابرة من البطش دون رأفة أو رحمة، حتى صيَّروا حياة الناس جحيماً لا يطاق بما ارتكبوه من الظلم والفساد، فلما كثر طغيانهم بعث الله إليهم هوداً، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام، وذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم، إذ زادهم قوة في الأبدان وقوة فى السلطان، وجعلهم وارثين للأرض من بعد قوم نوح، وحذَّرهم بأس الله وضرب لهم المثل بقوم نوح الذين أهلكهم الله بذنوبهم، وأن عليهم أن يستعملوا عقولهم ليتبينوا أن مايعبدون من دون الله لا يضرّهم ولا ينفعهم، وأن الذى يضر وينفع إنما هو الله تعالى الذى أغدق عليهم نعمة، وهو الذى خلقهم وبيده مماتهم، وأن الواجب عليهم أن يتّقوه، ويتوبوا إليه، وان يستغفروه لما فرط منهم من إشراك غيره معه فى العبادة، وأنهم إذا تابوا إليه واستغفروه لما أسلفوا من آثام فإنه يرسل المطر عليهم متتابعا من غير أن يصحب نزوله ضرر ويزيدهم عزاً إلى عزهم، وبيَّن لهم هود أنه لا يطلب على نصيحته لهم أجراً ولا رياسة يتزعم بها بينهم إنما أجره على الله تعالى، ومن كان كذلك يكون أبعد عن التهمة، إذ هولا يجر لنفسه من وراء ذلك نفعا ولا يبغى لها فائدة!

رفضت قبيلة (عاد) الانصياع لدعوة هود، وأصرَّ زعماؤها على عبادتهم لأوثانهم، كما كان منهم مؤمنون، إلا أن شقوة أهل الكفر والعتو قد غلبت عليهم، وكانوا الجمهور الأعظم، فسفَّهوا هوداً وكذبوه، وتجاهلوا الحجج والبراهين القاطعة التى أقامها على صدقه، وقالوا له ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[هود:٥٣] وإنا نرى أن بعض آلهتنا مسَّتك بشر فصرت تهذى بأقوال باطلة.

لم يزل هود يُمحِّضهم النُّصح واعلمهم أنه رسول أمين من قِبَل رب العالمين، فهو يدعوهم إلى ما فيه سعادتهم وحسن حالهم، وأنه لا ينبغى لهم أن

يعجبوا أن جاءهم رجل منهم لينذرهم، لأن ذلك من مشيئة الله تعالى أن يجعل الرسول إلى القوم منهم ليكونوا أشد فهما لما يلقيه إليهم، ولأنهم علموا بحقيقته وأمانته وما هو عليه من خلق حسن.

فلما سدوا عليه كل طريق لهدايتهم، وناصبوه العداء وسفَّهوا أحلامه بعد أن استنفذ معهم كل وسائل الإقناع، أعلن توبته منهم وما يعبدون من دون الله، والتجأ إلى ربه الذى بيده مقاليد كل شئ قائلا: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[هود: ٥٤ - ٥٧].

فهذا كل ما رفعه إلى ربه بعد أن وقف على حقيقة قومه، وعرف استعدادهم لدعوته. ونلاحظ أن هوداً لم يدع على قومه من خلال ما سبق صراحة، إنما يستفاد من هذا الإسلوب رغبته فى أن يحكم الله بينه وبينهم، فينصره عليهم ويذيقهم العذاب نتيجة سلوكهم واعتقادهم قائلا لهم ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾[الأعراف: ٧١] فى هذا النص القرآنى أنذرهم هود بأن الله تعالى سيحل بهم عذابه قريبا.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أى عذاب وغضب، ومعنى ذلك أنه قد قرب الانتقام المحتم، وإنما عبر بالفعل (وقع) لأنه محقق الوقوع، ثم وبّخهم قائلا:

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ وهنا تظهر لنا قوة حجة هود عليه السلام حين حول آلهتهم إلى مجرد أسماء كأن ليس لها مسميات فى عالم الحقيقة، ولاتبلغ أن تكون شيئا وراء الأسماء التى تطلق عليها، فهذه الأصنام لا دليل فيها على ألوهيتها، ولا تتضمن قوة تثبت بها وجودها، ثم قال لهم: انتظروا حلول العذاب بكم ﴿ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

فلما عتا قوم هود على ربهم، وعصوا رسوله وكذبوه، وجحدوا بآيات الله التى أقامها هود على صدقه أنه مُرسل من ربه، واتبعوا أمر كل جبار عنيد من ملأ قومهم، ولم تبق فائدة فى إنذارهم، اضطر هود عليه السلام أن يدعو عليهم بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾[المؤمنون:٢٦].

فهو يطلب المغفرة من الله، والغلبة عليهم وإهلاكهم مضمِّنا دعاءه أسبابه قائلا ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أى بسبب تكذيبهم لى ولرسالتى التى كُلِّفت بأدائها منك يارب.

فأحلّ الله بهم نقمته فى الدنيا، وانحبس المطر عنهم سنين ثلاثا حتى جهدوا، وكان كلما نزل بهم الجهد ذكرّهم هود بدعوته، وأنه لا يُنجيهم من البلاء سوى الاستماع له والعمل بنصائحه، فكان ذلك يزيدهم عُتواً، إلى أن أرسل الله عليهم الريح العقيم، فقد سلّط الله عليهم ريحا عاصفة تتابعت سبع ليال وثمانية أيام، فهلكوا وتناثرت جثثهم على الأرض، كما يُطرح النخل الخاوى المنتزع من جذوره، واستؤصلوا جميعاً، ولم يبق منهم أحد، وأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم، قال تعالى:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾[فصلت:١٦].

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾[الحاقة: ٦-٨].

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾[1][الذاريات:٤١].

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ

(١) والرميم : الجاف المتفتت كالنبات الهشيم.

﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾[1] [الأحقاف: ٢٤ ، ٢٥].

وقوم عاد الذين هلكوا هم عاد الأولى، وأما عاد الثانية فهم سكان اليمن من قحطان وسبأ وتلك الفروع وقيل: هم ثمود.

ونجى الله هود عليه السلام والذين آمنوا معه بعد أن رأوا بأنفسهم مصارع القوم وما حلّ بهم، أما كيفية نجاته فإن القرآن لم يبين لنا ذلك، ويرى بعض

(١) روى الإمام أحمد فى مسنده فقال: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنى أبو المنذر سلام ابن سليمان النحوى، حدثنا عاصم بن أبى النجود، عن أبى وائل، عن الحارث، وهو ابن حسان ، ويقال ابن زيد البكرى، قال: خرجت أشكو العلا بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة، فإذا عجوز من بنى تميم منقطعة بها . فقالت لى: يا عبد الله إن لى إلى رسول ﷺ حاجة فهل أنت مبلغى إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدى رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها.

قال: فجلست، قال: فدخل منزله، أو قال رحله، فاستأذنت عليه فأذن لى، فدخلت فسلّمت فقال: «هل كان بينكم وبين بنى تميم شئ؟» فقلت: نعم، وكانت لنا الدائرة عليهم، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطعة بها، فسألتنى أن أحملها إليك، وها هى بالباب، فأذن لها فدخلت، فقلت يا رسول الله: إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بنى تميم حاجزاً، فاجعل الدهناء، فإنها كانت لنا، قال: فحميت العجوز واستوفزت وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: فقلت: إن مثلى ما قال الأول «معزى حملت حتفها»، حملت هذه الأمَة ولا أشعر أنها كانت لى خصما، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد، قال: هيه وما وافد عاد؟ وهو أعلم بالحديث منى ولكن يستطعمه. قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له (قيل بن عنز)، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال تهامه، فقال: اللهم إنك تعلم أنى لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عاداً ماكنت تسقيه، فمرت به سحابات سود، فنودى منها : اختر فأومأ إلى سحابة منها سوداء (ظنا منه أنها أكثر السحاب ماءً) فنودى منها خذها رماداً رمدداً، لاتبقى من عاد أحداً، قال : فما بلغنى أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا من الريح حتى هلكوا.

قال أبو وائل وصدق: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: لاتكن كوافد عاد!

وهكذا رواه الترمذى عن عبد بن حميد، عن زيد بن الحباب به، ورواه النسائى من حديث سلام أبى المنذر عن عاصم بن بهدله، ومن طريقه رواه ابن ماجه، وهكذا أورد هذا الحديث، وهذه القصة عند تفسير هذه الآية غير واحد من المفسرين كابن جرير وغيره .ويرجح ابن كثير أن الآيات والدعاء فى سورة المؤمنون، والقصة المذكورة فى سورة الأحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية (ثمود)، لأن ذكر الصيحة هى التى وردت فى الآيات المتعلقة بهلاكهم. وسواء قصد بهذه الآيات عاد الأولى قوم هود، أو عاد الثانية قوم صالح فقوله تعالى «انصرنى بما كذبون» يعتبر دعاء عاما لجميع الرسل والأنبياء سواء قالوا نصا أم رمزاً أم حاك فى صدورهم أم فُهِم من فحوى مجادلتهم مع قومهم، وقرعهم الحجة بالحجة، والدليل بالدليل.

المؤرخين أن نجاة هود كانت باعتزال قومه بعد يأسه من قبول دعوته وذهابه مع من آمن به إلى مكة وهناك عاش فيها أمداً، ثم مات وفيها مدفنه [١].

وذكر آخرون: أنه مدفون بجامع دمشق بالحائط القبلى.

ويقول أهل حضرموت أن هود عليه السلام سكن بلاد حضرموت بعد هلاك (عاد الأولى) إلى أن مات ودفن فى شرقى بلادهم (بأرض الشحر) على نحو مرحلتين من مدينة تربم قرب وادى برهوت، وخبره ظاهر هناك ينزل عليه الندى والطل فى شدة الحر، وموضعه أحرّ الأماكن[٢] وقد أُثر عن علىّ كرّم الله وجهه، أنه مدفون فى كثيب أحمر وعند رأسه سمرة فى حضرموت. وأهل فلسطين يدّعون أنه دفن عندهم وقد بنوا له قبراً، ويعملون له فى كل سنة مولداً. وقول أهل حضرموت أقرب إلى المعقول لأنها متاخمة لبلاد عاد وهى الأحقاف دون فلسطين.

---

(١) أخبار مكة للأزرق (١/ ٣٠).

(٢) وانظر ابن سعد فى الطبقات الكبرى.

الفصل الثانى
أدعية صالح عليه السلام فى القرآن الكريم

تمهيد:

لم يعين القرآن مساكن ثمود، وإنما يظهر من قول الله تعالى ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾[الفجر: ٩][1] أن مساكنهم كانت فى مناطق جبلية أو فى هضاب صخرية، وأن (الواد) فى الآية هو (وادى القرى) وهم قبيلة مشهورة، يقال لهم ثمود باسم جدهم ثمود أخى جديس، وهما ابنا عانر بن ارم بن سام بن نوح.

وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك[2] وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين ونهى أصحابه عن شرب مائها ودخول منازلها.

وقد اختلف الباحثون من المستشرقين فى أوربا فى أصل ثمود وزمن وجودهم، فقال فريق: إنهم قوم من اليهود وسكنوا تلك الناحية ولم يدخلوا فلسطين، وهذا القول لا يعدو أن يكون ظنا لا أثر فيه للتحقيق، إذ القرآن ناطق بأنهم قد انقضى أمرهم، وعرت ديارهم من كل ديار قبل خروج موسى من مصر ببنى إسرائيل وهذا مؤمن آل فرعون قام حين كذبوا موسى يخوِّف قومه بأس الله، وأنه يخاف عليهم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم.

---

(١) جابوا الصخر: قطعوا صخور الجبال واتخذوا منها بيوتا، وقال أبو عمرو بن العلا: سميت ثمود لقلة مائها من الثمد وهو الماء القليل، وذكر الشيخ النجار فى قصصه قول الألوسى نقلا عن الثعلبى: وأما ثمود فهى القبيلة التى منها صالح، سميت باسم جدها ثمود بن عامر بن إرم بن سام وقيل ثمود بن عاد بن عوص بن إرم.

(٢) ومازالت آثارها باقية هناك وتعرف باسم (مدائن صالح).

وقال آخرون (من المستشرقين): إنهم بقية من العماليق انتقلوا إلى ذلك المكان من غرب الفرات.

ويظن آخرون أنهم من العماليق الذين طردهم أحمس ملك مصر فى عهد الأسرة الثامنة عشرة، وقد حذقوا صناعة النحت أيام إقامتهم بمصر، ولذلك نحتوا لهم بيوتا بعضها نقر فى الصخر، وبعضها كان بناءً كسائر الأبنية التى تتخذ من الصخر.

وقال بعض المؤرخين إنهم بقية من عاد، وهذا أقرب إلى المعقول، ويدَّعى أهل حضرموت أن ديار ثمود كانت من مستعمرات عاد، وهذا القول لايخالف ما قبله، وقد يؤيده قول صالح الآتى لقومه ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾[الأعراف: ٧٤].

أما زمن وجود ثمود فلم يعلم بالضبط غير أنى أقول أنهم كانوا وبادوا قبل زمن موسى عليه السلام، وأما وجود الكتابة الآرامية على بعض القبور بتلك الأنحاء، وكون تلك الكتابة مؤرخه بتاريخ قريب من زمن الميلاد فلا يدل إلا على أن ناسا أخذوا الخط الآرامى يخلدون به آثارهم قد زالوا فى تلك الناحية، وكتبوا على مقابرهم ونحوها.

قال جورجى زيدان بك فى كتابه (العرب قبل الإسلام): أما الثابت من قراءة الآثار: أن مدائن صالح «الحجر» دخلت قبل تاريخ الميلاد فى حوزة النبطيين سكان بطره؛ والأطلال المشار إليها زارها غير واحد من المستشرقين ودرسوا بقاياها، وهى منقوشة فى الصخر أهمها أنقاض تعرف بقصر البنت وقبر الباشا، والقلعة والبرج.

أما عقيدة أهل ثمود، فكانت كعقيدة «عاد» يعبدون الأصنام[1] ويشركونها مع الله تعالى، فبعث الله فيهم رجلا منهم هو صالح بن عبيد، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له فآمنت طائفة منهم، وكفر جمهورهم، ونالوا منه بالمقال والفعال حتى هموا بقتله، وقتلوا الناقة التى جعلها الله حجة عليهم، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر كما فى سورة الأعراف وسيأتى تفصيلا.

---

(١) كانت ثمود تعبد أصناماً كثيرة منها «ود» و «جد-هد» و «شمس» و«مناف» و«مناة» و«اللات» وغيرها (تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ١ للدكتور جواد على).

ذكر أدعية صالح عليه السلام

الكلام على أدعية سيدنا صالح عليه السلام قريب الشبه جداً بالحديث عن أدعية هود عليه السلام، فلم نعثر لكليهما على دعاء فى القرآن الكريم، ومما سبق نتبين أن محاورة هود لقومه أفصحت عن دعاء ضمنى، لوّحت به الأيات التى هدّدهم بها، والتى توعّدهم فيها بنزول العذاب من عند الله عليهم لكفرهم وعنادهم، وعليه يمكن القول أن لسيدنا صالح عليه السلام ثلاثة أدعية هى ما يلى:

الدعاء الأول: قوله تعالى فى سورة المؤمنون ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ وقد اختلف العلماء فى نسبة هذا الدعاء لقائله، فمنهم من قال أن هذه الجملة من مقولة هود، ومنهم من قال هى لنبى الله صالح عليهما السلام.. والله أعلم بالصواب.

الدعاء الثانى: رواه ابن كثير فى مؤلفه (قصص الأنبياء) قال رحمه الله: وقد ذكر المفسّرون أن ثمود اجتمعوا يوما فى ناديهم، فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله، وذكَّرهم وحذَّرهم ووعظهم، وأمرهم، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلى صخرة هناك ـ ناقة[1] من صفتها كيت وكيت، وذكروا أوصافا سموها ونعتوها، وتعنتوا فيها، وأن تكون عشراء طويلة، من صفتها كذا وكذا، فقال لهم النبى صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ماسألتم، على الوجه الذى طلبتم، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقونى فيما أرسلت به، قالوا: نعم. فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك.

---

(١) روى الوالبى عن ابن عباس قال: لما دعاهم صالح إلى الله تعالى اقترحوا عليه ناقة لأنهم كانوا أصحاب إبل، وكانت النوق عندهم عزيزة فطلبوا منه الدلالة من حيث ما هم عليه، ثم تنطعوا فقالوا: لتكن سوداء حالكة، عشراء ذات عرف وناحية ووبر، فسأل الله فأوحى إليه: اخرج بهم إلى فضاء من الأرض، فخرجوا، فقال: من أين تريدونها؟ فأشاروا إلى صخرة وقالوا: من هذه! فأشار إليها صالح عليه السلام وقال: اخرجى بإذن الله، فتمخّضت تمخض الحامل وانفجرت عن ناقة كما طلبوا، ثم تلاها من الصخرة فصيل لها، فآمن خلق ممن حضر، منهم ملكهم جندع بن عمرو، ثم قال لهم صالح ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣].

ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له، ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تتفطر عن ناقة عظيمة عشراء، على الوجه المطلوب الذى طلبوا أو على الصفة التى نعتوا. فلما عاينوها كذلك، رأوا أمراً عظيما، ومنظراً هائلا، وقدرة باهرة، ودليلاً قاطعاً، وبرهانا ساطعا فآمن كثيرمنهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم. وقد ذكر نص الدعاء أبو اسحاق الثعلبى فى مؤلفه المسمى «عرائس المجالس» أن صالحاً عليه السلام لما طلب منه القوم آية تدل على صدقه دعا فقال «اللهم أرهم آية ليعتبروا بها».

الدعاء الثالث: قوله تعالى على لسان صالح عليه السلام.

﴿ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب﴾[هود: ٦٤].

كان قوم صالح فى رغد من العيش لايقل بحال من الأحوال عما كان فيه قوم هود، فبعث الله فيهم صالحا فلم يتبعوه، ولم يؤمنوا برسالة ربه، بل ناصبوه العداء وحاولوا صرفه عن رسالته، لكن ما أن وجدوا منه تمسكا بها، خافوا على اتباعهم من اتباعه، وأرادوا تعجيزه أمامهم فطلبوا منه بيِّنه تدل على صدقه فتوجه إلى الله داعيا، فأخرج الله لهم ناقة من الصخرة الصَّماء، وأخذ صالح عليهم المواثيق ألا يمسُّوها بسوء، وأن يتركوا لها الماء كله يوما، ويكون لهم يوما على أن تعطيهم فى يومها بدل الماء لبنا فيشربونه عوض ما شربت، ولما ألح عليهم صالح بالموعظة لم يلتفتوا إليه، وعزموا على قتله، وكان يبيت ناحية عنهم فى مسجد له، فكمنوا له ليلة تحت صخرة يرصدونه وكانوا تسعة رجال، هم أشد الناس كفراً وفساداً فى الأرض، وخطط هؤلاء مؤامرتهم للفتك بصالح وأهله، والله من ورائهم قد أراد النجاة لنبيه وأهله، والهلاك لهؤلاء المتآمرين من حيث لا يحتسبون ولا يشعرون، فوقعت عليهم الصخرة فقتلتهم، فأصبحوا يقولون: قتلهم صالح، فأجمعوا على عقر الناقة وقالوا: قد ضايقتنا فى الماء والكلأ، فعقروها وذبحوها، وقالوا لصالح: ائتنا بما تعدنا من العذاب إن كنت من الصادقين فيما تقول، فقال لهم صالح: تمتّعوا فى داركم ثلاثة أيام، فى الأول تصفَر وجوهكم، وفى الثانى

تَحمرّ، وفى الثالث تسودّ، ثم يصبحكم العذاب من حيث لاتشعرون. وكان هلاك ثمود بالصاعقة كما قال تعالى ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[الذاريات: ٤٤].

فالصاعقة عبارة عن استفراغ كهربائى يحصل بين كهربائيتين متخالفتين، سالبة وموجبة، فإذا دنت سحابة ذات كهربائية موجبة من الأرض فحين دنوها تحصل الكهربائية بالتأثير، وتتصل بالكهربائية السالبة فى الأرض، ويكون الاستفراغ أو الاتحاد فى حجم ما على الأرض فيحترق إذا كان شجراً أو إنسانا ويتفتت إن كان صخراً، ويتهدم إن كان بناء، ومبلغ ما تدمِّره الصاعقة منوط بمقدار كمية الاستفراغ ومبلغ قوة الكهرباء.

وقد عبَّر القرآن عن الصاعقة أيضا بالرجفة وتارة بالطاغية وتارة بالصيحة ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾[هود: ٦٧] ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥] ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[الأعراف: ٧٨].

لأن الصاعقة تحدث صوتا عظيما فذلك المراد بتسميتها بالصيحة. وقد تكون مصحوبة برجفة أشبه بالزلزال ترجف الأفئدة من وقوعها، وقد تكون فى مكان ويطغى تأثيرها حتى يصل إلى مكان آخر. فما وصفه القرآن للصاعقة بتعابير شتى هو تعبير دقيق يصف آثارها وعواملها ومظاهرها. فلما رأى صالح جثثهم هامدة، وديارهم خاوية تولى عنهم والحسرة تقطع نياط قلبه قائلا: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[الأعراف: ٧٩].

ويشبه قوله هذا فى خطابه لقومه بعد هلاكهم ما قاله رسول الله ﷺ لأهل بدر أصحاب القليب، إذ قال لهم «يا فلان بن فلان وفلان أيسّركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا»

وقد قالوا: إن الله أحياهم حتى أسمعهم، قال العلماء: ومثل هذا إنما خصّ الله به أنبياءه. وقوله لهم ﴿وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ فيه تهديد لهم قد يحمل فى طياته الدعاء عليهم بالعذاب العظيم، وقد يكون منه إخبار بما سيقع لقومه بسبب معصيتهم لربهم، ومصدر علمه بذلك إما أن يكون قد أعلمه الله به، وإما قياسا على ما حصل للمكذبين، قوم نوح وعاد قبله.

هل استجاب الله لصالح دعاءه؟ نعم

لما كذّبت ثمود صالحا ولم يؤمنوا بعد تحقيق طلبهم بل قتلوا الناقة ووليدها، ومكروا بصالح، فتضرع إلى الله مستنصراً، فأخذتهم الصيحة بالحق، والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوى البارد، فدمرت كل شئ بأمر ربها، فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم أمامهم، فجعلهم الله غثُاءً كغثاء السيل، لا انتفاع به لحقارته، وماظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. . وذكر الألوسى أن الذين نجوا مع صالح كانوا مائة وعشرين أما الهالكون فكانوا خمسة آلاف بيت.

قبر صالح عليه السلام

وقد قال بعض المفسِّرين: أن صالحا والذين آمنوا معه ذهبوا بعد هلاك قومهم إلى ناحية الرملة من فلسطين. ويقول أهل حضرموت : إنهم ذهبوا إلى حضرموت وأقاموا بها لأن أصلهم من تلك الناحية، أو هى فصيلة من أهل الأحقاف وهناك قبر يزعمون أنه لصالح. وقال آخرون: أنهم أقاموا فى ديارهم بعد هلاك قومهم .

وقال آخرون: إنهم ذهبوا إلى مكة وأقاموا بها إلى أن ماتوا وقبورهم غربى الكعبة.

ثم قال فضيلة الشيخ النجار[1]: وأقرب الأقوال عندى إلى التصديق أنهم ذهبوا إلى الرملة ونواحى فلسطين لأنها أقرب بلاد الخصب إليهم، والعربى إنما يطلب الكلأ لرعى ماشيته والأرض ذات الماء.

---

(١) قصص الأنبياء لفضيلة الشيخ عبد الوهاب النجار: (ص ٦٧) ط. الحلبى بالقاهرة المحروسة.

الفصل الثالث
دروس وعبر

١- الاستغفار والتوبة من أهم أسباب النجاة والفوز فى الدنيا والآخرة: لهذا أمر الله الناس عبر الأجيال بواسطة أنبيائه أن يقلعوا عن المعاصى، ويطلبوا الغفران من الله على ما اقترفوه، ويتوبوا إليه حتى يحصلوا على نعمه، وينالوا رحمته ويتجنبوا غضبه.

فها هو نبى الله هود يعظ قومه بما ذكره القرآن إرشاداً لنا ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[هود: ٥٢].

ويذكر القرآن كيف وعظ النبى صالح قومه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[النمل: ٣٦].

أى هلا استغفرتم ربكم حتى تنالوا رحمته، ويقول أيضا ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[هود: ٦١].

أى أن الاستغفار وسيلة لاستجابة الدعاء.

فالذنوب ليست مَحّرمة، وكما أُثر عن النبى ﷺ «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»، إلا أنها ضارة بالجسم والعقل والنظام الاجتماعى، وهى أكثر ما تكون ضرراً مع إصرار فاعلها، فإذا بادر المذنب إلى طلب الغفران من الله على ما اقترف من سوء، وندم على ما فات، امتنع ذلك الفساد، وزال أثره، وترتب على ذلك صلاح الفرد والمجتمع.

ولا مناص من العودة إلى الاستغفار والتوبة وإخلاص العبادة والدعاء إذا أردنا حياة العزة وأردنا الحياة السعيدة، وكل جهد يبذله أى مسلم فى سبيل العودة إلى سيرة سلفنا الصالح إنما هو جهد يُسجل له فى سجل حسناته وهو جهد يتلقاه المخلصون بالغبطة والشكر.

إن الاستغفار سبب للنعيم الأخروى والنعيم الدنيوى وكما أن الاستغفار سبب فى غفران الذنوب فإنه سبب فى فتح أبواب الرزق من السماء وفى إمداد الله للمستغفر بالأموال والبنين، وفى جعل الله للمستغفر جنات وأنهاراً وقوة مطلقة وهذا معنى قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[هود: ٥٢] والكتاب والسُّنة يرشدان إلى أن الاستغفار والتوبة، وإخلاص العبادة والدعاء تجنى ثمارها سعادة فى الدنيا وسعادة فى الآخرة.. إنها تفرج من كرب المكروب، وتزيل من حزن المحزون، وتهدىء من غيظ المغيظ، وقد ردت على يعقوب ابنه وبصره، وأخرجت يوسف من السجن، وأنقذت ذا النون (يونس عليه السلام) من بطن الحوت، وكانت سببا فى توبة آدم، ويقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال: ٣٣].

ولكنها تفعل أكثر من ذلك: إنها تسّخر العالم وأرضه لإرادة الإنسان بإذن الله، فهى تأتى بعرش ملكة سبأ قبل ارتداد الطرف، بل يصل الإنسان بها إلى الذروة.. إنه يصل لأن يكون الله سَمْعه الذى يسمع به، وبصره الذى يُبصر به، ويده التى يبطش بها.. وإذا سأل الله أجابه، وإذا استعاذ به أعاذه، وصدق رسول الله ﷺ الذى أخبر بكل هذا»[1].

٢- الطغيان والاستعلاء فى الأرض عاقبته الهلاك:

فى قصة هود عليه السلام بيان للعاقبة الوخيمة التى تنتظر الأمم المستكبرة الطاغية، فالقرآن يصف قوم صالح عليه السلام (عاد) بقوله:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[فصلت: ١٥، ١٦].

(١) الدكتور عبد الحليم محمود فى مقدمته لكتاب (اسم الله الأعظم وطريق الوصول إلى الله) تأليف إبراهيم البطاوى واللواء محمد كمال عبد الحميد.

فقبيلة عاد استكبرت فى الأرض، وغرّتها قدرتها فأعرضت عن هدى الله وطريق الحق، فأصابها الله بالذل والهلاك. فهذه عبرة يضعها القرآن أمام أنظارنا لنأخذ منها أبلغ الدروس والعظة.

ومما يستوقف النظر أن ما كانت تدّعيه (عاد) فى الزمن الماضى، أصبحت تدّعيه الآن الدول الكبرى التى ركبها غرور العلم والمدنية، وما وصلت إليه من ثراء وقوة، فأعرضت عن سبيل الحق واستعبدت الشعوب الصغيرة المغلوبة على أمرها، واستغلت ثرواتها، وسلكت فى سبيل السيطرة عليها كل الطرق الدنيئة، من إشعال الفتن وشراء الضمائر وتفرقة الجماعات، وإثقال كاهلها بالديون، وكل ذلك وغيره من أجل مغانمها ومصالحها الاستعمارية ولسان حالها يقول: كما قالت عاد من قبل «من أشد منا قوة»

ولكن مهلا.. ونظرة إلى التاريخ القريب الذى يحمل أبلغ العبَرة، ألم يتعظوا من عاقبة المانيا الهتلرية التى أطلقت شعارات القوة والاستعلاء فى الأرض وقالت (المانيا فوق الجميع) فكان مآلها بعد ذلك الدمار وهلاك أكثر شبابها، وذاقت الذل والهوان من جانب المنتصرين عليها؟!

٣- على الداعى عدم مقابلة الشر بمثله والتلطف فى الترغيب والترهيب والتجمّل بالصبر والحلم وسعة الصدر.

والمتأمل لقصة هود عليه السلام مع قومه يخيل إليه أنه يرى إنسانا وقوراً رزينا يزيّن الكلام قبل إلقائه، يتحلى بالإخلاص وحُسن النية على قسمات وجهه، وهو:

* لا يقابل الشر بمثله بل لايفارقه استعمال اللين فى كلامه مع قومه انظروا إلى قولهم له ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[الأعراف:٦٦].

فكان جوابه أن قال لهم:﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف:٦٧].

فمن تأمل هذا الجواب وجده غاية فى دماثة الأخلاق، والتلطف فى إسداء النصيحة الخالصة من شوائب أية منفعة.

* تلطّفه بذكر نعم الله تعالى عليهم، وترغيبهم فى الإيمان وبيان أن ذلك يحفظ عليهم حُسْن حالهم ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[الشعراء: ١٣٢ - ١٣٤] أنه مع مشاكستهم له، وافترائهم عليه، ورميهم له بالجنون والسَّفة لم يزد فى جوابه على أن يقول لهم ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود: ٥٤ - ٥٦].

ومن ثم ينبغى لمن يتولى عظة الناس وإرشادهم والنصح لهم أن يكون آخذاً أخذ هود عليه السلام فى سعة الصدر، وعدم مقابلة الشر بمثله، ويحتمل صلف المدعوين، وسوء ردهم عليه رجاء أن يظفر ببغيته منهم، ويفوز بهدايتهم، أو هداية بعض منهم، وأن يكون جوابه عند اليأس بعد بذل الجهد، واستنفاد أساليب الترغيب ما قاله هود عليه السلام﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[هود: ٥٧].

٤ - وفى قصة هود يتجلى للقارئ درس فى الجرأة والاستماتة فى سبيل العقيدة: فهو نبراس لكل مصلح نذر نفسه فى سبيل عقيدته.

تأمل وهو يخاطب قومه ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ﴾ فهو يعلن براءته من الشرك ومن كل ما يضر بالعقيدة، ثم يطلقها مدوية فى وجه الطغاة واثقا متحديا ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ فهو يريد أن يلقى فى أسماعهم أنه لايبالى بكيدهم مجتمعين، ولا يخاف أذاهم على الرغم أنهم الأقوياء الأكثرون.

فما سر هذه الجرأة فى هود عليه السلام؟ أنه يقدم لنا الجواب، فهو يقول لقومه ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ وجدير بمن يتوكل على ربه، ويلجأ إلى خالقه، مصدر كل قوة فى الوجود أن يبدّل خوفه أمنا، وضعفه قوة. وما أحوج المصلح والداعى إلى ربه إلى ذلك التوكّل الذى يسُبغ على النفس اليقين والصبر والرضا بكل تضحية فى سبيل مرضاة ربه.

٥- دعـوة للثورة على الجبابرة وعدم الانقياد لأوامرهم الباطلة لأن فيه هلاك محقق: وقد ذم الله قوم هود لأنهم اتبعوا أوامر جبابرتهم، والتـى بسببها استحقوا الهلاك والطرد من رحمة الله. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [هود: ٥٩، ٦٠][1].

فهذه دعوة للتحرر من سلطان الجبابرة يطلقها القرآن مدوية فى أسماع أتباعه ليتحرروا من سلطان كل متسلط غاشم، ومن كل معاند لا يقر بالحق.

وتعبير القرآن دقيق، جمع الله فيه صفتين للمتسلط: صفة جبار، وصفة عنيد، لأن الجبار هو المتكبر الغليظ القلب الذى من أبرز صفاته العناد فى الباطل والتمادى فيه.

فالإسلام لا يرضى لأتباعه أن يكونوا منقادين لجبابرة يستعبدونهم ويذيقونهم ألوان العذاب، ويسخرونهم لمآربهم وأهوائهم، بل الإسلام يهيب بأتباعه أن يثوروا عليهم، ولا يرضخوا لسلطانهم، لأن اتباع رغبات الجبابرة أمر ينافى الإيمان الصحيـح، فالإيمان يسبغ على النفس الكرامة، والتحرر من كل سلطة غاشمـة، فليس للـمؤمنين عذر أن يكونوا مغلوبين على أمرهم لأنهم كثرة والمتجبـرون قلـة، ولو أراد المؤمنون التحرّر من ذلك الجبار لضحُّوا فى سبيله ولنالوه، هـذا وقد بشّر الله المؤمنون فى القرآن أن مآل الجبابرة هو الخسران والهلاك، قال الله تعالى ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[2][إبراهيم: ١٥] لقد هلكت عاد لأنها اتبعت أمر كل جبار عنيد، هلكوا مشيّعين باللعنة فى الدنيا والآخرة، وسيهلك كل من يرضخ لرغبات كل جبار عنيد.

٦- التعنت فى السؤال من أسباب الهلاك، وأن الدائرة تدور على الماكرين دائما.

---

(١) ومعنى جبار: المتكبر المتعالى عن قبول الحق والإذعان له، وقيل: هو الذى يقتل ويضرب على الغضب. ومعنى عنيد: المعاند للحق المباهى بما عنده.

(٢) خاب: خسروهلك.

٧- الاعتدال فى المعيشة والنهى عن الإسراف:

فنبى الله هود يعيب على قومه الإسراف فى البناء الفخم، فهم لم يبنوا منازلهم طلبا للسكن والراحة، ولو فعلوا ذلك لما عاب عليهم عملهم وإنما بنوها رغبة فى المباهاة والتيه، وهذا عبث وإسراف مذموم، وهم يرجون من وراء ذلك الخلود فى الأرض، مع أن الخلود مستحيل ومتاع الدنيا قليل... وذلك بما ورد على لسان هود: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء:١٢٨، ١٢٩] وهذا نبى الله صالح يذكّر قومه بنعم الله عليهم فيما آتاهم من الحذق فى اتخاذ البيوت ينحتونها من الجبال، وينعى عليهم كفرانهم بتلك النعمة إذ يسيئون استعمالها بالتعالى فى تلك البيوت أشراً وبطراً، وقد جمع الله ذلك المعنى الرائع كله فى لفظة واحدة وهى «فارهين»[(١)].

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٤٦-١٥٠].

ما أكثر الذين يبنون للعبث والرياء والفخر فى زماننا هذا؛ وما أضيع المال بين أيدى هؤلاء المسرفين؛ وما أحوجهم إلى أوصياء يحجرون على أموالهم، ويحولون بينهم وبين ذلك الإسراف؟!

مافائدة الأمة من ذلك القصر الذى أُنفق على بنائه الملايين من الأموال ليتمتع بسكناه رجل ثرى وحوله الألوف من الناس، عمال وصناع، لايجدون ما يأكلون، ولا سكنا إليه يأوون؟!

أما كان الأحرى به أن يسكن ذلك الثرى فى بيت متوسط التكاليف، ويوفر هذه الأموال الطائلة، ويضعها فى مرافق الأمة لتنشيط زراعاتها وصناعتها وحاجاتها الملحّة؟!

(١) فارهين : فى التعبير باسم الفاعل (فارهين) إعجاز معنوى لأن الفعل يختلف معناه باختلاف بابه، فره من باب كرم معناه حذق ومن باب مزح معناه أشر وبطر كما فى القاموس واسم الفاعل يدل على المعنيين جميعا.

إن من روائع توجيهات القرآن لبناء أُمة متماسكة قوية هو دعوته إلى الاعتدال فى المعيشة، والنهى عن الإسراف والبطر، فالإسلام يوحى بهذا المفهوم الاجتماعى العادل فى نفوس أتباعه ليقوم المجتمع الإسلامى على أسس سليمة من العدالة الاجتماعية، وليكون حكّامه بالمرصاد أمام كل فرد أو جماعة تسخّر أموال الأُمة لملذاتها وعبثها ولهوها، فمال الغنىّ فى نظر القرآن، وإن كانت ملكيته خاصة فإن منفعته عامة للأمة، لأن وصية الله للمؤمنين فى كتابه الكريم تقول: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾[النساء: ٥](١).

والله اعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) ومعنى السفهاء : هم المسرفون المبذرون أموالهم فى غير الوجوه الصحيحة إما لفساد اخلاقهم، وضعف عقولهم أو لسوء تدبيرهم.
ومعنى قياما : إن الأموال جعلها الله لتقوم بها معايشكم، وتبنى عليها مصالحكم.



- إبراهيم أبو الأنبياء.
- أدعية إبراهيم عليه السلام فى القرآن.
- دروس وعبر.
- أدعية لوط عليه السلام فى القرآن.
- دروس وعبر.



الفصل الأول
إبراهيم أبو الأنبياء

اسم ونسب

هو إبراهيم، خليل الله بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاذ بن نوح عليه السلام[1].

هذا هو نسبه الموجود فى التوراة والتواريخ.

وقد جاء فى الكتاب الكريم قوله تعالى﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام : ٧٤][2].

---

(١) العهد القديم ، التوراة، سفر التكوين: الاصحاح الخامس، ص ٩ ، ١٠ والإصحاح الحادى عشر : ص ١٧، ١٨.

(٢) واختلف المفسرون فى اسم أبى إبراهيم فقال بعضهم إن لفظ «آزر» فى الآية بدل من لفظ «أب» فى «أبيه» ويكون مقول القول «أتتخذ أصناما آلهة» الخ ، وقال آخرون اسمه «تاج» وأن لفظ «آرز» كلمة ذم فى لغته ومعناه «يا أعرج» قاله السهيلى فى التكملة. وقال آخرون إن معناه الخاطئ والخرف وفى التكملة «يا مخطئ يا خرف» وقيل معناه «ياشيخ» أو هى كلمة زجر عن الباطل (راجع ص ١٢ ج ٣ تاج العروس) وقال البيضاوى إن تارح اسمه العلم، وإن آرز وصف له.

ويقول الشيخ النجار معلقا على ذلك : إذا صح أن والد إبراهيم كان له اسم علمى واسم وصفى، يكون معناه القوى أو الناصر أو المعين، لأن لفظ آزر من الأزر أى القوة والنصر والعون ومنه الوزير أى المعين (تاج العروس : ص ١١ ج ٣) وهى كذلك فى اللغات السامية التى منها لغة إبراهيم، ومن ذلك : عازر، وعزير، فى العبرية، فإن هذه المادة تفيد التقوية والنصرة والإعانة فى تلك اللغة كما هى فى اللغة العربية. قال تعالى «فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه.... الخ» ومعلوم أن العين والهمزة يتعاوران على موضع واحد.

وفى أسماء ملوك الأشوريين «أسرحدون» ولفظ «أسر» و «أزر» فى غاية القرب . وفيهم أيضا «توخلات أيال أزار» وعلى ذلك فلا يبعد عن علماء اللغات السامية على الخصوص أن يثبتوا النسب بين هذه الألفاظ = فى اللغات السامية. وقد جاء فى دائرة المعارف الإسلامية مانصه «آزر» اسم ابى إبراهيم فى القرآن - سورة الأنعام الآية ٧٤ - ويظهر أن فى هذا بعض الخلط لأن اسم آزر لم يرد مطلقا على أنه أبو ابراهيم فى غير هذا الموضع كما أن تارح أو تارخ قد ورد فى روايات بعض المؤرخين والمفسّرين من المسلمين على أنه أبو إبراهيم أيضًا. ولذلك لجئوا إلى التحايل للتوفيق بين هاتين الروايتين، ولكن هذا التحايل لاقيمة له.

ويقول مراتس (Prodrani Maracci) جـ٤ ص ٩٠): إن صيغة آزر نشأت عن قراءة خاطئة (Agae) =

= التى وردت فى تاريخ الكنيسة ليوزيبوس، إلا أنه لم يعين لا هو ولا من نقلوا عنه الفقرة التى ورد فيها هذا الاسم، أضف إلى ذلك أن هذا المؤرخ قد ذكر فى مواضع متعددة، ومهما يكن من شئ فإن ما ذهب إليه مراتس بعيد الاحتمال.

ولمعرفة حياة آزر وابنه إبراهيم نحيل القارئ إلى مقال (إبراهيم) (جـ١ ص ٢٥) الذى ذكرنا فيه المصادر الخاصة بهذا الموضوع أيضا أ هـ فنسنك.

وقد علق على هذه النبذة الأستاذ الفاضل الشيخ أمين الخولى فى دائرة المعارف الإسلامية بما يأتى:

(أ) إطلاق القول بأن آزر اسم أبى إبراهيم فى هذه الآية غير صحيح، لأن الآية قُرئت قراءات مختلفة اختلفت بها معانى كلمة «آزر» باختلاف إعرابها وفى بعض هذه القراءات يتعين ألا تكون آزر اسما لأبى إبراهيم وفى بعضها يحتمل ذلك. وإليك طرفا من بيان هذه القراءات والأعاريب:

كتبت الكلمة فى المصحف هكذا (آزر) أتتخذ أصناما.. وقُرئت (آزرا) بالنصب مع التنوين، و(آزر) بالنصب بلا تنوين، و (آزر) بالضم ففى القراءة الأولى تُفسّر الكلمة على أنها عربية بمعنى القوة، والهمزة الأولى للاستفهام الإنكارى، والمعنى ألأجل القوة تتخذ أصناما؟ كقوله تعالى ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ [النساء: ١٣٩] وإن فسِّرت (آزر) فى هذه القراءة باسم علم لم يقل إنه أبو إبراهيم. وعلى قراءة النصب بلا تنوين، وقد يُعرب نعتا فلا تكون (آزر) علما بل صفة فليست كذلك اسم أبى إبراهيم. وقد تُعرب بدلا أو عطف بيان فيُحتمل أن تكون اسما له. وعلى قراءة الضم للنداء تحتمل كذلك أنها اسمه، فهذه أربعة أوجه نقلت فى تخريج قراءات الآيات على نظر فى بعضها يتعين فى اثنين منها ألا يكون «آزر» اسم أبى إبراهيم ويُحتمل فى اثنين، فليس من الصنيع العلمى أن يطلق ناقل عن القرآن القول بأن آزر اسم أبى إبراهيم.

(ب) مع التسليم بأن أكثر الأوجه التى ذكرها من تصدو للتوفيق بين آية الأنعام ورواية المؤرخين فى اسم أبى إبراهيم لاتقع عندى موقعا. فإنى ألاحظ على كاتب المادة ملاحظتين:

* إطلاق القول بأنهم لجئوا للتحايل للتوفيق. مع أن منهم من جهر برد رواية النسابين وضعف إجماعهم، لأنه إجماع ينتهى إلى خبر واحد أو اثنين منهم فلم يتكلف التوفيق لا فى تحايل ولا فى غير تحايل. وقد نقل هذا الرأى فى كثير من كتب التفسير المتداولة، فالإطلاق غير صحيح وكان الحق أن يقول منهم من وفق أو تصدى للتوفيق، ومنهم من رد الرواية التاريخية.

* استعمال لفظ الحيلة والتحايل فى وصف عمل المفسرين، فإن هذه الكلمات النازلة والتى يتصدى فيها للحكم الخاطىء على النوايا الخفية ليست من عبارات العلماء الذين ينقدون بل هى من عبارات غيرهم.

(جـ) من الإنصاف الصادق للعلم أن يعرف القارئ أن مراتس قسيس إيطالى عاش فى القرن السابع عشر، وأن ترجمته للقرآن لم يسمح بنشرها إلا بعد إلحاق معارضات القرآن بها، وقد قدم لها بحث فى القرآن والإسلام انتهى فيه إلى الحكم للمسيحية على الإسلام، ثم نشرت هذه الترجمة بعنوان «عقيدة الرسول الكاذب محمد بن عبد الله» جازاهم الله بما يستحقون عن الحق والعلم.

وبعد فإنى ألاحظ دون مجاوزة حدود النقد العلمى النزيه أن المادة لم يكتب فيها شئ. النقول الإسلامية غير محررة، وفرض مراتس مردود. فالواجب الحق فى درس الآية أن نستوفى القول فى كلمة (آزر) أو (أزر) هذه واستعمالها العربى وأصلها اللغوى والتاريخى على نحو علمى عميق نرجو أن تتضافر عليه قوى نزيهة تستجيب على الأقل لقول قدمائنا (إن علم التفسير يتضح) ونحن أهل الواجب الأولى فى ذلك أ هـ(انتهى) كلام الأستاذ أمين الخولى.

وذهب فريق من المفسّرين إلى أن (آزر) اسم صنم كان يعبده تارح والد إبراهيم وكان سادنا له. قاله السيد المرتضى الزبيدى (تاج العروس : ج ٣ ص ١٢): وروى عن مجاهد فى قوله تعالى آزر أتتخذ =

موجز عن قصته

ولد سيدنا إبراهيم فى بلدة «فدام آرام» بمملكة بابل بالعراق، وكان ملكها وقتئذ هو «نمرود بن كنعان بن كوش»، وكانت هذه المملكة تنعم برغد العيش غير أنهم تخبطوا فى دياجير الظلام، وعبدوا أصناما نحتوها بأيديهم، ثم استخفَّهم ملكهم «نمرود» فنصّب نفسه إلها، وفى وسط هذا الانحراف العقائدى والسلوكى ولد ونشأ ونبىء سيدنا إبراهيم عليه السلام رسولاً، وهو إمام الرسل بعده، لأنهم كانوا من ذريته، وهذا ثمرة استجابة دعوته، وهى قوله: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ عقب قول الله تعالى له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وهو صاحب المعجزات الباهرات، وخليل رب الأرض والسموات، وقدوة أولى العزم من الرُّسل . . وردت قصته فى القرآن حسب وقائع فصولها فى أكثر من سورة فى القرآن الكريم (البقرة ومريم والصافات والممتحنة . . .)

= أصناما قال لم يكن بأبيه ولكن أزر اسم صنم فموضعه نصب على إضمار الفعل والتلاوة، وكأنه قال: «وإذ قال ابراهيم أتتخذ آزر إلها أى أتتخذ أصناما آلهة».

وقد نقل شيخ العروبة المرحوم أحمد زكى باشا عبارة تاج العروس السابقة فى أول كتابه (تكملة كتاب الأصنام لابن الكلبى).

وهذا القول الذى قاله مجاهد أولى الأقوال عندى بالقبول وعلى ذلك يكون والد ابراهيم لم يذكر باسمه العلمى فى القرآن الكريم ومما يستأنس به بأن «آزر» اسم إله أننا نجد فى الآلهة القديمة عند المصريين الإله «أزوريس» ومعناه الإله القوى المعين، وقد كانت الأمم السابقة يقلد بعضهم بعضا فى اسماء الآلهة أ هـ كلام الشيخ النجار.

وقد وجدت فى كتاب (السفر الأول من كتاب مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان تصنيف سبط بن الجوزى) ما يلى: واتفقوا على أن تارخ (تارح) هو آزر، بعضهم يقول: إن آزر اسم صنم، وليس بصحيح، قال الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤]. .

والرأى عندى أن يكون لوالد إبراهيم عليه السلام اسم ولقب، وكما هو معروف لدينا يصح أن يشتهر بأيهما أو كليهما، وعلى ذلك يكون لوالد إبراهيم عليه السلام اسم (تارح أو تارخ) وهو ما ذكرته التوراة، ولقب ظاهر ومشهور بين الناس (آزر أو أزر) وهو الذى ذكره القرآن وأن إبراهيم عليه السلام حين عرض دعوته على أبيه (فى القرآن الكريم) خاطبه باللقب الظاهر المحبب إلى نفسه والمشهور بين الناس(آزر) لأنه يعرض عليه أمراً جديداً لم يسبقه إليه أحد. وهو شأنه شأن سائر أنبياء الله فى عرض دعوته أن يبدأها بالرفق والتلطف واللين فضلا عن البر بأبيه حتى أنه عندما أجابه وأغلظ عليه فى القول (أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا) لم يكن له جواب على هذه الجفوة القاسية، وهذا التهديد العنيف إلا أن قال لأبيه (سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيًا) والله أعلم بالصواب. أهـ (د. موسى الخطيب).

وأطلق اسمه على إحدى سور القرآن، وهى سورة إبراهيم. .

ومن خلال قصته فى هذه السور تبدو الصورة الكاملة لذلكم النبى الرسول، الذى تكبد الكثير من الصعاب، وركب متن الأخطار، واغترب عن الأهل والأوطان، وجادل أهل الكفر والإلحاد وذلك فى سبيل نصرة الحق، وتبليغ رسالة الله إلى الأنام، ولم ينس فى ظعنه وإقامته ومنشطه ومكرهه طَرْق أبواب التوبة والمغفرة والرحمة فكان كثير الدعاء فى كل موطن لنفسه وأبيه وذريته وأهله ووطنه والبيت الحرام وقصّاده.

ولقد كانت له جولات جدلية عظيمة جداً مع ملك البلاد التى وُلد ونشأ فيها، ومع أبيه بالذات حيث كان يسخِّره فى صغره لبيع الأصنام الحجرية التى يصنعها، فكان ينادى عليها قائلا: يامن يشترى من لا ينفع ويضر. كذلك كانت له مناقشات حادة مع سدنة الأصنام وعبدتها.

كما كانت له هجرات متعددة من فدام إلى فلسطين ثم إلى مصر ثم الحجاز ثم فلسطين. لقد هاجر إلى مصر بزوجته سارة وذلك حينما دب القحط فى العراق، وعمّ الغلاء بمسقط رأسه، ولقد دار بينه وبين ملكها، أحد ملوك العرب العمالقة مناقشات كثيرة ومكث بها ما شاء الله، ثم عاد إلى وطنه وبعد أن حسده القوم على مكانته، ونقموا عليه لسعة نعمته. . ثم استقر مع زوجته سارة، وجاريتها هاجر بالشام.

ثم ما كان منه من زواجه بجاريته (هاجر) التى أنجب منها إسماعيل[1]، ثم ما كان بعد ذلك وتحت ضغط الغيرة التى استبدت بزوجته سارة، وأمر الله له بإنزال هاجر وابنها إسماعيل بمكان زمزم الحالى، ثم ما كان من قصة الذبح والفداء، وزواج إسماعيل من قبيلة جرهم، ثم ما كان من إبراهيم وابنه إسماعيل ببناء قواعد البيت حتى وافاه الأجل وقد أتم رسالة ربه على أكمل وجه.

---

(١) وصفه سفر التكوين (الفصل ١٧ آيه ٢٠): (وأما اسماعيل فقد سمعت قولك فيه وهاء نذا أباركه وأنميه وأكثره جداً ويلد اثنى عشر رئيسا وأجعله أمة عظيمة، فهذه كما ترى بشارة بأمة محمد ﷺ فإن محمداً من نسل إسماعيل وكذلك عرب الحجاز، ولم يتحقق هذا الوعد فى ذرية إسماعيل إلا على يد محمد عليه الصلاة والسلام وأمته.

إبراهيم أبو الأنبياء .. لماذا؟

إبراهيم عليه السلام له منزلة عظيمة عند معتنقى الأديان الثلاثة؛ اليهودية والمسيحية والإسلام، فاسمه يُذكر دائما مقرونا بالإكرام والدعاء والإجلال وكانت حياته سلسلة تضحيات لربه، وضرب بعمله مثلا حيا لكافة الأمم من بعده على التفانى فى محبة الله.

كما أن منزلة إبراهيم، ورِفْعة شأنه تكمن أيضا فى أنه أبو الأنبياء، فكل كتاب أُنزل من السماء على نبى من الأنبياء بعد إبراهيم فمن ذريته وشيعته(١)، وهذه مرتبة لإبراهيم لايعلو عليها أى رتبه.

فإبراهيم كان له ولدان اصطفاهما الله بالنبوة وهما :

إسماعيل وإسحاق، فإسماعيل هو جد النبى محمد(٢) ﷺ وجد عرب الحجاز، إذ يرجع نسب عرب الحجاز إلى ولدى إسماعيل نابت وقيذار(٣).

وقد أشار القرآن إلى أبوة إبراهيم للعرب: قال تعالى مخاطبا العرب المؤمنين ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[الحج:٧٨].

أما إسحاق فقد رزق بولد اسمه يعقوب، وهو الذى يُلقب بإسرائيل وإليه ينتسب سائر أسباط بنى إسرائيل.

وكان فى هؤلاء الأسباط كثير من الأنبياء خُتموا بعيسى بن مريم الذى قال لأتباعه، كما يروى الإنجيل: «إبراهيم أبوكم ابتهج حتى يرى يومى فرأى وفرح»(٤).

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير: (جـ ١ ص ١٦٧).

(٢) أجمع النسابون أن نسب الرسول ﷺ ينتهى إلى عدنان بن أدد، وعدنان ينتهى نسبه إلى اسماعيل بن ابراهيم.

(٣) تاريخ الطبرى (جـ ١ ص ٢٢١).

(٤) يوحنا (٨ : ٥٦).

وقد أشار القرآن إلى أبوة إبراهيم للأنبياء عليهم السلام، الذين جاءوا بعده، قال تعالى فى شأنه ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين ﴿٨٤﴾ وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين ﴿٨٥﴾ وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا[1] وكلا فضلنا على العالمين﴾[الأنعام: ٨٤-٨٦].

يتبين لنا من هذا النص القرآنى أن إبراهيم هو جد اليهود، والنصارى، والمسلمين، وأن أنبياء هذه الأديان الثلاثة يلتقون فى النسب، فهم من أرومة واحدة، ويسعون إلى غاية واحدة هى: العمل بوصايا الله التى أنزلها عليهم والتى تدعو قبل كل شئ إلى عبادة الله وحده.

أدعية إبراهيم عليه السلام فى القرآن الكريم

ها نحن نستعرض آيات دعائه فى القرآن محاولين بذل الطاقة فى ترتيبها حسب مواقعها التاريخية.. وذلك فى الفصول التالية.

(١) كان لوط ابن أخ إبراهيم لذا فقد دخل فى ذريته تغليبا.

الفصل الثانى

الدعاء الأول

طلب الإمامة فى ذريته

قال الله تعالى﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾[البقرة: ١٢٤].

المقام هنا مقام ابتلاء واختبار وإقرار، ابتلى الله جل ثناؤه إبراهيم عليه السلام بهذه الكلمات. فما هى الكلمات:

ورد لفظ الكلمات فى ثلاثة مواضع فى القرآن الكريم.

١- كلمات لآدم عليه السلام

﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[البقرة: ٣٧].

٢- كلمات لإبراهيم عليه السلام.

٣- كلمات لمريم البتول الصِّدّيقة.

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾[التحريم: ١٢].

فالكلمات فى حق آدم، هى بعد أن قضى عليه بالخطيئة، ألهمه التوبة وعلّمه الاستغفار﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[البقرة: ٣٧] وأما الكلمات التى ابتلى إبراهيم بها فهى على أقوال منها.

- ما رواه ابن عباس قال: كانت فرضا فى شرعه، وأصبحت سنّة فى شرعنا، خمس فى الرأس: قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسّواك وفرق الرأس، وخمس فى الجسد: وهى تقليم الأظفار وحلق العانة ونتف الإبط والختان وغسل موضع الاستنجاء والبول بالماء.

وقال ابن عباس حين سئل عن الكلمات: الإسلام ثلاثون سهما: منها عشر آيات سورة براءة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وعشر فى أول سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١- ١١].

وعشر فى الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فأتمهن كلهن وقواه الله على مبادئ الإسلام كلها، فكتبت له براءة. قال الله تعالى ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧].

وقيل ابتلاه بسبعة أشياء وهى: الشمس والقمر والكواكب والختان على الكبَر والنار والذبح والهجرة.

وروى عن ابن عباس أنها المناسك: الطواف بالبيت والسعى ورمى الجمار والإفاضة والغسل من الجنابة والغسل يوم الجمعة.

- وقيل هى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ [البقرة: ١٣١].

- وقيل هى المناظرات التى كانت بينه وبين نمرود ملك البلاد، وبين أبيه وقومه.

- وعن مجاهد فى قوله تعالى ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] قال الله لإبراهيم: إنى مبتليك بأمر فما هو؟ قال: تجعلنى للناس إماما.

قال: نعم، قال: ومن ذريتى؟ قال: لاينال عهدى الظالمين، قال: تجعل البيت مثابة للناس، قال: نعم، قال: وأمنا، قال: نعم، قال: تجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، قال: نعم، قال: وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله، قال: نعم. فكان إماما يقتدى به الصالحون، ويكون من نسله الأنبياء والمرسلون.

- وقيل هى الإمامة وتطهير البيت ورفع قواعده والدعاء بابتعاث محمد ﷺ، والمراد الإمامة: النبوة.

وقال القفّال فى هذا المقام: وجملة القول أن الابتلاء يتناول إلزام كل ما فى فعله كلفة شديدة ومشقة.. فاللفظ يتناول مجموع هذه الأشياء كما يتناول كل واحد منهما.

ابتلى الله إبراهيم، بكلمات فأتمهن بالأداء الكامل، إذ أداهّن أحسن أداء من غير تفريط أو توان، فأعطاه ربه ما طلبه ولم ينقص منه شيئا من ذكره الإقامة وتطهير البيت ورفع قواعده والإسلام قبل ذلك فى قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾[البقرة:١٣١]، وابتلائه بشرائع الإسلام، ومناسك الحج كالطواف والسعى والرمى والإحرام والتعريف وغيرهن، والهجرة، وجعل الأنبياء وأصحاب الكتب من نسله، وجعل البيت مثابة للناس وأمناً واتخاذ مقام إبراهيم مصلى، فهو مقصد الحجاج والعمّار، مثابة لكل الناس لايختص بواحد منهم ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾[الحج:٢٥])، راكعون مصلون ساجدون وقائمون عابدون قانتون لله خاشعون.

وذلك هو سر الكلمات فى إبراهيم، أمر ونهى، وامتثال تام، وتسليم مطلق لله رب العالمين، لاتردد ولا قلق، بل اطمئنان وتعويض.

وذلك خصوصية نبينا إبراهيم المبارك الخطوات، والمستجاب الدعوات فى الملمات، وصبر على البلاء، وعزم قوى على المصابرة.

وفى النهاية شيخ المتوكلين وأبو الأنبياء والمرسلين فالكلمات كلمات الله تعالى عبّر بها عن الوظائف التى كلّفها إبراهيم عليه السلام، ولما كان تكليفها بالكلام

سُميت به، فصارت كلمات: هى فيما يبدو مجموعة من أدعية ودعوات تقوم بعملية تهيئة داخلية، وغسيل نفسى وعلاج روحى، وتحصين قلبى ليستعد قلب الرسول لتلقى الإلهامات الإلهية.. عملية تطهير داخلية، كل رسول لابد أن يمر بها، لذا كانت حادثة شق الصدر للرسول محمد ﷺ هى - رغم ما يحاول المحدثون- عملية تطهير نسلِّم بها ونؤمن بها على ظاهرها ولو كره المتمدينون.

حادثة شق صدر الرسول محمد عليه السلام، أيام أن كان صغيرا فى البادية فى حضانة «حليمة السعدية» تربيّه تربية جسمية وأراد الله أن يربّيه تربية نفسية نقية، وتربية روحية حية، فأرسل إليه ملكين شقا صدره الكريم، وأتما هذه العملية الإلهية.

تلك الحادثة إن حكّمنا العقل، والعقل وحده، ووضعناها تحت مجهره فحسب، فإنه هناك ملابسات تبدو لايتصورها العقل ولا يهضمها، إذ هى على خلاف العادة.

فعند من لا يؤمنون إلا بالمشاهد والمحسوس، والذين لايخضعون إلا للموازين المعقولة والمقاييس المعتادة، هؤلاء ينكرون حادثة شق الصدر، أو يؤولونها.

أما الذين لا يحكمون العقل وحده فى أمور الشريعة عامة وحياة الرسول خاصة، والذين يؤمنون بما وراء المادة، بالسمعيات والغيبيات، والذين يسلمون بالقصور العقلى. أما كل أولئك فيؤمنون فى عنف وعمق وتسليم بهذه الخصوصيات التى خص الله بها الممتازين من خلقه وكّرم بها أنبياءه وأصفياءه وخلاّنه وأولياءه ورسله هؤلاء الرسل الذين رباهم واصطفاهم وميّزهم، واختارهم وأهلهم تأهيلا خاصا من بين خلقه.. على الرغم من كل ما أثير حول عملية شق الصدر فإن المنصفن يعدونها عملية إعداد وتهيئة من الرب المربى لعبده المرسل، عملية تطهير لمن أعده الله أسوة وقدوة ومثلا أعلى للبشرية من يوم مولده إلى يوم الدين.

فلابد والحالة هذه من أن يتعهده الرب ويهيئه منذ صغره تهيئة خاصة على خلاف العادة والمألوف لتحمل أعباء الرسالة.. وحتى يمر فى جميع مراحل نمّوه

وهو مبرأ صاف نقى طاهر، طاهر الظاهر والباطن، طاهر الجسم والروح، لاتتدنس جبهته بالسجود لصنم، ولايلهج لسانه إلا باسم الله، ولايخشع فؤاده إلا لله، ولا يستجيب قلبه لدعوة باطلة ،لا ينحرف ولايشذ فى صغره وشبابه، وأيام فورة جسده وعنفوانه.

وكيف ينحرف من اصطفاه الله وصنعه على عينه؟

فلاعجب أن كانت هناك تهيئة إلهية. . وإعداد ربانى.

ولا عجب أن كان هناك شق صدر حسى.

والرسول صلوات الله وسلامه عليه قبيل الإسراء والمعراج هُيئ تهيئة خاصة، روت كتب السيرة أن الرسول عليه السلام «أتاه آت ليلة الإسراء ففرج صدره ثم غسله بماء، ثم جاء بوعاء ملئ حكمة وإيمانا فأفرغه فى صدره الشريف ثم أطبقه».

إننا فى عصرنا الحالى وبعقليته المتطورة، وبروحه العلمية نؤيد هذه الأحاديث، ولانرى فيها إلا نوعا من أنواع التهيئة الإلهية لرسول بشر عندما يُكلفّ بأمر غير عادى.

فالإسراء والمعراج رحلتان إلهيتان: رحلة أرضية، وأخرى سماوية، لاتكونان طفرة، بل لابد أن يسبقهما إعداد وتأهيل، كما أن رواد الفضاء فى عصرنا الحاضر- والقياس مع الفارق - يعدون إعداداً خاصا، يخضعون فيه لنواميس غير عادية، وتمرينات خاصة جسمية ونفسية ونظم معينة.

فكل رسول لابد أن يمر بمرحلة الإعداد والتأهيل.

شق صدر كما كان لرسولنا محمد فى البادية، وقبيل الإسراء... أو كلمات. . ككلمات آدم وإبراهيم.

والكلمات فى حق مريم البتول الطاهرة التى وصفها ربها بأنبل وصف وأطهر سيرة، فقال ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[التحريم:١٢] هى الشرائع السماوية التى شرعها الله لعباده بكلماته المنزّلة على عباده، كصحف إبراهيم وموسى والتوراة

والزبور، فكان يقينها جازما، وعقيدتها صحيحة يقينية لاشك فيها، فهى من أعقاب هارون أخى موسى عليهما السلام، وهى من عشيرة أهل صلاح وتقوى وطاعة الله.

وفيها قال رسولنا الأمين محمد صلوات الله وتسليمه عليه «حسبك من نساء العالمين مريم ابنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»[أخرجه الترمذى].

كلمات ربانية.. لايدركها حَصْر ولا عد ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[الكهف:١٠٩].

فلما أخبر الله تعالى إبراهيم بجعله إماما ورسولا ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[البقرة:١٢٤] لسكان بلدة «فدام» بمملكة بابل يبلغهم رسالته، وينهاهم عن عبادة الأصنام ونحتها وبيعها. طمع فى كرم الله ورحمته تعالى، فدعاه أن يجعل ذريته رسلا وأئمة مثله «ومن» وهى هنا للبيان، أى اجعل الأئمة والرسل من ذريتى، ولا يقتضى المقام أن تكون«من» تبعيضيه لأنه يلزم عليه أن لاتكون هناك كبير فائدة من قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[البقرة:١٢٤] وإن كانوا من ذريتك يا إبراهيم.

وقد استجاب الله بعض دعاءه حيث لم يجعل كل ذريته أنبياء ورسلا وأئمة، بل جعل البعض كإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وأيوب ويونس وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد عليهم السلام.. أو نقول بأن الله استجاب دعاءه على معنى آخر وهو أن الله لم يرسل بعده رسولا إلا من ذريته.

الفصل الثالث
الدعاء الثانى

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء: ٧٨ ـ ٨٩].

اشتمل المنهج الإبراهيمى فى الدعاء على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: اشتمل على الحوار الذى دار بينه وبين أبيه وقومه فى الآيات السابقة على هذه الآيات ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾[الشعراء: ٧٠] سألهم مع علمه بأنهم يعبدون الأصنام ليبين لهم سفاهة عقولهم فى عبادة مالا ينفع، ويقيم عليهم الحجة ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾[الشعراء: ٧١] أى نعبد أصناما فنبقى مقيمين على عبادتها لا نتركها، قالوا ذلك على سبيل الابتهاج والافتخار، وكان يكفيهم أن يقولوا: نعبد الأصنام، ولكنهم زادوا فى الوصف كالمفتخر لما يصنع ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾[الشعراء: ٧٢] أى قال لهم إبراهيم على سبيل التبكيت والتوبيخ: هل يسمعون دعاءكم حين تلجأون إليهم بالدعاء؟ ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾[الشعراء: ٧٣] أى وهل يبذلون لكم منفعة، أو يدفعون عنكم مضرة؟ ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[الشعراء: ٧٤] أى وجدنا آباءنا يعبدونهم ففعلنا مثلهم. قال أبو السعود: اعترفوا بأنها لا تنفع ولا تضر بالمرة، واضطروا إلى إظهار الحقيقة وهي أنه لاسند لهم سوى التقليد[1] وهذا من علامات انقطاع الحجة ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء: ٧٥، ٧٦]

---

(١) أبو السعود (٤/١٠٩).

أى قال إبراهيم: أفرأيتم هذه الأصنام التى عبدتموها من دون الله أنتم وآباءكم الأولون؟ ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أى فإن هذه الأصنام أعداء لى لا أعبدهم، ولكن أعبد الله رب العالمين فهو وليى فى الدنيا والآخرة، أسند العداوة لنفسه تعريضا وهو أبلغ فى النصيحة من التصريح .

القسم الثانى: ثناؤه على الله تعالى، الذى ابتداه بقوله تعال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ . . الآية.

لقد فطن الخليل إلى المقدمات التى ينبغى للداعى أن يقدمها بين يدى دعائه، فأثنى على ربه ومدحه وحمده وذكره مكبراً ليقع موقع القبول يقول الفخر الرازى فى تفسيره الكبير «أراد إبراهيم عليه السلام أن ينبه المؤمنين إلى ضرورة تقديم الثناء بين يدى الدعاء وذلك من المهمات التى لا ينبغى للمؤمن إغفالها[١]».

فمن أراد أن يشتغل بالدعاء يجب أن يقدم عليه الثناء لله تعالى وذكر عظمته وكبريائه حتى أنه بسبب ذلك الذكر يصبر مستغرقا فى معرفة الله ومحبته، ويصير قريب المشاكلة من الملائكة فتحصل له بسبب تلك المشاكلة قوة إلهية سماوية فيصير مبدأ لحدوث ذلك الشئ الذى هو المطلوب بالدعاء فهذا هو الكشف عن ماهية الدعاء. وظهر أن تقديم الثناء على الدعاء من الواجبات، وظهر به تحقيق قوله عليه السلام حكاية عن الله تعالى «من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين».

وأول هذا الثناء هو قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أى الله الذى خلقنى هو الذى يهدينى إلى طريق الرشاد لا هذه الأصنام، فصورته الإخبار، وحقيقته الثناء والدعاء، ولقد كان إبراهيم عليه السلام موفقا كل التوفيق فى هذا الثناء حيث أثنى على الله بما أثنى الله تعالى به على نفسه، فقال جل شأنه ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[الأعلى: ٢، ٣] وإن جملة الثناء هذه جامعة لمنافع الدين والدنيا، فقد قدم إبراهيم عليه السلام ما حقه التقديم وهو قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ وأخر ما حقه التأخير وهو قوله ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ . . فقدّم الخَلْق على الهداية، لتقدمه طبعا، ولأن الخلق متعلق بالجسمانيات، والهداية

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ١٤٢).

متعلقة بالروحانيات، وتلك سابقة على هذه ومما يدل على سمّو تعبيره عليه السلام أنه صاغ الخلق بلفظ الماضى لعدم تكرره، وصاغ الهداية بلفظ المضارع المقتضى للتكرار.

والجملة الثانية فى الثناء هى قوله:﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أى هو تعالى الذى يرزقنى الطعام والشراب فهو الخالق الرازق الذى ساق المُزْن، وأنزل المطر، وأخرج به أنواع الثمرات رزقا للعباد.

وما قيل فى الجملة السابقة من الإخبار والثناء والدعاء يقال هنا حتى التقديم والتأخير، فقد قدم الطعام وضعا لأنه مقدم عليه طبعا إذ الإنسان يأكل طعامه ثم يمزجه بالماء دفعا وهضما.

كما اشتمل هذا التعبير على كل ما يتصل بأنواع الرزق، وإنما ذُكر الطعام والشراب تنبيها على ما عداهما من الشهوة والقوة ولاتمييز وهذه الثلاثة دافعة للأكل والاغتذاء والارتواء.

والجملة الثالثة فى الثناء هى قوله:﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وهى أيضا إخبار وثناء ودعاء.

والمعنى: أى وإذا أصابنى المرض فإنه لا يقدر على شفائى أحد غيره وإنما أسند المرض إلى نفسه «مرضت» وأسند الشفاء إلى الله لكونه محبوبا، ولأن المقام يقتضيه إذ هو مقام تعداد نعم الله تعالى عليه، وذلك من حُسن الأدب النبوى وإلا فالمرض والشفاء من الله جل وعلا فاستعمل فى كلامه حُسْن الأدب.

والجملة الرابعة فى الثناء هى قوله: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ أى وهو تعالى المحيى المميت لايقدر على ذلك أحد سواه، يميتنى إذا شاء ثم يحيينى إذا أراد بعد مماتى.

فهذا الإخبار من إبراهيم عليه السلام هو اعتراف منه بالواقع الذى يشهد بتمام قدرة الله تعالى، كما أنه يحمل لونا من ألوان التهديد، إذ القادر على الإماتة والإحياء، قادر على الثواب والعقاب، وقادر أيضا على المنع والعطاء، فشعور

الإنسان بذلك وتصديقه لهذا يحمله على أداء السلوك المرضى فى دنياه ليكون فى الآخرة بمنجى عن عذاب الله قريب من رضوانه.

الجملة الخامسة فى الثناء هى قوله ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ أى أرجو من واسع رحمته أن يغفر لى ذنبى يوم الحساب والجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم، وفيه تعليم للأمة أن يستغفروا من ذنوبهم ويقروا بخطاياهم. فطمع إبراهيم عليه السلام ينبغى أن يحمل على الأمل والرجاء لا على الظن فهذا لا يليق برسول فضلا عن كونه إبراهيم عليه السلام، ولا يحمل كذلك على اليقين فإنه لا يوجب أحد على الله شيئا.

أما غفران الخطيئة فقد اختلف العلماء فى حقيقة هذه الخطيئة التى طلب إبراهيم من ربه غفرانها.

أ- قيل ما حصل من إبراهيم هو كذب أو صورة كذب كما يدعون، وذلك فى قوله:

١- ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ عند تحطيم آلهتهم فأجابهم بهذا على سؤالهم ﴿مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾.

٢- قوله لهم ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ حين دعوه للخروج معهم أيام عيدهم.

٣- قوله عندما سأله الملك الجبار عن صلة «سارة» به «هذه أختى» وهى زوجته.

والجواب: كلا، فأما قوله عن سارة: أنها أختى، فالمراد أنها أخته فى الدين، وإذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب إلى الأنبياء عليهم السلام فحينئذ لايحكم بنسبة الكذب إليهم إلا زنديق[(١)].

وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ يحتمل أنه كان به سقم خفيف، أو أنه كان سقيم قلق الخاطر مألوما فى نفسه ولرؤية قومه يعبدون غير الله ولايصغون لعظة ولا نصيحة.

(١) الفخر الرازى (٥ ص ١١٩).

وأما قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، فإن الجواب عليه يحتاج إلى أن نشرح ما هو الكذب فنقول: الكذب هو الإخبار عن الشئ على غير ما هو عليه فى الواقع، مع اعتقاد المخبر أن ما قاله غير مطابق للواقع قاصداً بذلك خديعة السامع لخبره وإيهامه أن الشئ على ما أُخبر به، ابتغاء إضلاله عن الحق مع إمكان أن يقع كلامه من السامع موقع الصدق.

فإذا كان الكلام لا يمكن أن يفيد ذلك لم يكن هناك كذب فى الخبر، فهل كان إبراهيم يضلل قومه ليعتقدوا أن الصنم الأكبر قد حطم سائر الأصنام؟ كلا، فإن الذى يعتقد أن الصنم المصنوع من خشب أو غيره ـ من حجر أو معدن ـ يأخذه الغيظ من أمثاله فيعمد إلى تحطيمهن لايكون عنده ذرة من عقل، وما كان القوم بهذا المقدار من الغباء! بل مثله فى ذلك الأخبار، مثل من يأتى إلى مصحف قد كُتب بخط بديع، فيقول لك: أأنت كتبته؟ فتقول له ـ وهو أُمى لا يقرأ ولا يكتب ـ بل أنت كتبته! على سبيل التهكم والاستهزاء به؛ فإنك لاتريد أن تضله عن الحق وتجعله يعتقد أن الكتابة الجميلة من صنع يده، ومتى خرج الخبر إلى التهكم خرج عن الخبرية إلى الإنشاء ولم يكن محتملا للصدق والكذب أصلا، فإبراهيم إنما قال لهم ما قاله على سبيل الاستهزاء بهم، وليجبرهم إلى إقامة حجته واضحة جلية، ومعلوم أنه لاكذب فى ذلك.

وعلى ذلك لم يحصل من إبراهيم كذب ولاصورة كذب[1].

ب- تخيل إبراهيم عليه السلام أنه ما عبد ربه العبادة اللائقة بذاته فعدّ ذلك خطيئة فى حق نفسه، وهذا التصرف هضم لنفسه وتواضع منه لخالقه، واعتراف له تعالى بكثرة نعمة عليه والتى لا تحصى حيث لم يستطع الوفاء بشكرها والقيام بواجباتها، وفيه الأسوة للمؤمنين.

جـ - ولعل الأصوب فى تعريف الخطيئة التى ذكرها إبراهيم هى فعله أحيانا خلاف الأولى به والأحوط فى الامتثال، ومن ذلك قوله تعالى فى حق نبينا محمد ﷺ : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فالذنب فيه محمول على

(١) قصص الأنبياء للشيخ البخارى (ص ٩٠) وما بعدها.

مخالفة الأولى بالنسبة له، كأخذه الفداء فى أسارى بدر بدلا من قتلهم، فهذا ليس معصية قطعا، بل هو حسنة، حيث أن عدداً كبيراً منهم أسلم بعد ذلك، ولكنه يعتبر خلاف الأولى، لأن هذه أول معركة ينتصر فيها الإسلام على الشرك والمشركين، فكان الأولى قتل أسراهم الذين أذلُّوا المسلمين وأخرجوهم من ديارهم، فضلا عن أنه أظهر فى إبراز قوة المسلمين من أخذ الفداء من أولئك الأسرى، وأدعى لراحة المسلمين من مؤمراتهم، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾[الأنفال: ٦٧].

ولا يصح حمل الذنب فى الرسول على المعصية والإثم فإنه لم يرد عنه ﷺ أنه ارتكب ما يخالف شرع الله تعالى فى شأن ما من شئونه، فقد كان أتقى الناس وأعلمهم بالله، فضلا عن أن النبى يُشترط فيه العصمة من المأثم، حتى يكون قدوة لأُمَّته ويُوثق بصدقه.

وإذا كان الله تعالى يعيب على المؤمنين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[الصف: ٢، ٣] فكيف يعتقد أحد أن الرسول يخالف فعله قوله الذى يبلِّغه عن ربه. فإنه يجب تنزيه الرسول وكل الأنبياء عن المعاصى، لأنهم صفوة الله من خلقه، والأسوة الحسنة لهم فى تنفيذ ما أمر الله أو نهى عنه.

وقال الأستاذ أبو إسحاق الاسفراينى: واختلفوا فى الصغائر، والذى عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم، وصار بعضهم إلى تجويزها ولا أصل لهذه المقالة - أى لادليل على صحتها - يريد أن تجويز بعضهم للصغائر باطل.

وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى تجويز وقوع الذنب منهم: الذى ينبغى أن يقال: «أن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم، ونسبها إليهم وعاتبهم عليها، وآخبروا بها عن نفوسهم، وأشفقوا منها وتابوا عنها، وكل ذلك ورد فى مواضع كثيرة، يقبل بعضها التأويل، ولا يقبله بعضها الآخر وكل ذلك بما لا يزرى بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التى وقعت منهم على جهة النذور، وعلى جهة الخطأ والنسيان أو تأويل دعا إلى ذلك، فهى بالنسبة لغيرهم حسنات، وفى حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم وعلوّ أقدارهم، إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه

السايس، فأشفقوا من ذلك فى موقف القيامة، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة ـ قال ـ وهذا هو الحق».

ولقد أحسن الجنيد حيث قال: «حسنات الأبرار سيئات المقربين، فهم صلوات الله وسلامه عليهم، وإن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يخل ذلك بمناصبهم، ولا قدح فى رتبهم، بل قد تلافاهم[1] واجتباهم وهداهم ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم»[2] أ . هـ.

أما ذكره ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ وتعليق المغفرة عليه فباعتبار ظهور أثرها فى ذلك اليوم، أما قبله فهى فى خفاء وستر مع العلم بأن المغفرة غالبا ما تكون فى الدنيا.

وهذه الجملة فى سياق الثناء الإبراهيمى على الله تعالى لتحمل فى ثناياها معنى الدعاء ظاهراً جليا أكثر من غيرها من الجمل التى سبقتها فى مقام المدح والثناء هذا. ولما كان هذا الثناء بفقراته الخمس السابقة مشّربا بالدعاء أحببنا إماطة اللثام عن معانية إماطة تظهر معالمه، وتبين مراميه، وتكون تقدمه كاشفة لما يليه من دعاء أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

القسم الثالث فى الدعاء الإبراهيمى: تضّرعه ودعاؤه وطلباته التى رفعها إلى مولاه.

إن القارئ لأدعية الخليل إبراهيم يجدها قد سلكت مسلكا ممتازا من حيث فقد أثر فيها الروحانيات على الجسمانيات، والباقيات على الفانيات... ابتدأها بطلب الكمال الذاتى للإنسان فى الدنيا والآخرة ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ أى هب لى الفهم والعلم والحكمة والحكم، وجعل ذلك البدء مقدمة لطلباته الدنيوية والآخروية.

﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أى والحقنى فى زمرة عبادك الصالحين وطلب إبراهيم عليه السلام أن يكون فى عداد الصالحين لايطعن بحال من الأحوال فى رسالته أو عصمته، وإنما هو تواضع منه، وهضم لنفسه، وأدب نبوى رفيع مع ربه الذى أدبه فأحسن تأديبه، واعتراف منه بأن الإنسان لا ينفك عن الخروج عن حد الاعتدال والتوسط، قلّ ذلك الخروج أو كثر لأنه لايدرك حقائق الأشياء التى لا تقبل القسمة البته.

(١) معنى تلافاهم: تداركهم بالعفو، فزال به تقصيرهم.
(٢) القرطبى (جـ ١ ص ٣٠٩).

لهذا عدَّ فعل الأولى بالنسبة لمقامهم ذنبا ومعصية وسيئة، وهذا من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، ودرجات الأبرار دركات المقربين وبعد.. فقد وضح لنا أن إبراهيم عليه السلام كان موفَّقا تمام التوفيق فى جعل هذه العبارة أول أدعيته وفى مقدمتها، وهذا من براعة الاستهلال للفت الأنظار، خصوصا ما اشتملت عليه من ألفاظ وما انتظمها من ترتيب، ولهذه الأسباب وغيرها استجاب الله دعاءه هذا، فقال تعالى ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[البقرة: ١٣٠].

ثم اشتمل دعاء الخليل على أفضل كمالات الدنيا الخارجية وهو الجاه والذكر الجميل الباقى على وجه الدهر ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ أى اجعل لى ذكراً حسنا وثناءً عاطراً فيمن يأتى بعدى إلى يوم القيامة، أُذكر به ويُقتدى بى. قال ابن عباس: هو اجتماع الأمم عليه، فكل أُمة تتمسك به وتعظِّمه، وأن الله أعطاه ذلك فقال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ۝١٠٨ سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٨، ١٠٩].

وقال بعض العلماء: فى الآية دليل على استحباب كسب الذكر الجميل إذ هو الحياة الثانية وأنشدوا «قد مات قوم وهم فى الناس أحياء».

﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أى من السعداء فى الآخرة الذين يستحقون ميراث جنات الخلد. فبعد أن طلب إبراهيم عليه السلام سعادة الدنيا، ثنى بطلب سعادة الآخرة، وشبّه نفسه بالوارث، والجنة بالميراث، بجامع الأخذ فى كلٍ من غير عوض، لهذا شُبّهت غنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا، وفى هذا التعبير من الأدب الجم، والخلق السليم، والعقيدة الصحيحة ما فيه، حيث لم يجعل دخول الجنة مقابل أعماله وأفعاله ونياته.

﴿وَاغْفِرْ لأَبِي﴾ أى اصفح عنه واهده إلى الإيمان، وهذا من أرقى درجات البر بالوالدين كقوله ﴿اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ لأنه لما فرغ من الطلبات الخاصة بنفسه، تقدم بالطلب لمن هم أصله ومصدر نعمة وجوده، ومن هم أشد الناس التصاقا به، وهو أبوه.. أما لماذا لم يدعو لأمه فإما أن تكون من أهل الفترة، أو أنها كانت مؤمنة برسالته. وأبوه أولى بطلب المغفرة والهداية لأنه لم يؤمن ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أى ممن ضل عن سبيل الهدى: قال الصاوى: وقد أجابه الله تعالى فى

جميع دعواته سوى الدعاء بالغفران لأبيه[1]. وقال القرطبي: كان أبوه وعده أن يؤمن فلذلك استغفرله، فلما بان له أنه لايفى تبرأ منه[2] كما قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ وقد قطع تعالى الإلحاق فى استغفاره لأبيه فقال تعالى ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ - إلى قوله - وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أى ليس لكم فى ذلك أسوة فى الاستغفار للمشركين هكذا قاله ابن عباس وغيره.

﴿وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أى أجرنى من الذُّل والهوان يوم تبعث الخلائق للحساب، وهذا تواضع منه أمام عظمة الله وجلاله، وهو من باب هضم النفس، والتحلى بالأدب الرفيع، وإلا فقد أثنى الله عليه بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ وكيف لا يتسنى ذلك منه وهو أبو الأنبياء وهكذا الشأن بالنسبة لسائر رسل الله وأصفيائه.

﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ﴾ أى فى ذلك اليوم العصيب لا ينفع أحداً فيه مال ولا ولد ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ﴾ أى إلا من جاء ربه فى الآخرة ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أى نقى طاهر، سليم من الشرك والنفاق، والحسد والبغضاء. نسأل الله من فضله السلامة والنجاة من النار.

ويجدر بنا فى ختام هذا الدعاء أن ننبّه على الفرق الكبير بين مقام إبراهيم عليه السلام فى دعائه هذا، وبين مقامه هناك حين أُلقى فى النار وجاءه جبريل عليه السلام موفداً من قبل الله ليسأله حاجته، وليعرض عليه نجدته وعونه، فرد عليه الخليل «حسبى من سؤالى علِمه بحالى»، لأن مقالته هذه كانت فى الحقيقة حينما خلا بنفسه، ولم يكن غرضه تعليم الشرع لغيره، أما تلك فكانت مناظرة ثم ثناء ثم دعاء، فكان فيها مشتغلا بدعوة الخلق إلى الحق، وتعليمهم الشرع الذى لابد منه فافترقا.

---

(١) الصاوى على الجلالين (٣/ ١٧٥).
(٤) القرطبى (١٣ / ١١٤).

الفصل الرابع
الدعاء الثالث

قال الله تعالى﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[الممتحنة: ٤ ، ٥].

هذا دعاء حكاه القرآن على لسان إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه حين فارقوا قومهم، وتبرءوا منهم، فلجئوا إلى الله وتضرّعوا إليه فقالوا ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ أى توكلنا عليك فى جميع الأمور، وسلّمنا أمورنا إليك، وفوّضناها إليك، وإليك المصير: أى المعاد فى الدار الآخرة وهذا الترتيب على غاية من التناسق والدقة، فالتوكل على الله يتبعه الرجوع إليه فى كل شئون الحياة الدنيا، وهذا الإعلان بالإنابة إلى الله يليه الاعتقاد بأن المرجع والمصير إليه.. ثم قال إبراهيم فى ختم دعائه ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، واختُلف فى المراد من هذه الفقرة، فأورد الشوكانى فى تفسيره (الفتح القدير) عدة أقوال مخرّجة نذكرها لتمام الفائدة..

- أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال معناه: لا تسلّطهم علينا فيفتنونا.

- وأخرج ابن المنذر والحاكم وصحّحه عن ابن عباس أيضا قال: أى لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا، وروى هذا أيضا عن مجاهد.

وروى عن ابن عباس أيضا فى تفسير هذا الدعاء قوله: لا تسلّط أعدائنا علينا فيظنوا أنهم على الحق.. وقيل لا تبسط عليهم الرزق دوننا فإن ذلك فتنة لهم.. وقيل لاتجعلنا سببا يعذب به الكفار.

ثم قال الإمام الرازى فى تفسيره لهذه الآية، وعقب سرده هذا الرأى الأخير: وعلى هذا ليست الآية ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ من قول إبراهيم... ولا ندرى ما السبب الذى حمل الإمام الرازى على قوله هذا، فهذا الكلام ينقصه الدليل.. ولماذا لا تكون الآية من دعاء إبراهيم عليه السلام، وامتداد له ؟!

إن نسبة هذا الدعاء إلى إبراهيم، لا أثر منه للطعن مطلقا بل هو مما يجيزه العقل وتقبله النفوس السليمة، فكل امرئ عاقل يحب ألا يكون سببا فى إيذاء الغير، لامصدر شقاء له، والمقصود من الذين كفروا، العموم لا خصوص الشرك الذى ينبئ سياق الآية عنه لاندراجه تحت العموم.

ثم ختم إبراهيم دعاءه بطلب المغفرة تواضعا منه، وهضما لنفسه، وليكون دائما مستغفراً ربه ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾ أى واستر ذنوبنا عن غيرك واعف عنها فيما بيننا وبينك ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ أى الذى لايضام من لاذ بجنابك ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك.

فأنت ترى أن إبراهيم عليه السلام قد ذيل دعاءه بقوله ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ مثنيا ومادحا لله تعالى، وهذا من الأدب الجم حيث قرن دعاءه بالثناء على الله وإثبات العزة والحكمة له على صورة التأكيد بأن والضمير المنفصل على القول الأرجح[1]. بأن هذه الأدعية صادرة عن إبراهيم عليه السلام، ويكون القصد منها ائتساء أمة محمد ﷺ به فيها، فيرددونها، ويمزجونها فى أدعيتهم، وذلك هو المناسب لقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[الممتحنة: ٤].

فقد تبرأ هو وأصحابه من قومه الكفرة لما استعصى عليه العلاج، ثم أثنى على ربه معلنا توكله الكامل عليه لأنه المستحق للرجوع إليه والإنابة، ولأن المصير إليه لا إلى غيره.

وقد ذهب البعض إلى أن هذا الدعاء ليس من أدعية إبراهيم عليه السلام وإنما سيق لتعليم أمة محمد ﷺ ليعلنوه أمام الخلق دائما. أما وجه المناسبة فى سرده

(١) هكذا ذهب ابن عباس وطائفة من المفسرين (وانظر التفسير الكبير: ٢٩/٣٠٢).

بين هذه الآيات فهو ما حدث من حاطب بن أبى بلتعه حين كتب إلى أهل مكة قائلا: إن محمد قد تجهّز لغزوكم فخذوا حذركم، وما فعل حاطب هذا نفاقا، وهو الصحابى الجليل، إنما أراد أن يحفظ أهله وماله من اعتداء القرشيين بمكة، وذلك بالتقرّب إليهم بمثل هذا الخبر، حتى تكون له عليهم يد، فلا يتعرضون لأهله وماله بسوء.

غير أن إسناد الدعاء إلى إبراهيم عليه السلام أولى وأفضل، ينبئ بذلك سياق الآيات، كما أن نسبة هذا الدعاء إلى إبراهيم تشمل الرأى الثانى ولا عكس، وليس فى طلب إبراهيم عليه السلام الغفران تكرار لما سبق منه، فكثرة الاستغفار لا يعتبر تكراراً، بل هو كمال للمستغفر، وإن النبى ﷺ كان يستغفر ربه فى اليوم والليلة مائة مرة، وفى رواية سبعين مرة.

الفصل الخامس
الدعاء الرابع
قدرة الله تعالى على إحياء الموتى

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦٠].

١- صِلَة الآية بما قبلها :

تتصل هذه الآية بما قبلها معنى باعتبارها الدليل الثالث لإثبات البعث، إذ الدليل الأول هو قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ .. الآية

والدليل الثانى هو قوله تعالى ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ... الآية.

فكما أن الله خلق الإنسان فى البدء فهو قادر على إحيائه يوم القيامة، جاء فى القرآن فى وصف قدرة الله ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أما صلتها بما قبلها إعرابا:

فقد ذهب الزجّاج إلى أن الظرف معمول لعامل محذوف تقديره (واذكر إذ قال إبراهيم).

وذهب غير الزجّاج إلى أن الآية معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ والتقدير ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

٢- لم يذكر الحق تبارك وتعالى اسم القائل فى ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فى الآية السابقة، وذكر اسم إبراهيم فى هذه الآية مع أن سياق الآيتين واحد، وهو طلب «رؤية كيفية إحياء الله للموتى».

رُوى أن الذى مرّ على القرية رجل من بنى إسرائيل هو «عُزير» وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس، مرّ عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها، ولعل الله تعالى لم يذكر اسمه لأنه لم يوفق إلى الأسلوب اللائق بمخاطبة الله جل وعلا حيث قال ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ! وأنه جعل الإماتة والإحياء فى نفسه مستبعداً.

أما إبراهيم عليه السلام فقد تأدب مع الله فلم يستبعد الإحياء والإماتة، بل قال معترفا بقدرة خالقه ومثنيا عليه ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾، ومما زاده أدبا وتشريفا أنه سأل الله الإحياء والإماتة فى الطيور لافى نفسه،لهذا كان ذكر إبراهيم فى هذه الآية تنويها بشأنه، وإظهاراً لخلقه، وإعلاما عن أدبه مع ربه.

٣- أما السبب الحقيقى فى سؤال إبراهيم عليه السلام فقد وردت عدة آراء للعلماء والمفسِّرين:

الأول : أنه لما ناظر نمرود وقال له : أنا أُحيى وأُميت قال ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ قال له نمرود: أنت عاينت ذلك؟ فلم يقل: نعم لأنه ماشاهده، فلما قال: أرنى كيف تحيى الموتى؟ قال له الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فلعل نمرود يناظرنى مرة ثانية فأقول: نعم، فلا أحتاج إلى الانتقال إلى حجة أخرى.

والثانى: أنه لما بُشِّر بالخلة سأل ذلك ليتيقن بالإجابة صحة ما بُشّر به، قاله ابن مسعود والسّدى.

والثالث: أنه رأى دابة ميته على جانب البحر تأكلها دواب البحر، وتمّزقها دواب البر، فجاءه الخبيث فقال له : يا إبراهيم متى يجمع الله هذه من بطون السِّباع والحيتان؟ فقال ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ لتذهب عنى وسوسة الشيطان: قاله ابن زيد ومقاتل.

والرابع: أنه أراد أن يجمع بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، كما أن الإنسان يعلم الشئ ويتقنه ولكنه يحب أن يراه عيانا، كما أن المؤمنين يحبون الله ويختارون رؤيته فى الجنان مع الإيمان وزوال الشك، قاله ابن عباس.

فإن قيل: كل هذه الأجوبة مجازاً لاحقيقة، وقد ثبت أنه كان شاكا مثل قوله «هذا ربى» والدليل عليه ما رواه الأئمة:

فقال أحمد بإسناده عن سعيد بن المسّيب عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ[1]: نحن أحق بالشك من أبينا إبراهيم حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ثم قرأ الآية حتى أنجزها، أخرجاه فى الصحيحين، وفيه «يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت[2] ما لبث يوسف فى السجن لأجبت الداعى»، وكذا ماروى عن ابن عباس أنه قال: «ما فى القرآن عندى آية أرجى منها لهذه الأمة قول إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى﴾ فرضى من إبراهيم قوله ﴿بَلَى﴾ قال فهذا لما يعترض فى النفوس ويوسوس به الشيطان[3]».

والجواب: قالوا: ماشهد له الرسول بالشك، وإنما مدحه لأن معناه نحن أحق بالشك منه وما شككنا، وكيف يشك هو، وإنما شكّ هل يجيبه الله إلى سؤاله أم لا؟! وكذا باقى الحديث مدح للوط ويوسف عليهم السلام.

وقال أبو سليمان الخطابى: ليس فى قوله «نحن أحق بالشك من إبراهيم» اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم، لكن فيه نفى الشك عنهما.

يقول: إذا لم أشك أنا فى قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لايشك، وقال ذلك على سبيل التواضع وهضم النفس، وكذلك قوله: لولبثت فى السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعى. وفيه الإعلام أن المسألة من إبراهيم

---

(١) صحيح البخارى (أنبياء : ١١/ ١٧٩) ومسلم (إيمان : ٢٣٨، فضائل : ١٥٢) ومسند أحمد (٢/ ٣٢٦)
(٢) البخارى: ولو لبثت فى السجن طول ما لبث يوسف.
(٣) أخرجه عبد الرازق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه، ورجح هذا ابن جرير بعد حكايته له.

عليه السلام لم تُعرض من جهة الشك ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة مالا يفيده الاستدلال، وقيل لما نزلت هذه الآية قال قوم: شك إبراهيم ولم يشك نبيّنا فقال رسول الله ﷺ هذا القول تواضعا منه وتقديما لإبراهيم على نفسه أ . هـ.

وقد تعقب ابن عطية مذهب القائلين بأن إبراهيم كان شاكا فى قدرة الله وفنّد أدلتهم قائلا بأن هذا المذهب عندى مردود. ثم قال كلاما مشابها لما قاله الخطابى عن قول الرسول ﷺ «نحن أحق بالشك من إبراهيم، فمعناه : أنه لوكان شاكا لكنا نحن أحق به، ونحن لانشك، فإبراهيم أحرى أن لايشك، فالحديث مبنى على نفى الشك عن إبراهيم.

وقال ابن عطية بالنسبة لما أُثر عن ابن عباس فى قوله: «ما فى القرآن عندى آية أرجى منها». . قال: هى أرجى آية من حيث أن فيها الإدلال على الله، وسؤال الإحياء فى الدنيا، وليست مظنة ذلك. . ويجوز أن نقول هى أرجى آية لقوله ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أى أن الإيمان كاف لا يحتاج معه إلى تنقيب وبحث. . فالشك يبعد على من ثبت قدمه فى الإيمان فقط، فكيف بمرتبة النبوة والخلة؟ والأنبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التى فيها رذيلة إجماعا.

ثم قال ابن عطية: وإذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر الألفاظ للآية لم يعط شكا، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شىء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول، نحو قولك كيف علم زيد؟ وكيف نسج الثوب؟ ونحو هذا. ومتى قلت: كيف ثوبك؟ وكيف زيد؟ فإنما السؤال عن حال من أحواله. . وقد تكون كيف خبراً عن شىء شأنه أن يستفهم عنه بكيف نحو قولك: كيف شئت فكن. . ونحو قول البخارى: كيف كان بدء الوحى؟

وهى فى هذه الآية استفهام عن هيئة الإحياء، والإحياء مقرر ولكن لما وجدنا بعض المفكرين لوجود شىء قد يعبّرون عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشىء يُعلم أنها لاتصح، فيلزم من ذلك أن الشىء فى نفسه لايصح. . مثال ذلك أن يقول مدّع: أنا أرفع هذا الجبل، فيقول المكذب له: أرنى كيف ترفعه. .؟!

فهذه طريقة مجاز فى العبارة ومعناها تسليم جدل، كأنه يقول: أفرض أنك ترفعه، فلما كان فى عبارة الخليل هذا الاشتراك المجازى خلص الله له ذلك، وحمله على أن يبين له الحقيقة فقال له ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى﴾ فكمل الأمر وتخلص من كل شىء، ثم علّل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة.. قال القرطبى: هذا ما ذكره ابن عطية وهو بالغ، كما ذكره الشوكانى عن ابن عطية أيضا. حتى قال الماوردى: وليست الألف فى قوله ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ للاستفهام وإنما هى ألف إيجاب وتقرير كما قال ابن جرير:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى للعالمين بطون راح

وقال ابن جرير: معنى «ليطمئن قلبى» ليؤمن. وقال محمد بن مقاتل الرازى: ما كان شاكا فى القدرة بدليل قوله ﴿أَرِنِي﴾ ولو كان شاكا لقال: هل تحيى الموتى؟ فكان معنى قوله ﴿أَرِنِي﴾ أى ما أنا موقن به.

﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ بزيادة اليقين والحجة وحقيقة الخلة وإجابة الدعوة. فقال الله تعالى ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ واختلفوا فى الذى أخذ، والمشهور أنه أخذ طاووسا ونسراً وغراباً وحماماً، رواه مجاهد عن ابن عباس، وفيه إشارة إلى أحوال الدنيا فالطاووس من الزينة، والنسر من امتداد الأمل، والغراب من المغرب، والحمام من النياحة، وقيل: وديكا عوض النسر، وقيل: وزا ورالا - وهو فرخ النعام - وديكاً وطاووساً ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ ومعناه أجمعهن وضمّهن، ومعناه أيضا: قطعهن ومزقهن وقيل معناه: أوثقهن، فلما أوثقهن ذبحهن، وأخذ نصفين مختلفين، ثم أتى أربعة أجبل، فجعل على كل جبل نصفين مختلفين وهو قوله تعالى ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أى بعضا.

فإن قيل فلِم قال ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ ولم يقل طيرانا قلنا: لوطارت لتوهم متوهم أنها غير تلك، وأن أرجلها غير سليمة، فكان أبلغ فى الحجة وأبعد عن الشبهة، وقال مقاتل: هذا مثل ضربة الله، فكأنه يقول: كما قدرت أن أبعث هذه الأطيار من هذه الأجبل، فكذا أبعث الناس يوم القيامة من أركان الدنيا ونواحيها.

ثم تنحّى إبراهيم ورؤوسها تحت قدميه، ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل فرجع كل نصف إلى نصفه وكل ريش إلى طائره.. ثم أقبلت تطير بغير رؤوس إلى قدميه تريد رؤوسها بأعناقها، فرفع قدميه فوضع كل طائر منها عنقه فى رأسه فعادت كما كانت بحول الله وقوته ولهذا قال ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى عزيز لا يغلبه شىء، ولا يمتنع من شىء، وما شاء كان بلا ممانع لأنه القاهر لكل شىء، حكيم فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

واستدل بهذه الآية على أن البنية ليست شرطا فى صحّة الحياة، حيث جعل الله تعالى كل جزء من هذه الأجزاء حيا فاهما للنداء، قادراً على السعى والعَدْو.. والله غالب على جميع الممكنات، عليم بعواقب الأمور، وغايات الأشياء ويعلق الفخر الرازى على هذه القصة قائلا: والغرض منها ذكر مثال محسوس فى عودة الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة.

الفصل السادس
الدعاء الخامس

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾[الصافات: ٩٩ـ ١٠١].

فى هذا الآيات دعاءان أولهما دعاء بالرمز وهو قوله ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ قال ذلك بعد أن نجاه الله تعالى من النار التى أوقدوها له وألقوه فيها، ونظير هذه الآية قوله ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فهل المراد من إعلان ذهابه إلى ربه هو الهجرة وذلك ما تشير إليه الآية ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أم معنى آخر؟

ذهب الكعبى إلى أن المراد من الذهاب، هو الذهاب بعبادته إلى ربه، ومقصوده من ذلك أنه لا يأتى بشىء من الأعمال إلا لله تعالى وذلك كما قال ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

ولكن هذا الرأى يجعل قصده من الهداية هى الهداية فى الدين، وهذا لا يليق برسول الله إبراهيم، اللهم إلا إذا قلنا بأنه يريد من طلبها التثبيت على الدين، أو الاهتداء إلى المراتب العالية والرفيعة فى الدين.

كما لا يستساغ حمل الهداية هنا على إزاحة الأعذار، ووضوح الأدلة ،وإقامة البراهين، ولايستساغ حملها أيضا على العلم والمعرفة فى قلبه لأن ذلك حاصل بالنبوة والرسالة والاصطفاء. ولكن سياق الآية، وبانضمام آية ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ بالإضافة إلى الواقع الذى عايشه إبراهيم، يدل كل ذلك على أن المراد من الذهاب هو الهجرة إلى بلاد أخرى، يستطيع فيها أن يعبد ربه، ويدعو الناس إلى عبادته تعالى، وقد هاجر إبراهيم عليه السلام فعلا إلى بلاد الشام.. ونظير هذا قول موسى عليه السلام لقومه حين أوشك فرعون وقومه على إدراكهم فقالوا له

﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فقال لهم موسى ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ وهذا المعنى هو الأفضل واللائق بحمل الآية عليه.. ولا ينبغى أن يدفع هذا الأمر المسلم إلى التفريق بين الرسل والشك فى عِصْمتَهم حيث قال إبراهيم جزما ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ وحيث قال موسى ظنا حين توجه تلقاء مدين فاراً من فرعون ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ لا يجدر بالمسلم هذا، بل العصمة واحدة عند جميعهم. أما التفضيل المشار إليه فى الآية من سورة البقرة ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ففى غير العصمة، لأنه يمكن التوفيق بين جزم إبراهيم، وظن موسى فى الهداية، على أن ذلك بسبب اختلاف التجليات، فإذا تجلَّت للعبد مقامات رحمة الله، فهو جازم بحصول المقصود من هداية وغيرها.. وإذا تجلَّت للعبد مقامات كون الله غنيا عن العالمين، عَدَل عن الجزم إلى الظن فى تحقيق مقصوده لاستحقار نفسه حتى لا يظهر إلا الرجاء والطمع.

وهذه الآية وإن كان ظاهرها الخبر إلا أنها فى معنى الدعاء.

كما أن هذه الآية شبيهة بقوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾..

كما يمكن الاستدلال بهذه الآية على نفى المكانية عن الله تعالى.

كما أنها رد بليغ على المشبّهه وما تمسكوا به من قول الله تعالى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ لأن «إلى» لو دلّت على المكان فى هذه الآية كما زعم المشبّهة لدلت «إلى» كذلك على المكانية فى هذه الآية التى معنا... وكان الله موجوداً فى الشام وهو المكان الذى قال عنه إبراهيم ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ولاقائل به، بل الله تعالى فى كل مكان بعلمه وإرادته وقدرته، وسائر صفاته المقّدسة، وهو موجود مع كل كائن لقوله تعالى ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾[المجادلة: ٧].

أما الدعاء الثانى: وهو الصريح فى هذه الآية فهو قوله ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ولعل هذا الدعاء صدر من إبراهيم عليه السلام حين استقر به المقام فى الأرض المقّدسة، ويتضمن هذا الدعاء ما يلى:

١- أنه صدّر دعاءه بلفظ الربوبية استعطافا منه وتأدبا.

٢- يُفهم منه أن إبراهيم لم ينجب حتى وقت هذا الدعاء، وهذا ما كان فعلا، فقد بلغ من الكبر عتيّا، وقيل جاوز المائة على أصح الروايات.

٣- أن لفظ الهبة غلب على الولد، يدعم ذلك قوله تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الأنعام:٨٤، العنكبوت: ٢٧ ، مريم:٤٩ ، الأنبياء: ٧٢] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾ [الأنبياء: ٩٠] وفى غير الغالب بل فى حكم النادر يأتى فى مقام الأخ كقوله تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾[مريم:٥٣].

٤- أن الهبة غالبا يُراد بها الذّكر، والدليل على ذلك ما سبق من الآيات، وقول الله تعالى فى سورة مريم ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾[مريم: ١٧ - ١٩].

يؤيد هذا حين اشتاقت امرأة عمران للذّرية، وكان فى علم الله تعالى أنه سيرزقها أنثى لاذكر وهى «مريم» أنطقها الله بقوله ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ ولم تقل هب لى غلاما مثلا.

ومما يؤيد هذا قول علىّ بن أبى طالب لابن عباس رضى الله عنهما حين هنأه بولده «على أبى الأملاك» «أشكرت الواهب، وبورك لك فى الموهوب».

ولهذا قالوا إن هذا الدعاء اشتمل على ثلاثة أشياء:

- أن هذه الهبة غلام ذكر.
- وأنه يبلغ الحلم.
- وأنه يكون حليما.

٥- حرص الآباء على وصول الخير لأبنائهم، ولا يكون ذلك إلا باستقامتهم وصلاحهم وقربهم من الله تعالى.. لهذا طلب إبراهيم لابنه ما سبق أن طلبه لنفسه، فإن الآباء يحبون أن ينتقل إلى أبنائهم كل ما أكرمهم الله به من مكارم الأخلاق وحميد الصفات، وكل خير لديهم.. واختيار إبراهيم لفظ «الصالحين» دليل على كونه أجمل وأفضل الصفات التى ينبغى على العباد الحرص عليها..

لذلك طلبه لنفسه وولده، كما طلبه أيضا سليمان عليه السلام مع كمال درجته فى الدنيا والدين حين قال ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾[النمل : ١٩].

هل استجاب الله تعالى دعاء إبراهيم عليه السلام هذا؟.

الجواب: نعم، استجاب الله تعالى دعاءه بل وزاده فيما طلب.. أما دليل استجابة دعائه هذا، فيشير إليه قوله تعالى﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾، ولا حلم أفضل من شاب يُعرض عليه الذّبح فيقول لأبيه ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾[الصافات: ١٠٢].

أما الزيادة فمن جنس ما طلب، يشير إليها الكتاب العزيز، بعد أن انتهى من قصة الذبح، قال الله تعالى ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾[الصافات: ١١٢].

وبين البشارتين، قال تعالى فى شأن إبراهيم ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الصافات: ١٠٨ ـ ١١١].

وختم البشارتين بقوله تعالى ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾[الصافات: ١١٣].

الفصل السابع
الدعاء السادس

هجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى البلد الحرام (مكة)

بعد أن رزق إبراهيم بإسماعيل من (هاجر) بدأت هذه تتيه عجبا وتعتز بهذا الولد مما أثار الحسرة والغيرة فى نفس سارة فطلبت من إبراهيم إقصاءهما عن وجهها لأن حياتها مع هاجر أصبحت لا تطاق.

واستجاب إبراهيم لرغبتها لأمر يريده الله، فأوحى إلى إبراهيم أن يأخذ هاجر واسماعيل ويذهب بهما إلى مكة، وكان إسماعيل يومئذ رضيعا. اصطحب إبراهيم الغلام وأمه وسار ترشده عناية الله ورعايته، وطال المسير إلى أن أمره الله بالتوقف فى أرض خلاء بعيده عن العمران فى المكان الذى سيبنى فيه البيت الحرام.

أنزل إبراهيم هاجر وطفلها فى هذا المكان المقفر الذى ليس فيه ماء ثم تركهما وقفل راجعا فتبعته هاجر ملتاعة، وقالت له: إلى أين تذهب؟ ولمن تتركنا بهذا الوادى الموحش المقفر؟ قالت له ذلك مراراً، مستعطفة وهو يمضى فى سبيله، عندئذ قالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيِّعنا، ثم رجعت إلى المكان الذى وضعها إبراهيم فيه مع ولدها إسماعيل.

انطلق إبراهيم وقلبه منفطر أسى على فراق زوجته وولده، ولكن إرادة الله غلبت إرادته، فاستسلم لربه وقفل راجعا، وهو يبتهل لربه ويدعوه بهذه الكلمات التى يقصّها علينا القرآن:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[إبراهيم: ٣٥ ـ ٤١].

صلة الآية بما قبلها: بعد أن بيّن الله تعالى حال الكفرة الذين بدّلوا، نعمة الله كفراً، وتسببوا فى إنزال الهلاك بقومهم حيث جعلوا لله أنداداً وشركاء بقصد إضلال العباد عن توحيد الله.

وبعد أن أمر الله تعالى المؤمنين بإقامة الصلاة، والإنفاق سراً وعلانية فى صالح الأعمال خشية أن يُفاجئوا بالموت الذى لايدفعه عنهم خليل ولا ينفعهم معه فداء.

وبعد أن أقام الله تعالى الأدلة الكونية على كامل وحدانيته، وتمام قدرته وذلك فى قوله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤].

وبعد أن بيّن الله تعالى أنه أعطى الإنسان كل سؤله، وتحدى البشرية أن تحصى نعم الله عليها، وأثبت أن الإنسان يبالغ فى الظلم والجحود وظالم لنفسه بتعدّيه حدود الله، وجحده لنعمه، وقيل ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع، كفّار فى النعمة يجمع ويمنع، بعد هذا كله أورد جل شأنه مقالة إبراهيم، وأبان وأجرى على لسانه من أدعية رفعها لخالقه.. ولعل الحكمة من هذا الإيراد هو إيقاف من سيقت لأجلهم الآيات السابقة على أن لله تعالى عباداً تكاملت فيهم الصفات الحميدة والخلال الكريمة، حيث حاربوا عبدة الأصنام وكانوا للملك الديّان خير موحدين وطائعين.. من هؤلاء الخيّرين بل وفى مقدمتهم إبراهيم الخليل، حصن التوحيد، وها هو قوله شاهد على صدق وجود أصحاب التوحيد الخالص، وأن الأزمان لا

تخلو من هذا العنصر الطيب الصالح المكافح فى سبيل نشر رسالة الله وإعلاء كلمته.. ولقد اشتملت هذه الآيات على فقرات كثيرة من الأدعية، ومنها ما جاء على سبيل الرمز والتعريض تأدبا وحياءً، وأكثرها جاء على طريق الإيضاح والتصريح استعطافا وطمعا.. كما أننا نلاحظ أن إبراهيم مزجها بالثناء والحمد لله فى أولها وأوسطها وآخرها.. والآن إلى تفصيل ما أجملناه فى تفسير الآيات الكريمة:

قوله ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ إبراهيم الخليل عليه السلام يدعو ربه جل شأنه، أن يجعل مكة وأهلها فى أمن وطمأنينة، لأنه إذا استقر الأمن فى ربوعها، وشاعت الطمأنينة فى أرجائها، عمّ خيرها، وكثر مستوطنوها، وتوافد إليها أصحاب الحرف والتجارات.. ولقد أصاب إبراهيم الحقيقة فى طلبه هذا، لأن الأمن مصدر الخيرات، وأعظم نعم الله على بنى الإنسان إذ به تتم أعمال الدين والدنيا، ولذلك سُئل بعض العلماء: الأمن أفضل أم الصّحة؟.. فردّ قائلا: الأمن أفضل من الصّحة، ثم ساق الدليل على صحة ذلك قائلا: لو أن شاة انكسرت رجلها لصّحت بعد مدة من الزمن ولقامت بعد ذلك مقبلة على الرعى والأكل، ولو أنها رُبطت فى موضع وُربط بالقرب منها ذئب، لأمسكت عن تناول الأكل إلى أن تموت، وإن دلّ هذا على شىء فإنما يدل على أن الضر الحاصل من الخوف أشد إيلاما من الضرّ الحاصل من ألم الجسد.

وطلب إبراهيم الأمن لمكة قد يكون فى عدم خرابها، وتأمين الداخل فيها بإصدار الأمر الإلهى للخلائق ألا يعتدوا فيها على أى كائن كان من إنسان أو غيره.. ولقد استجاب الله دعاءه، فخصّها بمزيد من الأمن، فهى دوحة الإيمان، وفيها أول بيت وُضع للناس فى الأرض للعبادة والأمن والإسلام، فأمن الخائف إذا التجأ إليها حتى كان المرء يلقى قاتل أحب الناس إليه فلا يمسه بسوء أو مكروه، وكانت الوحوش تستأنس إذا دخلتها، ثم تعود إليها وحشيتها إذا تجاوزتها.

وبهذا ومثله يمكن الرد على أى معترض يدّعى أن الله تعالى لم يستجب دعاء إبراهيم فى تحقيق الأمن لمكة وأهلها، بدليل ما فعله الحجّاج وأمثاله من تخريب

الكعبة والإغارة عليها.. ولعل التنكير فى سورة البقرة اقتضاه المقام وهو أن إبراهيم لم يكن قد تعرَّف على مكة وقتئذ، أو لعله أراد من دعائه هذا أن يجعل مكة فى عداد البلدان الآمن أهلها فلا يعتريهم خوف ولا فزع.

وجاء التعريف فى سورة إبراهيم بعد أن وقف على معالم مكة وتبيّنت له شخصيتها.. أو أن إبراهيم أراد من ربه أن يزيل عنها ما اتّصفت به من الخوف، ويثبت لها ضده وهو الأمن، وكأنه قال: رب هذا بلد مخوف فاجعل هذا البلد آمنا.

كما أن ذكر البلد تارة منكراً، وأخرى معرَّفا فى دعائى إبراهيم دليل على أنه لم يكن آمنا قبل دعائه.. وهذا رد على القائلين بأنه كان آمنا وإنما أراد إبراهيم تثبيت الأمن وزيادته.. إذ أن ذكره منكراً مرة، ومعرّفا أخرى يدل على أنه لم يكن آمنا قبل تعّرف إبراهيم عليه، وبعد تعرّفه عليه أيضا لذلك طلب إبراهيم من ربه أن يجعل مكة بلداً آمن يأمن أهله وساكنوه.

قوله ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ أى احمنى يارب وجنّبنى وأولادى عبادة الأصنام. والغرض تثبيته على ملّة التوحيد والإسلام كما قال ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾.

وذكر إبراهيم الأصنام دون غيرها من المعبودات إنما جاء حسب الواقع الذى كان قومه يعايشونه، خصوصا وأن أباه فى صغره كان يدفعه لبيعها فى الأسواق، إذ العقل يأبى أن يكون قصدها دون غيرها مما عُبد من دون الله زوراً وبهتانا.

ولقد استجاب الله دعاء إبراهيم هذا بقسميه لنفسه ولذريته، ولا ينبغى لمعترض أن يقول أن الله قد استجاب دعاءه الخاص به.. أما دعاؤه لذريته فلم يجبه إليه بدليل أن القرشيين عَبدوا الأصنام وهم من ذرية ولده إسماعيل، لأنه يمكن القول بأن إبراهيم قصد من ذريته بنيه من صُلْبه وهذا ما ذهب إليه الزمخشرى فى كشّافه، أو أنه أراد بذريته الذين كانوا معه أثناء الدعاء سواء كانوا أولاده أو أحفاده، أو أنه أراد المؤمنين من ذريته يؤيد ذلك قوله ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ لذلك قال مجاهد: لم يعبد أحد من ولد إبراهيم صنما.

ومع جواز التسليم بصحة اعتراض المعترض وهو أن الله لم يستجيب دعاء إبراهيم فى ذريته حيث كفر البعض «كالقرشيين الذين عبدوا الأصنام مثلا..»، فإن هذا لا يقدح فى عصمة الأنبياء أو غيره، بل إنه يمكن القول أن لدعوته هذه نظير، حين قال له الله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، فهو القائل ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ قال الله تعالى له ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

كما أننا لا نستطيع القول بأنه يمكن الاستدلال بهذا الدعاء على خلق الله تعالى لأفعال العباد كلها، الاختيارية والاضطرارية، وهذا ما ذهب إليه أهل السُّنة.

كما أن فى هذا الدعاء رد على مذهب الاعتزال، ولا ينبغى أن يُقبل قولهم بأن مثل هذا محمول على الألطاف لأنه عدول عن ظاهر اللفظ لا مبرر له.

أما قوله ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ فمحمول على المجاز لأنها جمادات لا تضل أحداً، ولكن لما كانت سببا فى ضلال الناس وانحرافهم عن الهداية والإيمان، صحّ إسناد الضلال إليها بسبب عبادتهم لها.

قوله ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾.. فهذا دعاء بالرمز أى من أطاعنى وتبعنى على التوحيد فإنه من أهل دينى ومن شيعتى وفى زمرة الموحِّدين المستجيبين لدعوتك، والمنفّذين لتعاليمك، وكون من اتبعه فى شريعته (منه) يجعله فى عداد الأبرار والصديقينُ الشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقا.. فهذا الأسلوب وإن أفاد الإخبار، والله به عليم، إلا أن القصد منه الدعاء بتبعيتهم له فى دار النعيم.

قوله ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

سار هذا الدعاء أيضا على الدرب الذى جرى عليه سابقه من الرمز والتعريض بدل الإيضاح والتصريح، لأن سوق إبراهيم الجملة الكريمة،المؤكد للغفران والرحمة يُشعر المرء بالمعنى الذى يقصده منها.. فكأنه قال: لا يغفر الذنب ويستره إلا أنت، ولا يرحم الخلق سواك، فالكل ملتمس منك المغفرة والرحمة.. فمن عصاك من عبادك فأنت وحدك أهل لغفران ذنبه، وإسدال الستر عليه، وشموله

برحمتك التى وسعت كل شىء فارحم يارب من عصانى، فأنت خير من يملك الصّفح والعفو.

يتجلى هنا بوضوح أدب الخليل مع ربه، حيث لم يقل: ومن عصاك مع العلم بأن معصية الرُّسل هى فى الحقيقة معصية لمن أرسلهم وهو الله تعالى، وكأنه تعاظم فى نفسه أن يجرؤ العباد على معصية الله فعبّر عن عدم اتباعهم له، واسترشادهم برسالته بالعصيان له.. تأدبا وتجملا فى التعبير.

قوله ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ كرر النداء رغبة فى الإجابة وإظهاراً للتذلل والالتجاء إلى الله تعالى، أى يا ربنا إنى أسكنت من أهلى ولدى إسماعيل وزوجى هاجر[1].. وهذا الدعاء بعد بناء البيت الحرام ليكون تأكيداً ورغبة إلى الله عز وجل ولهذا قال ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ فى البقعة الجرداء الخالية من الزرع والثمر، وهو وادى مكة التى شرّفها الله تعالى. فهذا الدعاء استعطاف يرفعه الخليل إبراهيم إلى ربه يخبره، وهو العليم بكل شىء أنه استودع ابنه إسماعيل وأمه هاجر بوادى مكة الخالى من الزرع والثمر والقريب من بيت الله الحرام راجيا منه تعالى أن يكلأهما برعايته، ويحفظهما بعنايته.

قوله ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أى يا ربنا لكى يعبدوك ويقيموا الصلاة أسكنتهم بهذا الوادى، أو يكون قصده الدعاء لهما بأن يوفّقهما الله تعالى للصلاة، أى يديمهما على إقامتها، أو لعله أراد من الله تعالى أن يلهم أحفاده ومن جاء بعدهم من ذريته، إقامة الصلاة منذ نعومة أظفارهم، فلا يتكاسلوا، أو يتراخوا فى أدائها.

قوله ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أى فاجعل قلوب الناس تحن وتسرع إليهم شوقا. قال ابن عباس: لو قال (أفئدة الناس) لازدحمت عليه فارس والروم والناس كلهم، ولكن قال (من الناس) فهم المسلمون[2].

---

(١) روى أن هاجر لما ولدت إسماعيل غارت منها (سارة) زوجة إبراهيم فأمره الله تعالى أن يحمل ولده إسماعيل ومعه أمه من الشام إلى مكة، فوضعهما عند دوحة مكان زمزم كما فى الحديث (صحيح البخارى، أنبياء: ٩ ٤ :١٧٢)، ومسند أحمد (١/ ٣٤٧، ٥/ ١٢١)..

(٢) القرطبى (٩/ ٣٧٣).

قوله ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ أى فاجعل لهم ثماراً يأكلونها، ليكون ذلك عونا لهم على طاعتك. وقد استجاب الله تعالى دعاءه ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾[القصص: ٥٧].

فمكة البلد الحرام ليس فيها شجرة مثمرة، ولكنها تُجبى إليها ثمرات كل شىء، رزقا من عند الله اللَّطيف الخبير.

قوله ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أى يا ربنا إنك العالم لما فى القلوب تعلم ما نسرّ وما نظهر ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ أى لا يغيب عليه تعالى شىء فى الكائنات سواء منها ما كان فى الأرض أو فى السماء، فكيف تخفى عليه وهو خالقها وموجدها؟!، فهو يثنى على الله تعالى بما هو أهله، ويعترف بأنه تعالى هو الذى يعلم عواقب الأحوال، ونهايات الأمور مستقبلا، وكأنه بهذا الثناء يقول أنت الأعلم بما تحفظ ابنَّى إسماعيل وإسحاق وذريتهما، وأنت الأعلم بما يعينهم على طاعتك وعبادتك، لأنه لا يخفى عليك شىء فى الأرض ولا فى السماء.

قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أى الحمد لله الذى رزقنى على كبر سنى وشيخوختى إسماعيل وإسحاق، قال ابن عباس: وُلد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين، ووُلد له إسحاق وهو ابن مائه واثنى عشرة سنة.

وقد افتتح الخليل عبارته بالثناء على الله بما هو أهله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي..﴾ ولم ترد فى القرآن الكريم كلمة أدلّ وأشمل وأعمق على شكر الله تعالى من كلمة (الحمدلله) حتى جعلها الشافعية ركنا من أركان الخطبة لا تصح الجمعة إلا بها.. أما الثناء فى آخر هذا الدعاء فقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، وكأن إبراهيم بهذا الثناء يقول إنك لسميع دعائى، عالم بمقصودى سواء صرّحت به أم لم أصرّح.

وإن كثرة الثناء فى هذا الدعاء التعريضى جعله فى أرقى درجات الدعاء بل هو قمتها وهامتها، لأن الاشتغال بالثناء على الله تعالى عند الحاجة إلى الدعاء أفضل من الدعاء لقوله ﷺ فى الحديث القدسى:

«من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أُعطى السائلين».

قوله ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ..﴾ فلعل قصد إبراهيم من هذه الجملة الكريمة أن تكون أدعيته سالفة الذكر مقبولة عند ربه، وموضع الرضا عنه، أو لعله قصد بلفظ الدعاء هنا (العبادة) فيكون التقدير(ربنا وتقبّل عبادتى)، وهذا رأى ابن عباس، قال «يريد عبادتى» بدليل قوله تعالى ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي﴾ الآية.. فكانت هذه الجملة الكريمة كالتأمين على أدعيته السابقة، وفاصلا بين التى خصّ بها ذريته فى حاضرها ومستقبلها، وبين أدعيته التى خصّ بها نفسه وأصوله.

وقوله ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ هذه هى الدعوة السابعة وبها ختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بالاستغفار له ولوالديه ولجميع المؤمنين، ويوم يقوم الناس لرب العالمين، قال المفسِّرون: استغفر لوالديه قبل أن يتبين أن أباه عدوّ لله. قال القشيرى: ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر عذره فى استغفاره لأبيه دون أمه[1].

أو لعل السبب فى استغفار إبراهيم لأبيه هو تحلّيه بالوصفين اللذين وصفه الله بهما، وهما ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾، والأواه هو الخاشع المتضرع، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال (الأواه هو الخاشع المتضرع)، ورُوى عن عمر أنه سأل رسول الله ﷺ عن الأواه فقال هو الدَّعاء، ويروى أن زينب تكلمت مع رسول الله ﷺ بما يغيّر لونه، فأنكر عمر، فقال ﷺ «لا دعها فإنها أواهه قيل» يارسول الله وما الأواهه؟

قال: «الداعية الخاشعة المتضرعة» وعن ابن عباس رضى الله عنهما: الأواه المؤمن بالخشية. وقيل السبب فى وصفه بالأواه أنه كلما ذكر لنفسه تقصيراً، أو ذُكر له شىء من شدائد الآخرة تأوه إشفاقا وخوفا منه.

واتصافة بهذين الوصفين ليظهر بمظهر الرسول الكامل الطائع المنفذ لأوامر ربه.. لكنه بالرغم من وصفه بهما فإنه لما تبين له أن أباه عدّو لله بإصراره على

---
(١) القرطبى (٩/ ٣٧٥).

الكفر، وعناده للحق تبرأ منه، وآثر الله تعالى على حبّه لأقرب الناس إليه وهو أبوه.

وقوله ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ جاء ليثبت أن إبراهيم خير قدوة يؤتسى بها حيث لم ينس الدعاء للمؤمنين بالمغفرة فدعا لنفسه أولا ثم لوالديه ثم لسائر المسلمين، وطلب المغفرة من الله فى اليوم الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ففى ذكره ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ توحيد لله وثناء عليه، واعتراف بحكمته وعدالته.

الفصل الثامن
إبراهيم والبيت المعمور (العتيق)

يقول الخليل عليه السلام على لسان الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة: ١٢٦-١٢٩].

اشتمل هذا النص القرآنى على تسع فقرات من الدعاء وهى وإن بدت متباينة إلا أنها قوية الاتصال ببعضها.. بدأها الخليل بطلب الأمان لمكة، دوحة الإيمان لأول بيت وُضع للناس فى الأرض للعبادة والأمن والإسلام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾.

طلب من ربه أن يجعل مكة آمنة من القحط والخسف والمسخ والقتل، لأن الأمن والطمأنينة يمكّنان الناس من الحب والمودة والتعاون، ويكونان سببا فى الإقبال على البيع والشراء، وسعة الرزق ورغد العيش، ودعاء إبراهيم بالأمن لمكة إنما يقصد به سكانها فالتعبير فيه مجاز بالحذف كما أن دعاءه تأكيد لا تأسيس.. وذلك إذا أخذنا بالرأى القائل بأن الأمن لمكة كان قديما منذ شرّفها الله بأول بيت وُضع للناس فى الأرض لعبادة الله الملك الديّان، وهذا هو الرأى الأرجح. وإن كان هناك من يقول بأن الأمن لمكة كان نتيجة دعاء إبراهيم عليه السلام وورود البلد خاليا من الألف واللام، ومُحلّى بها فى سورة إبراهيم يدفعنا إلى القول بأن التنكير ناسب الوقت والحال حيث لم تكن مكة بلداً معروفا، والتعريف ناسب الوقت والحال حيث أصبحت مكة بلداً معروف المعالم.

قوله ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أى وارزق يارب المؤمنين من أهله وسكانه من أنواع الثمرات ليُقبلوا على طاعتك ويتفرَّغوا لعبادتك، وخصّ بدعوته المؤمنين فقط قال تعالى جوابا له ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾ أى قال الله: وارزق من كفر أيضا كما أرزق المؤمن، أخلق خلقا ثم لا أرزقهم؟!

أما الكافر فأمتعه فى الدنيا متاعا قليلا وذلك مدة حياته فيها ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ أى ثم ألجئه فى الآخرة وأسوقه إلى عذاب النار فلا يجد عنها محيصا ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى وبئس المآل والمرجع للكافر أن يكون مأواه نار جهنم. قاس الخليل الرزق على الإمامة فنبَّهه تعالى على أن الرزق رحمة دنيوية شاملة للبّر والفاجر بخلاف الإمامة فإنها خاصة بالخواص من المؤمنين.. ثم قال تعالى حكاية عن قصة بناء البيت العتيق﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ أى واذكر يا مُحمدّ ذلك الأمر الغريب وهو رفع الرسولين العظيمين «إبراهيم وإسماعيل» قواعد البيت المعمور، وقيامهما بوضع أساسه ورفع بنائه، وهما يقولان بخضوع وإجلال ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أى يبنيان ويدعوان بهذه الدعوات الكريمة قائلين ياربنا تقبّل منا أى اقبل منا عملنا هذا، واجعله خالصا لوجهك الكريم، فإنك أنت السميع لدعائنا، العليم بنيَّاتنا. فما هو سر هذا البيت المعمور الذى بناه إبراهيم، ورفع قواعده هو وولده إسماعيل عليهما السلام.. فيما يلى من الأمور:

١- أنه أول بيت أُقيم على الأرض لعبادة الله خاصة، وفيه أسرار وتوجيه بوحى من عند الله تعالى، يأتى على يد الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام أسرار قبل أن يقيم قواعده إبراهيم وإسماعيل وأسرار بعد الإقامة، وتشييد حرمه عاليا، تُشدُّ إليه الرِّحال، ولم يفارقه أحد إلا ويروى أنه لم يقض منه وطراً، ولا يعدم القصّاد من الناس دائما على طول الزمن ومرّ الأيام وكرّ العصور.

فإليه الحنين ومعاودة الرجعى.

فقبل أن يرفع إبراهيم قواعده وإسماعيل، قيل بناه آدم ليكون مُتَعبد الله فى

الأرض، وقيل لما أُهبط آدم إلى الأرض قالت له الملائكة: طُفْ حول هذا البيت، فقد طفناه من قبلك[1].

وكان فى موضعه قبل آدم بيت يُقال له: الضراح، فرُفِع فى الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السماء.

فهذا شرف للبيت من قديم، وأنه أول بيت وُضع للناس فى الأرض لعبادة الله الملك الديّان.

٢- ثم بناه إبراهيم ورفع قواعده ونال شرفا ثانيا، فكان مباركا كثير الخير والنفع لمن حجَّهُ واعتمره، واعتكف فيه، وطاف حوله، وهُدى للعالمين لأنه قِبْلَتهم ومُتعبَّدهم.

٣- وفيه آيات بيّنات عجيبة، كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الأعصر، وأن كل جبار قصده بسوء قصمه الله كأصحاب الفيل وغيرهم.

٤- وفيه أيضا مقام إبراهيم، وأثر القدم فى الصخرة الصّماء، وغوصها فيها إلى الكعبين، وتخصيصها بالإلانة من بين الصخور، وإبقاؤه دون سائر آثار الأنبياء، وحفظه مع كثرة أعدائه آلاف السنين.

٥- ومن دخله كان آمنا، لا يقاتل، ولا يحارب، ولايمسّ، وإن كان معتديا، طيلة إقامته فيه.

وقد قال رسول الله ﷺ «من مات فى أحد الحرمين بُعِث يوم القيامة آمنا».

٦- ويحجه الناس عند الاستطاعة، فحجّه فريضة على المسلمين فى الحديث الشريف عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله حرّم بيت الله وأمنَّه، وإنى حرّمت المدينة بين لابتيها فلا يُصاد صيدها، ولا يُقطع عِضَاها»[2].

وقال أحمد بإسناده عن أنس وأبى ذر؛ قال أبو ذر: سألت النبى ﷺ عن أول مسجد وُضع على الأرض فقال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أى؟ قال «المسجد

(١) القرطبى - ابن كثير - الخازن - النسفى.
(٢) العضاه : شجر له شوك كالطلح وغيره.

الأقصى»، قلت: كم بينهما؟ قال «أربعون عاما»[1] ثم الأرض لك مسجد، فحيث أدركتك الصلاة فصلِّ.

هذا هو البيت المبارك، وأول بيت تُشدّ إليه الرِّحال، مصون من جبار السموات والأرضين، باق على عهده، تشيد العمارة صَرْحه على توالى السنين والأيام، فهو قبلة الإسلام، ومُتَهجّد المسلمين، وقبله أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام من قبل.

هذا هو البيت الذى بناه إبراهيم على اسم الله وحده، قائما على التوحيد والطُّهر، وجعله للطائفين والقائمين والرُّكع السجود، وأرشده الله إلى مكانه قال تعالى ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾[الحج: ٢٦].

فهذه البقعة من الأرض التى أُسست على التقوى من أول يوم، وقامت على التوحيد وبإرشاد الله، ووحى وإذن فى بنائه، كانت أول مسجد فى الأرض أُقيم خالصا للعبادة، فالطائفون به يأوون إليه وهم فى أخص العبادات، إذ الطواف لا يكون ببقعة من الأرض سواها. والقائمون فيه يدعون ربهم بكرة وعشيا وفى كل وقت فالطواف عنده، والصلاة إليه فى غالب الأحوال.

٧- وأمر إبراهيم كذلك أن يؤذن فى الناس بالحج إلى هذا البيت، فيأتوه رجالا وركبانا من كل فج عميق. قال ابن عباس: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قيل له: أذِّن فى الناس بالحج.

قال يا رب: وما يبلغ صوتى؟ قال : أذِّن وعلى الإبلاغ، فصعد إبراهيم عى جبل أبى قبيس وصاح: ياأيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة، ويجيركم من عذاب النار فحجوا، فأجابه من كان فى أصلاب الرجال، وأرحام النساء لبيك اللهم لبيك، فمنهم من لبَّى مرة، ومنهم من لبَّى مرتين وثلاث وأكثر، فحجُّوا على قدر ذلك، ومن لم يلبِّ لم يحج[2].

(١) مسند أحمد (٥/ ١٥٠، ١٥٦، ١٥٧) وصحيح مسلم (١/ ١٤٦ - ١٤٧) .
(٢) الرازى (٢٣ / ٢٧).

ودعاء إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، إذ رفعا قواعد البيت وأثناء البناء ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وقد تحقق كل ذلك، وبلغت الاستجابة من الله مداها. فكان إبراهيم وولده إسماعيل نبيين رسولين على ملّة الإسلام مخلصين منيبين لله، وكان من ذريتهما النبى الأمّى الكريم الذى بيّن قصتهما، وأخبر خبرها فى صدق لازيف فيه، وأمانة لاخفاء عندها.

وبيّن كذلك ملّة إبراهيم، وأنها الحنيفية السّمحاء التى يرغب فيها كل المسلمين من أتباع محمد ﷺ، ولا يرغب عنها إلا كل سفيه فى رأيه، ضعيف فى عقله، ناءٍ عن الصواب، بعيد عن الحق.

وكذلك اصطفاء الله لإبراهيم فى الدنيا، فهو طاهر مخلص منيب إلى الله، سليم القلب مستجاب الدعاء، صابر مثال على الصبر، مفوِّض أمره إلى الله تمام التفويض فى دنياه، ومن أجل ذلك جعله الله من الصالحين ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[البقرة: ١٣٠، ١٣١].

وحين قال له ربه إذ دعا فقال ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ قال تعالى ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فدعا وقال ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

وهذا تأدب فى الدعاء، وتأدب فى الرجاء، فلم يقل: وذريتنا، بل قال ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

فكانت أُمة الإسلام هى المسلمة التى استجابت لدعوة رسولها الأمين محمد صلوات الله وتسليمه عليه، وكان الإسلام الكامل المرتقب بناء على الدعوة الكريمة إذ حدّد فيها ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة: ١٢٩].

فمن نسل إبراهيم عليه السلام أنبياء كثيرون، ورسل كرام ولكنهم لم يخصُّوا بالدعوة، بل المخصوص بها نبى واحد مرتقب مُنتظر، وأنه من نسل إبراهيم وإسماعيل معا، ولم يكن ذلك إلا فى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

وقد جاء السراج المنير محمد ﷺ ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ أى يقرأ آيات القرآن ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أى يعلِّمهم القرآن العظيم والسُّنة والمطهِّرة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أى يطهِّرهم من رجس الشرك ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز الذى لايُقهر ولايُغلب، الحكيم الذى يفعل ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

وهكذا ختم الخليل دعاءه بالثناء على الله تعالى.

من أجل هذا كان إبراهيم عليه السلام هو صاحب القلب الكبير، والمنار الذى استرشد به أنبياء الله والمؤمنون فى كل عصر، وقد بيَّن القرآن الكريم منزلته وخصَّه بالتوحيد الخالص الذى من أجله كان أُمَّة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النحل: ١٢٠، ١٢١].

وقال الله تعالى فى إبراهيم ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[النحل: ١٢٢].

قال البيضاوى فى تفسير هذه الآية، بأن الله حببّه إلى الناس حتى أن أرباب الملل يتولونه ويثنون عليه، وقال تعالى مثنيا عليه فى كتابه الكريم ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾[النجم:٣٧] ولم يشهد القرآن لواحد من البشر بالوفاء التام، إلا لإبراهيم أبى الأنبياء ولرسولنا الكريم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤] وما الخلق إلا الدين القويم.

الفصل التاسع
دروس وعبر

١- الأمن أفضل من الصّحة، إذ به يتحقق الاستقرار ورغد العيش فى حياة الناس، لذا طلب الخليل من ربه الأمن لسكان الأراضى المقدّسة، وكذلك الشأن لباقى الأوطان. فالأمن خير ما يسعى إليه الإنسان ويطلبه فى حياته، شاهده ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾[البقرة: ١٢٦].

٢- طلب الخليل سعة الرزق لسكان الأراضى المقدسة وروادها وسائر المؤمنين، ولا كراهة فى ذلك، فإن الدنيا مطّية الآخرة، شاهده ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾[البقرة:١٢٥].

٣- طلب الوقاية والنجاة من كل ما يوهم ظاهره الإشراك بالله تعالى سواء كان عملا أو قولا، شاهده ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾[البقرة:٥ ٣].

٤- الإلحاح فى أن يتقبل الله الدعاء وكذا سائر الأعمال و الأقوال الصالحة، شاهده ﴿وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾[إبراهيم: ٤].

٥- الرغبة الملحّة فى الاستمرار على الإسلام عقيدة وسلوكا بغية حسن الخاتمة، إذ الخواتيم بمشيئة الله تعالى، شاهده ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[البقرة:١٢٨].

٦- الدعاء للذرية بدوام الإسلام والانقياد لله تعالى، شاهده ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة:١٢٤].

٧- الرغبة فى أن يرشدهم الله للطريق القويم المؤدى إليه، ويوفقهم لاتباعه، شاهده ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة:١٢٨].

٨- طلب التوبة والعفو والصفح من الله تعالى لما سلف من قول أو فعل، سهو أو خطأ، أو غير الأولى، شاهده ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[الشعراء:٨٢].

٩- جواز الدعاء بل استحبابه ببعث من يجدّد للمسلمين شباب دينهم في ظل دستور رب الأرض والسماء، القرآن الكريم، شاهده ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾[البقرة:١٢٩].

١٠- جواز طلب الإيمان الضرورى الحسّى بعد التحلّى بالإيمان النظرى الاستدلالى، شاهده ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾[البقرة: ٢٦٠].

١١- جواز طلب المغفرة للعصاه أيا كان نوعها تلويحا أو تصريحا، شاهده ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾[الشعراء:٨٦].

١٢- طلب التوفيق من الله للمحافظة على الصلاة للداعى ولمن يعول، شاهده ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾[إبراهيم:٣٧].

١٣- طلب المغفرة والرحمة للداعى أولا، ثم لأقرب الناس إليه وأخصّهم به ثم لسائر المسلمين، شاهده ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

١٤- الدعاء بطلب الصّلاح والتقوى والاستقامة والحكمة والسداد فى القول والعمل، شاهده ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[الشعراء:٨٣].

١٥- الدعاء بطلب الثناء والمدح من الله ليوفّق الداعى إلى ما فيه الذكر الحسن، والثناء الجميل ليكون ذلك امتداداً لعمر الداعى، شاهده ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾[الشعراء: ٨٤].

١٦- جواز طلب الإمامة والقيادة للداعى ولذريته خصوصا إذا كانوا أهلاً لها، وممن يستطيعون الإصلاح وقيادة الأمم.

١٧- طلب الانقياد للإسلام والتوفى عليه، وأن يجعل الله من أمة الداعى أمة مسلمة منقادة لأوامر الله تعالى، شاهده ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[البقرة:١٢٨].

١٨- الرغبة فى النجاة من الهلاك حتى لا يكون هلاك بعض المسلمين فتنة للأحياء منهم، وذريعة لتطاول الكفار عليهم، بأن يقولوا إن الله ما أهلكهم، وسلَّط عليهم أعدائهم إلا لأنه غضب عليهم ونحن خير منهم، شاهده ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[الممتحنة:٥].

١٩- عدم جواز الاستغفار للكفار والمشركين ولو كانوا أقرب الأقارب، أو أحبّ الأصدقاء.

٢٠ - جواز طلب الذرية الصالحة، شاهده ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[الصافات: ١٠٠].

٢١- استجابة أدعية الرسل فى أكثر الأحوال، والذى لم يُستجب منها قُصد به التوجيه والإرشاد والتزام العبودية.

٢٢- جواز اشتراك الصغير فى الدعاء حيث كان إسماعيل وقتئذ صغيرا، شاهده ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[البقرة:١٢٧].

٢٣- استحباب التأمين عقب الداعى مثل ما فعل إسماعيل مع أبيه، كما ورد فى كتب التفسير.

٢٤- تأكيد إدراج الثناء فى الدعاء وقبله وبعده تمهيداً وتذييلا، شاهده:

﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[البقرة:١٢٧].

﴿إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة:١٢٨].

﴿نَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة:١٢٩].

﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[إبراهيم: ٣٦].

﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[إبراهيم: ٣٩].

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[الممتحنة: ٤].

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾[إبراهيم:٣٨-٣٩].

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[الشعراء: ٧٨ ـ ٨٢].

الفصل العاشر
أدعية لوط عليه السلام

هو لوط بن هاران- أخي إبراهيم - بن تارح وهو آزر. آمن بإبراهيم واهتدى بهديه، كما قال تعالى ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾[العنكبوت:٢٦] وتبع عمه إبراهيم في رحلاته، فكان معه بمصر، وأغدق عليه ملك مصر كما أغدق على إبراهيم فكثر ماله ومواشيه ثم افترق عن إبراهيم، عن تراض لأن الأرض لم تتسع لمواشيهما، ونزل إلى سدوم في دائرة الأردن، وسدوم كانت من أرض «غورزغر» وكانت أم تلك المحلة ولها أرض ومستعملات وقرى مضافة إليها، وقد ذُكرت قصة لوط عليه السلام في كثير من سور القرآن الكريم. وكانت قرى لوط التي أرسله الله اليها خمسا؛ سدوم، عاموره، دومة، ساعورا، صفرة؛ وهي التي نجت لإيمانها، وكانت سدوم هي أعظم المدن وسكانها أربعة آلاف، ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم، وأسوأهم طوية وسلوكا، لا يستحون من منكر، ولا يتعفّفون عن معصية يأتونها على رؤوس الأشهاد كما قال تعالى ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾[العنكبوت:٢٩]وكانوا يقطعون الطرق للسلب، ولايتناهون عن منكر فعلوه، وقد ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وذلك أنهم كانوا يأتون الذكران من العالمين شهوةً من دون النساء، يستعلنون بذلك ولا يستترون ولا يرون في ذلك سوءاً أو قبحا، ويزرون ما خلق الله لهم من أزواج، وتمادوا في المعصية فجهروا بها، وشجّعوا الناس على إتيانها حتى كانوا يباشرونها في الطرقات، وبسبب ذلك عزف الناس عن السير فيها، فأرسل الله لوطا بالرسالة ألالهية لهدايتهم وتحذيرهم سوء أفعالهم.

وأن لوطا قد وعظهم ونصحهم ونهاهم وخوّفهم بأس الله تعالى، فلم يأبهوا له ولم يرتدعوا. فلما ألحّ عليهم بالعظات والإنذار هدّدوه تارة بالرجم وتارة بالإخراج من بينهم، وتوعّدوه بالنفي من بلدهم كما فعلوا بمن قبله من الرسل، عندئذ لجأ لوط إلى ربه بالدعاء مستنجداً ومستنصراً ومستعينا فكان أول دعاء له.

الدعاء الأول الصريح : ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾[الشعراء:١٦٩].

اتجه لوط إلى الله بهذا الدعاء، وأعلن بين يدى دعائه أنه لعمل قومه هذا الخبيث لمن الكارهين المبغضين غاية البغض فقال ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء:١٦٨] يخاطب قومه، ويعلن بهذه العبارة تبرئته منهم، وهذا كله تمهيد منه لطلب النجاة لنفسه وأهله من ربه ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أى نجنى من العذاب الذى يستحقونه بعملهم القبيح أنا وأهلى.

فلما رأى لوط أن العلاج قد استعصى، وأن الداء قد استفحل وأن جهده قد نفد دون جدوى، دعا بهذا الدعاء سالف الذكر، وصدّر طلبه بلفظ الرب استعطافا واستدراراً لنجدة الله، وطلب لوط النجاة لنفسه ليس بمستغرب بل من الفطرة الإنسانية، وقد أرشدت السُّنة المحمدية إلى ذلك، أن يبدأ الإنسان بنفسه فى الدعاء، ولم تكن الشرائع السماوية مخالفة لطبيعة البشر، فإن دعوة الرسل واحدة، وغايتها واحدة، ولأن منشأها الوحى السماوى.

ولقد كان القصد لدى لوط عليه السلام من طلب النجاة لنفسه هو رسالته، والحرص على بقائها أطول مدة ممكنة حتى تؤتى ثمارها المرجوّة منها.

كما طلب النجاة للمؤمنين به وبرسالته، حتى لا تكون الغلبة عليهم من قبل مواطنيهم الكفرة سببا فى الفتنة وانتشارها، وحتى لايشاع بأن لوطا والمؤمنين به لو كانوا على الحق ما انتصر عليهم هؤلاء الكفرة ؟!.. لأجل هذا وتفاديا مما يعكّر الصفو على المؤمنين بلوط، ودعا ربّه أن ينجيه، لافراراً ولا هربا، أو بأسا أو عجزاً، فليس هذا من شأن رسل الله، ولا من دينهم.. وإنما استبقاء للهالات، واستمراراً للفضيلة التى ينشد الرسل انتشارها، توجه لوط للمرة الثانية إلى ربه بالدعاء قائلا:

﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾[العنكبوت:٣٠].

وقد توجه لوط إلى الله بهذا الدعاء بعد أن كرر نصّحه للقوم، وذكرهم وحذّرهم من عقاب الله على ما يأتونه من الفواحش، ولكن القوم تمرّدوا واستكبروا، وقالوا للوط: إن كنت صادقا فيما تهددنا به من العذاب، فعجّل

وائتنا به. قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨، ٢٩].

قال الإمام الفخر: فإن قيل إن الله تعالى قال هاهنا ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا﴾ وقال فى موضع آخر ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ فكيف وجه الجمع بينهما؟ فنقول: إن لوطا كان ثابتا على الإرشاد، ومكرراً عليهم النهى والوعيد، فقالوا أولا: أئتنا بعذاب الله، ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾. ثم إن لوط لما يئس منهم، طلب النصرة من الله ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى قال لوط: رب أهلكهم فى الغى والفساد. قال الرازى: واعلم أن نبيا من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم، كما قال نوح ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ فكذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون فى الحال ولا يرجى منهم صلاح فى المآل طلب لهم العذاب[1].

(١) التفسير الكبير: (٢٥/٥٩).

لوط وأضيافه من الملائكة ودعائه الضمنى أو الرمزى

ترك الملائكة إبراهيم بعد أن بشّروه بإسحاق(١)، وتوجهوا إلى قرية سدوم، وحلُّوا ضيوفا على لوط، وكان لا يعلم أنهم ملائكة فتضايق أشد الضيق، وذلك لأنهم حِسَان الوجوه، وخاف عليهم من اعتداء قومه، وواجب الضيافة يحتِّم عليه أن يحميهم من كل أذى ويرد عنهم كل مكروه، ومرَّت على خاطره الأخطار التى ستصادفه من جراء استضافتهم له، فقال فى نفسه ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[هود:٧٧].

وقد كان أمر الله للملائكة ألا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك، ولكنهم قالوا للوط (إنا ضيوفك هذه الليلة). فلما دخلوا ذهبت عجوز السوء، امرأته، فصعدت فلوّحت بثوبها، فأتاها الفسّاق يهرعون سراعا، قالوا: ماعندك؟ قالت: ضيف لوط، قوما، مارأيت قط أحسن وجوها منهم، ولا أطيب ريحا، فهرعوا يسارعون إلى فتح الباب، فعالجهم لوط فى ذلك قائلا ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ﴾[الحجر:٦٨]، ودافعهم طويلا وهو داخل الباب، وهم خارجه وأوصد

(١) قال القرطبى: لما أنزلت الملائكة لعذاب قوم لوط مُّروا بإبراهيم فظنهم أضيافا، وهم جبريل وميكائيل واسرافيل، قاله ابن عباس، وقال السدى: كانوا أحد عشر ملكا على صورة الغلمان الحسان الوجوه، وكان ابراهيم يحب قرى الأضياف فشفع لهم طعاما وعمد إلى عجل سمين فذبحه وسوّاه فى النار وجاء به حنيذاً قد أثرت فيه النار وجعلت لونه والحمرْة، ومرّ به إليهم، فلم تمتد إلى طعامه أيديهم، فارتاب فى شأنهم وأوجس منهم خيفة، فخاطبهم فى هذا الشأن فعلم أنهم ملائكة أرسلهم الله للانتقام من أهل سدوم وعامورية، وهم المعبر عنهم فى القرآن بقوم لوط. ضحكت سارة امرأة إبراهيم لما عرفت حقيقة هؤلاء الضيوف الذين مالبثوا أن بشّروها بأن الله سيهبها ولد أسمه اسحق وأن اسحق سيرزق ابن هو يعقوب. تعجبت سارة من هذه البشرى وقالت لهم: أألد وقد أصبحت عجوزاً؟ وهذا زوجى إبراهيم قد أصبح شيخا، قال مجاهد كانت ابنه تسع وتسعين سنه وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة، فأجابتها الملائكة: أتعجبن من هذه البشرى؟ إنها قدرة الله التى لايعجزها شىء اختصكم بها برحمته وبركاته عليكم آل إبراهيم إنه حميد مجيد، فلما اطمأن إبراهيم إلى حقيقة هؤلاء الضيوف مصحوبة بالبشرى بابنه اسحق وحفيده يعقوب، أخذ يجادل ربه فى شأن قوم لوط رجاء أن ينظر الله إليهم نظرة رحمة، وذلك شأن الأنبياء والمرسلين تأخذهم الشفقة على بنى البشر قال المفسِّرون: لما قالت الملائكة «إنا مهلكوا أهل هذه القرية» قال لهم: أرأيتم إن كان فيها خمسون من المؤمنين أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا لا، فمازال يتنزل معهم حتى قال لهم: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مؤمن أتهلكونهم؟ قالوا لا، فقال لهم «إن فيها لوطا، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين» (وانظر القرطبى ٩/ ٦٢، البيضاوى ٢٥٣، الطبرى ١٢/ ٨٠).

الباب دونهم، وناشدهم قائلا ﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾[هود:٧٨] وقد خطبوهم من قبل ولم يرض بذلك، وها هو الآن يعرضهن عليهم للزواج على شريعة الله، فتمادوا فى غيهم وعزموا على فسادهم، فقال لهم: أليس فيكم رجل عاقل يمنع عن القبيح! ويرشدكم إلى الخير، ويجنّبكم سوء العاقبة ومغبّة عملكم؟!، فردوا عليه رد العتاه المجرمين ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[هود:٧٩] أى وأنت تعلم غرضنا وهو إتيان الذكور، صرّحوا له بغرضهم الخبيث قبّحهم الله.

فلما استبان منهم عين الغدر، وظهر له عدم ارعوائهم عن هدفهم وضلالهم، وأعلن ضعفه أمام الله، وأنه لايستطيع مقاومة هؤلاء العتاه المجرمين، ونادى ربه (بدعائه الضمنى) قائلا: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود: ٨٠].

وفى الحديث الشريف، قال رسول الله ﷺ «رحم الله أخى لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد»[١] يريد ﷺ أن الله كان ناصره ومؤيده، فهو ركنه الشديد وسنده القوى، قال قتادة: وذكر لنا أن الله تعالى لم يبعث نبيا بعد لوط إلا فى منعه من عشيرته[٢].

وكأن لوط عليه السلام يطلب من ربه القوة ضمنا حتى يستطيع دفع القوم عن أضيافه وإبعادهم عن السوء والفحشاء، ولكنه لم يصرّح به تأدبا مع الله فى الطلب.

فهو يقول: لو كان لى عشيرة وأنصار (قوة) أستطيع أن أدفع أذاكم بها، وجواب «لو» محذوف تقديره لبطشت بكم، لهذا فإنى سآوى إلى ركن شديد وحصن حصين، وهو أنت يارب ذو البطش والجبروت فسأسلم لك الأمر لضعف قوتى وقلة حيلتى، عندئذ أغاثه الملائكة الأطهار رسل العذاب، وطمأنوه ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾[هود:٨١] فلما علم أنهم ملائكة العذاب. مكن قومه من الدخول لينالهم مانالهم من جزاء، فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم وعموا، وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النجاء النجاء.

---

(١) أخرجه الشيخان عن أبى هريرة مرفوعا.
(٢) روح المعانى (١٢ / ١٠٨)

لن يصلوا إليك بمكروه ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[هود: ٨١] . .

فمضى لوط ومن معه إلى سبيلهم قبل الفجر، وهم فى أثناء سيرهم سمعوا ما سمعوا، فلم يلتفت أحد منهم إلا امرأته، فقد غلبتها طبيعتها، وحنّت إلى قومها، وأشفقت عليهم، فلم تدرأ عن نفسها العذاب حين سقط عليها حجر من السماء كان معّداً لها، فهلكت مع قومها، وكانت من الغابرين.

وضرب الله بها المثل فى الكفر، هى وامرأة نوح، لأنهما خانتا زوجيهما، رسولا رب العالمين عليهما السلام، ولم يطيعاهما.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[التحريم: ١٠].

وحين صار لوط ومن معه، وبعدوا عن القرية حتى نجوا، ووصلوا إلى إبراهيم عليه السلام، وحان وقت عذابهم، قال الله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ[1] (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[هود: ٨٢، ٨٣].

ولما أقبل الصباح أصابهم العذاب، فهل كان هذا الرِّجز حجارة من سجِّيل منضود مُسوّمة، أم هى خسف أم هى نار، أم تجمَّعت كلها فى عذابهم. .

ولعل الصيحة أخذتهم أولا، ثم أمر الله جبريل فاقتلع حدائق قوم لوط - وهى خمس - من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها، حتى سمع أهل السماء صياح الديكة، ونباح الكلاب، ثم أرسلها مقلوبة، ثم أمطرهم بوابل من الحجارة أتبعت شاردهم ومسافرهم. . ثم كانت ديارهم عظة للرحالة والمسافرين.

---

(١) وامطرنا عليهم حجارة من سجيل: حجارة صلبة - من نار - وطين، شبهها بالمطر لكثرتها وشدتها.
منضود : أى متتابعة بعضها إثر بعض، مُسوّمه: معلّمه من السماء مكتوب على كل حجر اسم من رمى به فلم تخطئهم وقوله «عند ربك» دل على أنها ليست من حجارة الأرض (القرطبى : ٩/ ٨٣).

يقول الله تعالى فى شأن عذابهم ونهاية أمرهم، ومآلهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[الحجر: ٧٣-٧٥].

قال المفسِّرون: وقد صار موضع تلك المدن بحراً أُجاجا يُعرف بالبحر الميت، لأن مياهه لاتغذى شيئا من الحيوان، وقد اشتهر باسم «بحيرة لوط» والأرض التى تليها قاحلة لا تنبت شيئا.

ويرى بعض العلماء أن البحر الميت لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث، وإنما حدث من الزلزال الذى جعل عالى البلاد سافلها وصارت أخفض من سطح البحر بنحو اربعمائة متر، وقد جاءت الأخبار فى السنين الماضية عن اكتشاف آثار مدن لوط على حافة البحر الميت[١].

(١) قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار: ص ١١٣. ط الحلبى. القاهرة.

الفصل الحادى عشر
دروس وعبر

١- التحذير من اللّواط وعواقبه. فى قصة لوط استهجان لجريمة اللواط، ووعيد من الله بالعذاب الشديد لمرتكبها فى الدنيا والآخرة، ولعل هذا النوع من العذاب الذى ورد فى شأنهم لم يرد فى التاريخ أن جعله الله تعالى لأمه من الأمم سواء كانت قبلهم أو بعدهم لأنهم أتوا من الفاحشة مالم يسبق إليها أحد من العالمين، ولأن هذه الفاحشة فيها من العيوب والمضار والمفاسد التى لم تكن لتتوفر فى معصية من المعاصى، وأهم ما فى هذه الفاحشة أنها من أهم الأسباب فى انقطاع النسل.

واللواط من أقبح وأشنع الفواحش، فهو يدل على فساد ومرض فى المزاج الإنسانى، وخطر جسيم على المجتمع الإنسانى، وعواقبه وخيمه، فإلى جانب الأضرار الاجتماعية كفساد المجتمع، وتفشّى الرذيلة، وسريان الانحلال بين الناس، هناك الأضرار الطبية المحققة، لنقل الأمراض التناسلية مثل الزهرى والسيلان بمالهما من مضاعفات خطيرة، وهناك أيضا الورم الليفى التناسلى (Lynphogranul Oma Venerium) الذى ينتشر بصورة كبيرة بين اللّواطين، ويظهر هذا المرض على صورة قرح تنتشر فى الأعضاء التناسلية لاسيّما القضيب وفتحة الشرج، وقد تمتلئ هذه الغدد بالصديد فتتكون فيها خراريج صغيرة سرعان ما تنفجر فتتكون جيوب (Sinuses) ويصحب ذلك عادة ارتفاع فى درجة الحرارة، وغثيان وآلام بالمفاصل وصداع شديد، فإذا تفاقم المرض حدث تورّم كبير فى الأعضاء التناسلية الخارجية لكل من الذكر والأنثى، ويحدث هذا التورّم عادة نتيجة انسداد فى الأوعية الليمفاوية بسبب الالتهاب المزمن الذى أصابها. وفى اللواطين - خاصة السلبى منهم - يصاب الشرج غالبا، فيحدث به التهاب شديد يؤدى إلى إفرازات صديدية، وقرح كثيرة وفى النهاية

يحدث ضيق شديد فى فتحة الشرج ينتج عنه زيادة فى الإفرازات الصديدية مع نزيف دموى من الشرج، مما يسبب انسداداً كاملا فى فتحة الشرج وقد يصاب المريض نتيجة هذا بأورام سرطانية خبيثة فى الأعضاء التناسلية لاسيما سرطان المستقيم(١).

وقد أثبتت الدراسات أيضا أن هناك علاقة وطيدة بين اللواط والإصابة بمرض الالتهاب الكبدى الوبائى، فقد ثبت أن نسبة الإصابة بالفيروس «ب» فى اللواطين تزيد عنها فى الآخرين (عن طريق الحقن ونقل الدم) بمقدار خمسة وعشرين مرة(٢). كما أن التعرّض المتكرر للسائل المنوى عن طريق اللواط لدى هؤلاء الأشخاص المعروفين بإباحيتهم وتعدد أقرانهم يؤدى إلى إضعاف المناعة، والإصابة بمرض الإيدز (AIDS)، ويصل الفيروس المسبب للمرض عن طريق تمزق بطانة المستقيم (Rectal Mucosa) حيث يتعرض هؤلاء الأشخاص لزيادة العبء المناعى (Immune overload theory) نتيجة لإصابتهم بالأمراض السرية المسببة للعوامل المعدية للمرض ومنها الزهرى والسيلان وغيرها من الأمراض، إذ تؤدى إلى تنبيه وتنشيط الجهاز المناعى بشكل مستمر، وينتهى المطاف إلى إرهاقه ونفاد طاقته ومن ثم استسلامه لمرض الأيدز ولهذا فقد اعتبره البعض فى الغرب عقوبة إلهية حلت عليهم نتيجة لإباحيتهم، وخروجهم عن المألوف، وارتكابهم ما حرّم الله، فهم أشبه بقوم لوط، ومن تشبه بقوم فهو منهم، وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض الوجوه، كما قال بعضهم.

فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم   فما قوم لوط منكم ببعيد

ويحذر القرآن جميع الشعوب من اقتراف هذه الرذيلة والسكوت عنها حتى لايصيبهم مثل ما أصاب قوم لوط، فالقرآن عندما ذكر قوم لوط وما حلّ بهم من العذاب عقّب على ذلك بقوله «وماهى من الظالمين ببعيد» أى أن العذاب ليس بعيداً عمن يعمل عمل قوم لوط، بل العقاب الإلهى سيحل بمن يعمل عملهم.

---

(1) King, A (1975).

(2) Wilcox, T (1982).

هذا التحذير الإلهى مداه على مرّ العصور، لتحذر الأمم والأفراد عاقبة الفساد، فهؤلاء قد ضلوا عن سواء السبيل وأرادوا تغيير أوضاع الطبيعة التى هيأها الله لعباده، وفرضوا أنفسهم بأنفسهم فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وليس ذلك عن أمثالهم ببعيد وتلك سنّة الله فى خلقه ولن تجد لسُّنة الله تبديلا.

فالعاقل اللبيب الفاهم الخائف من ربه، يمتثل ما أمره الله به عز وجل، ويقبل ما أرشده إليه رسول الله ﷺ من إتيان ما خلق الله له من الزوجات الحلال، وإياه أن يتبع كل شيطان مريد، فيحق عليه الوعيد، ويدخل فى قوله تعالى ﴿**وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾.

عقوبة اللواط فى الإسلام: ومما يُسجل فى هذا المقام أن الإسلام شدّد العقوبة لمن يفعل اللواط، فقد ذهب بعض العلماء إلى أن اللائط يُرجم سواء أكان محصنا أم لا، نصَّ على ذلك الشافعى وأحمد بن حنبل، وطائفة كبيرة من الأئمة، واستدلوا بما رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» وذهب الإمام أبو حنيفه إلى أن اللائط يُلقى من شاهق جبل ويُتبع بالحجارة كما فُعِل بقوم لوط لقوله تعالى ﴿**وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾.

٢- الدفاع عن الضيف: والحفاظ عليه، والتصدى لمن يحاول الاعتداء عليه أمر واجب مشروع، فنبى الله لوط تبرز فى شخصيته فضيلة إكرام الضيف والذود عنه والتضحية بأثمن ما يمكن فى سبيله، فقد أراد قومه السوء بضيفه، فقام يذبُّ عنهم ويدافع أهل بلده دونهم، وعرض أن يزوِّجهم بناته مضحيا بفلذات أكباده، كراهة أن يخزوه فى ضيفه، قال أبو السعود فى تفسيره لهذه الآيات من سورة هود: «فإنه إذا أخزى ضيف الرجل فقد خزى الرجل، وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة، وظلم الجار إذلال المجير» وفى هذا درس لنا فى إكرام الضيف والذود عنه. وقد شدّد الرسول ﷺ على إكرام الضيف فقال «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

٣- طلب النجاة عند تعذّر الإصلاح.

٤- طلب النصرة على الأعداء.

٥- اللجوء إلى الله عند الاستشعار بالضعف.

٦- الذى يرضى بالفساد ويسكت عنه كفاعله إثما وعقابا.

٧- ان الله يُمهِل ولا يهمل.

٨- إن لله ملائكة غلاظا شدادا لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

٩- أهل الإنسان هم أهل عقيدته وإن لم تربطهم به وشائج النسب والقربى.

١٠- طلب النجاة عند نزول العذاب بالفسقة والكفار.

١١- طلب النصر على الأعداء خصوصا إذا أظهروا السخرية والاستهزاء.

١٢- الدعوة إلى الله بالرِّفق واللِّين وحُسن الفعل والقول والعرض.

١٣- مناقشة الخصم بالتى هى أحسن وبذل الأدلة والحجج القاطعة للإقناع.

١٤- تدل قصة لوط على أنه كان عظيم الإيمان مطمئن القلب به، حتى أنه لم يحتج من عمله إلى معالجة، وأنه فى سبيل الإيمان بالله تعالى قد رضى بأن يهاجر من وطنه، ويبتعد عن قومه مع علمه بأن الجلاء سُبّه، والنقْلة مُثْله، قال الله تعالى فيه: ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾[العنكبوت:٢٦].





١- أدعية يعقوب عليه السلام فى القرآن الكريم.

٢- أدعية يوسف عليه السلام فى القرآن الكريم.

٣- دروس وعبر.

الفصل الأول
أدعية يعقوب عليه السلام فى القرآن الكريم

هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام (من زوجته رفقه) بنت عمه يتوئيل بن ناحوز، وبعد عشرين سنة من زواجه، رُزق اسحق بولدين توأمين أولهما (عيسو)، وهو الذى تسميه العرب (العيص). والثانى خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسموه (يعقوب) ويُطلق عليه أيضا اسم إسرائيل[1].

كان إسحق يحب (العيص) أكثر من يعقوب لأنه بكر ابيه الذى يستحق كل ما يستحقه هذا السبق فى الميراث وغيره.. وكانت طبيعة الأخوين مختلفه، فعيسو شبّ صياداً ذا قدرة على الجلاد والعمل، أما يعقوب فكان وديعاً هادئا، لهذا توزع هوى الأبوين بينهما، وكانت أمهما تحب يعقوب أكثر لوداعته وهدوئه، وحدث أن اشتهى إسحق طعاما، وطلب من عيسو أن يأتيه به، فأتى له به يعقوب بالاتفاق مع أمه قبل عيسو، فأكل إسحق ودعا له، وعرف ذلك عيسو فغضب على أخيه وتوعّده، فلما علمت بذلك أمهما أشارت على يعقوب أن يذهب إلى خاله لابان ابن بتوئيل فى «فدام آرام» بأرض العراق إلى أن يهدأ غضب أخيه، ونصحه أبويه بأن يتزوج إحدى بنات خاله، وأوصاه أبوه إسحق ودعا له.

أقام يعقوب عند خاله يخدمه نظير تزويجه بابنته (راحيل)، ولكن خاله زفّ إليه ابنته الكبرى (ليثه) التى لايريدها، فلما أصبح كلمّه فى ذلك فقال: ليس من سنتنا أن نزوّج الصغرى قبل الكبرى، ولكن آخذ منك عشر سنين أخرى ففعل، وتزوجها[2] وكان ذلك سائغا فى ملّتهم، وتزوج أيضا من جاريتهما: زلفا وبلها، ومنهن كان أولاده، اثنى عشر ولدا، وهم المعروفون بالأسباط.

---

(١) إسرائيل : مركب من كلمتين (ايل) بمعنى الله، وقيل فى (اسرا) عدة معانى، بمعنى عبد، أوصفوة أو إنسان أو مهاجر فيكون معناه، عبد الله، أو صفوة الله، أو محارب أو جندى الله وقيل معناه الأمير المجاهد مع الله.

(٢) وقيل ماتت زوجته ليثه، فتزوج اختها راحيل وذلك أوفق وكانت ليعقوب ابنة يقال لها رحمة، وقيل دينا وهى زوجة أيوب.

فمن زوجته ليئه كان رأوبين، شمعون، لاوى، يهوذا، بساكر، وزبولون.

ومن زوجته راحيل: يوسف وبنيامين (ومعناه ابن الوجعة لأنها ماتت فى نفاسها).

ومن زوجته بلها : دان ونفتالى.

ومن زوجته زلفا : جاد وأشير.

وقد ولد أولاده جميعا فى آرام إلا «بنيامين» فإنه ولد فى أرض كنعان بالشام بعد عودته إلى وطنه.

وبعد مضى عشرين سنة على إقامة يعقوب عند خاله (لابان) طلب منه أن يعود إلى أهله فأذن له، فلما اقترب يعقوب من أرض كنعان (فلسطين) علم أن أخاه (عيسو) قد استعد لملاقاته بأربعمائة رجل فتخوّف يعقوب ودعا له، وأعد لأخيه هدية عظيمة أرسلها مع رجاله، فلان قلب عيسو عند رؤية ما أتاه به أخوه من هدايا فترك المكان لأخيه وذهب إلى جبال سعير، أما يعقوب فقد جاء إلى أبيه إسحق فأقام عنده ببلدة حيرون (الخليل)، وعاش إسحق (١٨٠ سنة) ثم مات ودُفن بالمغارة التى دُفن فيها أبوه إبراهيم عليه السلام ببلدة الخليل.

وعاش يعقوب حتى رأى ابنه «يوسف» وقد مكَّن الله له فى أرض مصر، فوفد عليه فيها، وأقام بها عزيزاً مكرَّما حوالى سبع عشرة سنة، وبارك ابنى يوسف «افرايم ومنسيى» ودعا لهما، وجعلهما صاحبى نصيبين كأعمامهما فى أرض كنعان التى يعيش فيها بنو إسرائيل. ومات يعقوب بعد ما أوصى أن يُدفن عند أبيه إسحق وجده إبراهيم، فأمر يوسف الأطباء بتحنيطه وحمل جثمانه إلى فلسطين تنفيذاً للوصية[1].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١/ ١٩٥).

الدعاء الأول

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[يوسف:٦].

أوتى يعقوب الحكمة وعلمّه الله تفسير الرؤى، وقد عبر لابنه يوسف عن رؤياه تعبيراً طابق الواقع بعد ذلك، ويقص علينا القرآن الكريم أن يوسف رأى فى منامه أحد عشر كوكبا والشمس والقمر قد سجدوا له خاضعين، فلما أصبح قصّ على أبيه عجيب ما رأى، فأدرك يعقوب من هذه الرؤيا أن ابنه سيكون له شأن عند الله والناس، لكنه خشى عليه من حسد إخوته، فأوصاه أن لا يقصص على إخوته رؤياه لئلا يغريهم الشيطان بتدبير المؤامرات للإيقاع به، ثم بيّن له بأنه سيكون فى مستقبل أيامه سيداً مطاعا، وأن الله سيصطفيه بالنبوّة، ويعلمّه تفسير الرؤى، وسيتم نعمته عليه بالخير والرحمة والبركات وعلى آل يعقوب كما أتمها على إبراهيم وإسحق من قبل، إن الله عليم بمن هو أهل للفضل، حكيم فى تدبيره لخلقه.

ونبوة يعقوب، ونبوة ولده يوسف عليهما السلام مندمجتان تكمل الواحدة منهما الأخرى، ولله فى ذلك حِكَم وله فى خلقه شئون، فيوسف الصديق هو رائى الرؤيا وبطلها والقائم بعد بما تضمنته، وكان هو الجدير بما جرى حولها وما تم منها، وأبوه يعقوب هو الذى فسّر وعبّر وذلك كله بما جرى من أسرار الآيات والدعوات التى أودعها الله فى القرآن الكريم.

الدعاء الثانى

قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:١٨].

رأى ابناء يعقوب من إيثار أبيهم ليوسف وحدبه عليه مالم يكن منه لواحد منهم فغاظهم ذلك وهم فى سن الشباب وطيش الحداثة فأضمروا له الشر، فقالوا لأبيهم﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وكأن يعقوب قد أحس الشر الذى يضمره بنوه لأخيهم ولم يشأ أن يعلمهم بتخوفه جانبهم فقال ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾ ثم ترقى فى تعليل ضنّه به قائلا ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ والله يعلم أنه يتخوف عدوانهم على ولده يوسف أكثر مما يتخوف من عدوان الذئب .لم يعى أبناء يعقوب بجواب، بل أجابوه جوابا لا يبقى له علّة يتشبث بها فقالوا ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾، وما زالوا يراودون عنه أباهم حتى استجاب لهم وسرّحه معهم، وكانوا قد أبعدوا، فلما جاء وعليه قميص مخطط - قد حباه به والده - قالوا: قد جاء صاحب الأحلام لابس البجاد المخطط، ثم أتتمروا به ما يصنعون؟ ثم انتهوا إلى أن يلقوه فى الجبّ بعد أن يعرّوه من قميصه ولايسفكوا دمه، وأن يخبروا أباهم بأن ذئبا افترسه، وفعلوا فعلتهم فحملوه إلى الجب وأوثقوا يديه ونزعوا قميصه فقال لهم يا اخوتاه: ردُّوا عَلَيّ قميصى أتوارى به فى الجبّ، فلما ألقوه جعل يبكى، وانقلبوا هم إلى الدار بعد فعلتهم.

ولكن الله كان معه يؤنسه ويزيل وحشته، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أى أوحينا إلى يوسف لتخبرن إخوتك بفعلهم هذا الذى فعلوه بك وهم لايشعرون فى ذلك الوقت أنك يوسف. قال الرازى: وفائدة هذا الوحى؛ تأنيسه، وتسكين نفسه، وإزالة الغم والوحشة عن قلبه، بأنه سيحصل له الخلاص من هذه المحنة[1] وقيل إن يعقوب لما بعثه مع إخوته، أخرج له قميص جده إبراهيم عليه السلام، الذى كساه الله إياه من الجنة حين أُلقى فى النار، فجعله يعقوب فى قصة من فضة وجعلها فى عنق يوسف، فألبسه الملك إياه حين أُلقى فى الجب، فأضاء له ذلك الجب.

ودخل عليه جبريل فأنس به، فلما أمسى نهض جبريل ليذهب، فقال له: إنك إذا خرجت استوحشت، فقال له: إذا رهبت شيئا فقل: «ياصريخ

(١) الفخر الرازى (١٨/ ١٠٠).

المستصرخين، وياغوث المستغيثين، ويا مفرّج كرب المحزونين، قد ترى مكانى وتعلم حالى ولا يخفى عليك شىء من أمرى، فاجعل لى مما أنا فيه فرجا ومخرجا» فلما قالها حفَّته الملائكة واستأنس فى الجبّ.

عاد الاخوة، بعد تنفيذ مؤامرتهم، على دار أبيهم ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أى فى النضال بالسهام ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾. ولما كان المريب يشعر من نفسه بالتهمة، ويتخيل أن كل واحد قد أطّلع على خبيئة أمره قالوا لوالدهم ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ فلم يخفَ عليه شأنهم، فأخذ القميص، ولما لم يجد به تمزيقا ولا قطعا قال لهم متهكما: ما أحلم هذا الذئب افترس ولدى ولم يمزّق عليه قميصه؟! ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أى زيّنت لكم أنفسكم أمراً فى يوسف وليس كما زعمتم أن الذئب أكله ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ..﴾ لهذا كله لم يجد يعقوب بدأ من الالتجاء إلى الله طالبا منه الصبر الجميل الذى لم يحط به إلا من استعان بالله، لأن الحرب مستمرة بين الدواعى النفسية الداعية لإظهار الجزع والتبّرم واليأس، وبين الدواعى الروحية الداعية إلى الصبر والرضا.

فما لم تحصل للعبد من الله إعانةٌ على التحلى بالصبر الجميل، لم تحصل له الغلبة على مشقات الحياة وكدرها.. لهذا جمل بمقتضى ذلك أن تختم هذه الآية بما خُتمت به وهو قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أى وهو سبحانه عونى على تحمّل ما تصفون من الكذب، ولايستطيع الإنسان تحمّل مثل هذا الاختلال والتمويه إلا بعون الله وتجميله بالصبر الجميل.

الدعاء الثالث

قوله تعالى على لسان يعقوب ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

ومضت السنون السبع المخصبة وأعدّ يوسف - أو «صفنات فعنيح»[1] كما

(١) صفنات فعنيح. لقب أطلقه المصريون على يوسف يتركب من كلمتين معناهما «طعام الحياة» أو «قوت الأحياء» وفسّرهما آخر بمعنى (مخلّص العالم) والمعنى على التفسيرين أن يوسف كان علّة قوت الأحياء أو طعامهم وإنقاذهم من الموت بما فعله من خزن الحنطة إلى زمن القحط.

أحبّ المصريون أن يُلقبّوه ـ عدته فيها وخزّن الفائض من الغلات، وأتى بعدها السبع المُجدبة، وعمّ الناس القحط، وقصد مصر من البلاد من قصد، وكان من جملتهم إخوة يوسف أتوا إلى مصر بإذن من أبيهم يعقوب، فأخذوا معهم بضاعتهم يعتاضون بها طعاما، وركبوا فى جملتهم إلا أخاهم «بنيامين» فإن أباه استبقاه معه، ليكون له أنيسا وظهيراً حتى يرجعوا إليه محمّلين بالطعام.

فلما قدموا إلى مصر، رآهم يوسف فعرفهم ولم يعرفوه، وذلك طبيعى لأنه فارقهم أمرد غض الإهاب، وقد ناهز اليوم الأربعين من عمره، وقد كسته أبهة الملك مهابة تغضّ عنه عين الناظرين إليه، وأمّا هُم فعلى حالهم فى ملبسهم ولغتهم ومنظرهم.

فلما دخلوا عليه استدرجهم، قال: ما أقدمكم بلادى؟ قالوا: جئنا للميرة، قال: لعلكم عيون «جواسيس» علينا؟ قالوا: معاذ الله، قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان (فلسطين) وأبونا يعقوب نبى الله، قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: كنا اثنى عشر فذهب أصغرنا وهلك فى البرية. وكان أحبنا إليه، وبقى شقيقه فاحتبسه ليتسلّى به عنه، وجئنا نحن العشرة، فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

لما جهز يوسف إخوته بالطعام الذى اشتروه، قال لهم أتونى بأخ لكم من أبيكم أعاملكم مرة أخرى، فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تأتوا إلى. وذلك أنه رأى إخوته جميعا إلا أخاه لأمه «بنيامين» وهو أصغر منه. فأخذ فى استدراجهم حتى علم منهم حياته وأنه عند أبيه لم يسمح بمفارقته، فأعطاهم الطعام بلا ثمن، فقد أمر خدمه أن يدسوا الثمن الذى أحضروه معهم، ويضعوه فى أمتعتهم دون أن يشعروا. أراد يوسف بهذا العمل أن يحمل إخوته - متى رجعوا إلى بلادهم وعرفوا حُسن صنيعه - على حسن الظن به، وأنه بلغ من الكرم والجود حداً بعيداً، فيشجِّعهم ذلك على الرجوع والعودة مرة أخرى لأنهم يتوقعون منه الكثير من الخير، ولأنهم لايقبلون ماليس لهم، وقد جعل يوسف ذلك شرَكا لهم ليعودوا إليه.

عاد إخوة يوسف إلى أبيهم جادين مقدِّرين للجميل، مُخبرين أباهم بما كان،

وأنه محتوم عليهم أن يرجعوا إلى العزيز «وزير التموين والتجارة» بمصر بأخيهم، إذا أرادوا الميرة من جديد، فهم بذلك سيزدادون كيل بعير.

ولكن الوالد النبى تردد إزاء تجربته معهم وقال ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾[يوسف: ٦٤].

أى قال لهم يعقوب: كيف آمنكم على بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف مافعلتم بعد أن ضمنتم لى حفظه، ثم خنتم العهد؟ فأخاف أن تكيدوا له كما كدتم لأخيه؟ فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم وإنما أثق بحفظ الله ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ﴾ أى حفظ الله خيرٌ من حفظكم ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ أى هو أرحم من والديه وإخوته، فأرجوا أن يمنّ علىّ بحفظه ولايجمع علىّ مصيبتين.. فهذه الجملة الكريمة ثناء من يعقوب على ربه وهدفه من هذا الثناء أن يحفظ الله فلذة كبده يوسف، فهو خير الحافظين، وأرحم الراحمين.

وأخيراً سلَّم لأمر الله بحفظهم جميعا ، لاسيَّما بعد أن علموا أن عزيز مصر أعطاهم، وردَّ إليهم بضاعتهم غير مزجاه ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾[يوسف: ٦٥].

ومع ذلك فإن الوالد الكريم، لم يأذن لهم بأخذ أخيهم، وإرساله معهم إلا بعد أن قطعوا المواثيق، أن يحافظوا عليه، ويفدوه بأرواحهم، ويقفوا دونه من أى شىء يلقاه، عندئذ قال يعقوب.

الدعاء الرابع

﴿ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾[يوسف: ٦٦].

فكأن يعقوب يقول يارب كن وكيلا لى وشاهداً على ما بينى وبين أولادى من ميثاق فى كونهم حفظة على ابنى «بنيامين» فى ذهابهم إلى عزيز مصر، واحفظه منهم ومن كل شىء يصيبه، ولا تمكِّنهم أن يفعلوا به كما فعلوا بأخيه يوسف من قبل.

ثم أوصاهم ونصحهم شفقة منه عليهم، وخوفا من أن ينالهم أذى أو يلحق بهم مكروه وقال ﴿يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ..﴾[يوسف: ٦٧].

فهذه النصيحة مشّربة بالأدب الجم، والثناء العظيم، فبالرغم من تقديم النصيحة لأولاده فهو يثنى على الله بما هو أهله، ويحطهم علما بأن نصيحته هذه لاتُغنى عنهم من الله شيئا، فالحكم كله لله لايشاركه أحد، ولا يمانعه شيء.

الدعاء الخامس

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

ثناء على الله بما يفيد الدعاء ليوسف، والحفاظ على بنيامين فهو بهذه العبارة يناجى ربه قائلا يارب لم أتوكل على سواك، فلا تكلنى طرفة عين، واحفظ أولادى فى غربتهم، وردّهم لى سالمين غانمين.

الدعاء السادس

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيم﴾[يوسف: ٨٣].

أمر يوسف بتجهيز إخوته فملأ لهم الأعدال طعاما، وأمر أن توضع فضة كل واحد فى عدله، وأن توضع السقاية؛ وهى صاع من ذهب مرصع بالجواهر فى متاع بنيامين، وهى التى كان يشرب فيها. فساروا غير بعيد فلم يفاجئهم إلا وكيل يوسف يناديهم ويوبّخهم على ماصنعوا، وأنهم قابلوا الإحسان بالكفر، وأنهم سرقوا سقاية الملك «يوسف»، فأظهروا البراءة من هذا العمل وقالوا: من وُجدت سقاية الملك فى رحله يؤخذ عبداً للملك، ففتّش أعدالهم مبتدئا بالكبير منتهيا بالصغير فوجد السقاية فى عدل بنيامين، فرجعوا إلى المدينة ودخلوا على يوسف مستعطفين مسترحمين، ولامهم يوسف على ماصنعوا، فراودوه على أن يأخذ أحدهم عبداً مكان أخيهم فأبى وقال: إن الذى وُجد الصّاع فى رحاله يُستعبد لى، وأما أنتم فاذهبوا إلى بلادكم، وأبى يوسف ـ بعد الاستعطاف وبيانهم أن أباه

متعلق به، وأنه سَلوْته عن أخيه المفقود ـ أن يطلقه، فقالوا بحضرة يوسف وقد مُلئوا غيظا على بنيامين لما أوقعهم فيه من الورطة: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل! فأسرّها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم، وقال لهم: أنتم أشر مكانا من هذا السارق، والله أعلم بما تصفون.

وكانوا يعنون يوسف، ذلك أن أمه ماتت وهو صغير، فكفلته عمته وتعلّقت نفسها به، فلما اشتد قليلا أراد أبوه أن يأخذه منها، فضنّت به وألبسته منطقة لإبراهيم كانت عندها وجعلتها تحت ثيابه، ثم أظهرت أنها سُرقت منها، وبحثت عنها حتى أخرجتها من تحت ثياب يوسف، وطلبت بقاءه عندها يخدمها مدة، جزاءً له بما صنع، وبهذه الحيلة استبقته عندها، وكفّ أبوه عن مطالبتها به.

يئس إخوة يوسف من أخذ أخيهم - بطريق المبادلة - فقال كبيرهم (رأوبين) إن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله برد أخيكم، ومن قبل ذلك كان تفريطكم فى يوسف، وعلى ذلك لن أبرح الأرض «مصر» حتى يأذن لى أبى فى القدوم، أويحكم الله فى شأنى وهو خير الحاكمين، وأشار عليهم بالرجوع إلى أبيهم، وإخباره بما كان من أمر أخيهم ومن الملك «يوسف»، وأن ابنه صار عبداً للملك بسبب سرقته سقايته، وأن ظهور السرقة كان عن ملأ منهم، ومن أهل العير التى كانوا فيها، وأنهم صادقون فيما أخبروا به.

عاد إخوة يوسف ـ عدا أكبرهم وأصغرهم إلى أبيهم ـ وأخبروه بالأمر على جليّته فلم يدخل عليه هذا القول، وأحاله على أمر دبّروه له كما دبّروا لأخيه من قبل، فبماذا أجابهم أبوهم؟ كانت الإجابة، هى إجابته الأولى، حين أتوه بقميص يوسف ملطّخا بالدماء ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾[يوسف:١٨].

إلا أن الفارق بين الحالين، أنه قال فى الأولى ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**﴾ وقال فى الثانية ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾[يوسف:٨٣].

أى لا أجد سوى الصبر محتسبا أجرى عند الله، عسى أن يجمع الله شملى بهم، وتقرّعينى برؤيتهم جميعا، فهو العالم بحالى، الحكيم فى تدبيره وتصريفه.

والصبر الجميل هو الذى فسّره النبى ﷺ حين سُئل عنه فيما يرويه الحسن رضى الله عنه «صبرٌ لاشكوى فيه فمن بثّ لم يصبر»ويدل عليه قوله تعالى﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ فقول يعقوب ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يجرى مجرى قولك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وقوله ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ جار مجرى قولك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقال مجاهد: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أى من غير جزع، وقوله ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ رجاء رفعه إلى الله أن يجمع شمله مع أولاده، لأنه العليم بهم إن كانوا على قيد الحياة، وثناء منه على ربه بما هو أهل له، مزجه بدعائه ليكون لديه مقبولا فهو أعلم بحاله، الحكيم فى تدبير أموره وتصريفه.

ويفسّر الثورى الصبر الجميل فيقول: «من الصبر ألا تحدِّث بوجعك ولا مصيبتك ولا تزكِّى نفسك».

وملخص الصبر الجميل هو الرضا والتسليم بقضاء الله مع عدم الضجر. وكل ما كان الطلب عبودية لله تعالى كان جميلا وماعداه فهو غير ذلك.

والصبر الجميل هو الذى يعتقد صاحبه أن منزِّل البلاء هو الله، فهو متصرِّف فى مُلْكه فلا داعى للشكاية.. كما يعتقد أن مُنزِّل البلاء حكيم فى تدبيره، عليم بأحوال خلقه، رحيم ورحمته وسعت كل شىء.. ومن كان كذلك ففعله عن حكمة وصواب فلا داعى إذاً للاعتراض.

واستغراق المبتلى، فى شهود نور البلى، مع اعتقاده أن المبلى هو الله تعالى حقيقه. يمنعه هذا الاعتقاد من الاشتغال بالشكاية من البلاء.

ويمكن القول بأن صاحب الإيمان القوى إذا حلَّت به كارثة، واعترته الحيرة أكثر الرجوع إلى الله، وانصرف بكليته إليه دون غيره، بحيث أدخله همّه فى ذكر الله تعالى، فاستغرق كل وقته فى ذكره تعالى حتى صارت المصيبة نسيا منسيا، وصار ما حلّ به من بلاء - كإلقاء إبراهيم عليه السلام فى النار، واضطجاع إسماعيل عليه السلام للذبح ـ قُرْبة يتقرب بها العبد إلى مولاه.

الدعاء السابع

قوله ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ كانت بداية هذا الاستغفار حينما دخل إخوة يوسف عليه فى المرة الأخيرة قائلين له ﴿أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.. ثم دار بينهم من الحديث ما بسببه عرفوه ثم اعتذروا له ما فعلوه به، وبأخيهم بنيامين﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[يوسف: ٩٢، ٩٣].

قال الطبرى: ذُكر أن يوسف لما عرَّف نفسه إخوته سألهم عن أبيهم فقالوا: ذهب بصره من الحزن فعند ذلك أعطاهم قميصه(١) وأراد يوسف تبشير أبيه بحياته، وإدخال السرور عليه بذلك حيث يرجع إليه بصره، وأمرهم أن يأتوه بجميع الأهل والذرية من أولاد يعقوب.

فلما فصلت عيرهم من مصر، كانت نفسه مستشرقة لتغيير ما به من حال ولم يدب اليأس إلى نفسه، بل هو يتوقع الفرج بلقاء يوسف الذى طال حزنه عليه، فقال لمن حوله من جماعته: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أى تسفِّهونى وتنسبونى إلى الخرف وهو ذهاب العقل، وجواب «لولا» محذوف تقديره لأخبرتكم أنه حى وأتوقع لقاءه، فقالوا له ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أى خطئك القديم فى اعتقادك أن يوسف باق إلى اليوم! ولم يطل به الانتظار حتى جاء البشير إلى يعقوب بسلامة يوسف وأخيه. قال مجاهد: كان البشير أخاه يهوذا الذى حمل قميص الدم فقال: أفرحه كما أحزنته(٢) وألقى قميص يوسف على وجه أبيه يعقوب فارتدّ بصيراً، وقرّت عينه، وبشر نفسه باللقاء، فقال للآحين له ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ ولابد أن يعقوب لم يقل هذا القول إلا وقد أعلمه الله بحياة يوسف وأنه سيلاقيه، ولتتحقق الرؤيا، قال المفسّرون:

---

(١) الطبرى (١٣/ ٥٧).

(٢) الطبرى (١٣/ ٦٣).

ذكرّهم بقوله ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ روى أنه سأل البشير كيف يوسف؟ قال: هو ملك مصر، قال: ما أصنع بالمُلْك! على أى دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة[1].

شعر الأبناء بخطئهم تجاه أبيهم يعقوب، فتقدموا إليه معتذرين عما سلف منهم، وما جرى بينهم وبينه، ورجوه أن يستغفرلهم لما فرط منهم، ثم اعترفوا بخطأهم بقولهم ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ أى مخطئين فيما ارتكبنا مع يوسف ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وعدهم بالاستغفار قال المفسِّرون: أخرّ ذلك إلى السَّحر ليكون أقرب إلى الإجابة، وقيل: أخرّهم إلى يوم الجمعة ليتحرى ساعة الإجابة، وقيل: أراد يعقوب أن يستوثق من توبتهم، وأن يتأكد من إخلاصهم فيها، وقيل إنه استغفر لهم فى الحال وعبّر عما عبّر به ليفيد الدوام على الاستغفار مستقبلا، فقد روى أنه كان يستغفر لهم فى كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة، وقيل قام إلى الصلاة فى وقت السَّحر فلما فرغ رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم اغفرلى جزعى على يوسف وقلّة صبرى عليه، واغفر لأولادى ما فعلوه فى حق يوسف» فأوحى الله تعالى إليه» قد غفرت لك ولهم أجمعين»، وقيل فى حكاية عبارته بكلمة «سوف» لاتخلو من إشارة إلى قلب إنسانى مكلوم، فإنه يعدهم بالاستغفار بعد أن يصفو ويسكن ويستريح، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

---

(١) الرازى (١٨/ ٢٠٩).

الفصل الثانى
أدعية يوسف عليه السلام فى القرآن الكريم

هو يوسف بن يعقوب - إسرائيل الله - بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. كان يوسف جميل الصورة، أثير عند أبيه يخصّه بقسط عظيم من محبته، وكان ذلك سببا فى حِقْد إخوته عليه، وسببا فى محنته التى كانت خيراً وبركة عليه وعلى الأمم القريبة من مصر، وعلى مصر.

ذُكر اسم يوسف، فى (٢٦) آية من الكتاب الكريم: (٢٤) منها فى سورة يوسف، وآية فى سورة الأنعام، وآية فى سورة غافر، وقد ذُكرت قصة يوسف مطوَّلة فى سورة يوسف. وسبب نزول هذه السورة فى القرآن الكريم أن كفار مكة لقى بعض اليهود، وتباحثوا فى ذكر محمد ﷺ، فقال لهم اليهود: سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن قصة يوسف فنزلت السورة.

ويروى الحسن أنه نبيء صغيراً منذ أن قال الله تعالى فى حقه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف:١٥] فاستكتم سرّ ربه ولم يصرح به حتى لأبيه، ثم أصبح رسولا منذ الوقت الذى قال الله تعالى فيه ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٢٢].

ومن العلماء من ذهب إلى القول بأنه أصبح رسولا منذ الوقت الذى أُلقى فيه بالجب، ويمكن تلخيص قصته فيما يلى:

* حب أبيه له خصوصا بعد وفاة أُمّه راحيل.
* تآمر إخوته عليه.
* إلقاؤه فى الجب (البئر).
* التقاطه من البئر وبيعه لعزيز مصر.

* محنة يوسف ـ يوسف وامرأة العزيز ـ وبراءة يوسف مما اتهمته به المرأة.

* شيوع الخبر فى المدينة وتحدّث النساء به.

* يوسف فى السجن.

* تعبيره لرؤيا زميليه فى السجن.

* تعبيره الرؤيا لملك مصر.

* اصطفاء الملك له وجعْله على خزائن مملكته.

* حزن أبيه عليه.

* وفود إخوته عليه عند المجاعة.

* حيلته فى استبقاء أخيه بنيامين.

* قدوم أبيه وأخوته عليه بمصر وقد ذكرنا بعضها فى أدعية يعقوب عليه السلام ونذكر ما يقتضيه المقام بمشيئة الله تعالى فى أدعية يوسف عليه السلام.

* وفاته: مكث أبوه يعقوب وأبناؤه بمصر ٢٤سنة، ثم توفى يعقوب ودُفن بجوار أبيه اسحق بالشام، ثم مكث يوسف بعد ذلك ٣٣ سنة، فلما توفى تخاصم أهل مصر وأحبّ كلٌّ منهم أن يدفنه بمحلّته حتى همّوا بالقتال، ثم اتفقوا على أن يجعلوه فى صندوق من المرمر ويدفنوه فى النيل، بمكان يمر الماء عليه ثم يصل إلى مصر، لتصل بركته إلى كل مكان، وإلى كل الناس، واستمر الحال على ذلك حتى عصر موسى عليه السلام الذى أخرج عظامه ودفنها عند قبر أبيه بالشام.

ولقد مرت بيوسف أيام حالكة السواد، فمن مراودة امرأة العزيز له، إلى السجن، إلى ما لاقاه أبوه واخوته من شظف العيش، وفى كل ذلك لم ينس يوسف ربه طرفة عين، بل كان عليه مثنيا، وله شاكراً وإليه ضارعا ومنه طالبا وراجيا، ولقد أُثرت عنه عدة أدعية وردت كلها فى سورة يوسف كان أولها ﴿ **وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ** ﴾ [يوسف:٢٣] وآخرها ﴿ **تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾[يوسف:١٠١].

وكان ليوسف ولدان «ميشا» و «افرايم» الذى وُلد له «نون»، ووُلد لنون «يوشع» فتى موسى الكليم.

الدعاء الأول

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣].

بعد أن تُرِكَ يوسف فى الجبّ (البئر) وكانت قليلة الماء، جاءت سيّارة (قافلة) فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه فى الجب فتعلق به يوسف، فلما نزع الدلو يحسبها قد امتلأت ماء، فإذا غلام وسيم تعلقّ بها فاستبشر الرجل وقال ﴿ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلامٌ ﴾[يوسف:١٩]، فأخفاه هؤلاء بين أمتعتهم، وجعلوه من بضائعهم التى يرغبون فى بيعها، وتقول التوراة أن الذين استخرجوه من الجب أفراد قافلة من المدنيين متجهة إلى مصر، والذين اشتروه أفراد قافلة من الإسماعيليين، وهم الذين باعوه لرئيس الشرطه فى مصر (وزير الملك)[1]، فأرسله إلى بيته وأوصى أمرأته زليخا به خيراً وقال لها: أحسنى معاملته وأكرميه كى تطيب له الإقامة معنا، لعله ينفعنا أو نتبناه ونتخذه ولدا ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾[2] وقد جعل الله ليوسف مقاما كريما فى منزل وزير الملك، فكان صاحب أمره ونهيه، والرئيس على خدمة، والمتصرف فى بيته بحيث لم يكن لأحد ممن فى الدار كلمة أعلى من كلمة يوسف سوى كلمة سيده وسيدته، وقد تولى الله تعالى يوسف بالهداية والتربية والتوفيق، وعلمهّ من لدنه علما عظيما، كما قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف: ٢١، ٢٢].

---

(١) واسمه «فوطيفار» وهو الذى كان على خزائن مصر فى عهد أحد ملوك الهكسوس (العمالقة) الذين وردوا مصر قبل نزول إبراهيم، وكان منهم الملك الذى أكرم مثوى إبراهيم وأعطاه الأموال الكثيرة، وهم الذين شغلوا تاريخ مصر ما بين الأسرة الرابعة عشرة إلى الأسرة الثامنة عشرة، التى منها أحمس الذى طرد العمالقة (الهكسوس) من مصر، ولم يعين البلد الذى كان عاصمة الملك فى البلاد المصرية فى ذلك الحين، والأقرب أنها مدينه «صان» ببلاد الشرقية قرب بحيرة المنزلة.

(٢) قال ابن إسحق عن أبى عبيدة عن ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾، والمرأة التى قالت لأبيها عن موسى ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما.

محْنة يوسف: كانت منة الله تعالى على يوسف بالجمال الرائع سببا لمحنته، وذلك أن امرأة العزيز نظرت إلى يوسف وما هو عليه من الخلق السوى والجمال المفرط، فأشعل فى نفسها جذوة الحب، وقد كانت غادة فى مقتبل العمر جميلة الطّلعة.

وصار ذلك يزداد بتكرر رؤيتها له، إلى أن غلبها الحب على حيائها، واستحوذ الضعف الطبيعى على مشاعرها، ولما كان هو فتاها ورهين إشارتها، هان عليها ما ينتابها من الشوق والحب، فانتهزت فرصة وجوده فى بيتها يوما، وأخذت تغريه بنفسها ليبادلها حُبًّا بحبٍّ، وعرضت عليه محاسنها ومفاتنها، وبعد أن أوصدت الأبواب دعته برفق ولين لمخدعها، وقالت﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أى أسرع فقد هيأت لك نفسى فنفر منها يوسف نفرة الغضوب، واستنكر منها ذلك الأمر لعاملين يكفى كل واحد منهما لعزوفه عما تريد:

أولهما: إيمانه بالله وامتثاله أوامره بالتزام الطهارة من الأرجاس الخلقية، تلك الطهارة التى وجد عليها أباه وجده وجد أبيه عليهم السلام، فدفعه ذلك إلى أن ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أى عياذاً بالله من فعل السوء، قال أبو السعود: وهذا إشارة إلى أنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه، لما أراه الله من البرهان النيِّر على ما فيه من غاية القبح ونهاية السوء[1].

ثانيهما: أن بعلها سّيده الذى حدب عليه وأكرم مثواه، ومكنّ له فى بيته، وجعله المتصرف فى أمواله وخدمه، ووثق به ثقة ليس لها حدا، فلا ينبغى أن يقابل نعمته بالكفران، فلو لم يكن له دين يحجزه عن الشر ويلزمه الطهارة لكان ذلك كافيا لحفظ سيده فى أهله، والبعد عن تدنيس فراشه. فقال يوسف ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أى أن زوجك هو سيدى العزيز الذى أكرمنى وأحسن تعهدى فكيف أسيء إليه بالخيانة فى حرمه؟ ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أى لا يظهر الظالمون بمطالبهم، ومنهم الخائنون المجازون الإحسان بالسوء.

وهذه الأجوبة التى ردَّ بها يوسف على طلبها، بلغت الغاية فى الترتيب والتنظيم، لأن عبارته «معاذ الله» إشارة إلى أن نعم الله على العباد تمنع من هذا الفعل، لأن من انقاد إلى طاعة الله، واستشعر نعمه الكثيرة عليه، وألطافه المحيطة

---

(١) ابو السعود (٢/ ٦٢).

به، عظم عليه مثل هذه القبائح، واتجه إلى طاعة الله صونا للنفس من الهلاك، وقوله ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ إشارة إلى وجوب رعاية حقوق العباد فى النفس والمال والعِرْض، خصوصا لأصحاب النِّعم والأيادى البيضاء.

وقوله ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ إشارة أن هذه اللّذة قبيحة وسريعة الزوال وقليلة، يتبعها وخز الضمير وسوء المنقلب فى الدنيا، والعذاب الشديد فى الآخرة، والعاقل هو الذى يتجنب مثل هذه اللذة المستوجبة للضر والحسرة، الباقى ألمها أبد الآبدين عند الضمائر الحية، والنفوس المهذبة المؤمنة.

الدعاء الثانى

قوله ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

ثم يولّى يوسف وجهه شطر الباب يطلب النجاة من شيطان غوايتها، وهى تجاذبه ثوبه وهو العصىّ، حتى تمزق من خلفه إلى أن يغلبها ويفلت من يدها فيستبقان الباب. هو يريد فتح مغلقه، وهى تريد أن تحول بينه وبين ما يشتهى من الإفلات من يدها دون قضاء لبانتها، وحينئذ يجد أن بعلها عند الباب.

تدبّروا واقرءوا قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٤ ، ٢٥].

وللعلماء فى تفسير هذه الآية آراء:

﴿وَهَمَّ بِهَا﴾[١] قال الإمام الفخر: الهمّ خطور الشىء بالبال أوميْل الطبع كالصائم فى الصيف، يرى الماء البارد فتحمله نفسه على الميل إليه وطلب شربه، ولكن يمنعه دينه عنه[٢] ﴿لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ونقول أن يوسف عليه السلام لم تكن لديه حتى مجرد خاطرة النفس، لأنه لو وُجد منه ذلك لذُكرت توبته واستغفاره كما كان لآدم ونوح وذى النون وداود عليهم السلام، وقد سمّاه الله

(١) وهذا من باب المشاكلة؛ وهى الاتفاق فى اللفظ مع الاختلاف فى المعنى.
(٢) الفخر الرازى (١٨ / ١١٩).

مخلصا ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، فعُلم بالقطع أنه ثبت فى ذلك المقام وجاهد نفسه مجاهدة أولى العزم حتى استحق من الله الثناء.

ويدل على ذلك أيضا قول النسوة ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾، وقول امرأة العزيز [1]: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥١-٥٣].

فإن قيل فما معنى قولها ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ . قيل: هذا من تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف، فقالت ذلك، أى قولى هذا وإقرارى ببراءته، ليعلم أنى لم أخنه بالكذب عليه فى غيبته، وإن خنته فى وجهه فى أول الآمر، فالآن يعلم أنى لم أخنه فى غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ ثم ذكرت السبب الذى لأجله لم تبرىء نفسها، هو أن النفس أمّارة بالسوء. فتأمل ما أعجب أمر هذه المرأة؟!

أقرّت بالحق، واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع فى مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عُرْضة للشر، فوازن بين هذا، وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف عليه السلام لفظا ومعنى، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يُستبعد أن تقول المرأة هذا وهى على دين الشرك، فإن القوم كانوا يُقرُّون بالرب سبحانه وتعالى وبحقه، وإن أشركوا معه غيره، ولا ننسى قول سيّدها لها فى أول الحال ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [2] أ.هـ.

---

(١) لم يكن يوسف عليه السلام حاضراً وقت مقالتها هذه، بل كان فى السجن لما تكلمت بقولها ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ... الآية﴾ والسياق صريح فى ذلك، فإنه لما أرسل إليه الملك يدعوه، قال يوسف لرسول الملك ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ، فأرسل إليهم الملك وأحضرهن، وسألهن، وفيهن امرأته، فشهدن ببراءته ونزاهته فى غيبته، ولم يمكنهن إلا قول الحق ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ وقالت امرأة العزيز ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

(٢) التفسير القيم لابن القيم (ص : ٣١٦).

وقال فى البحر: نسب بعضهم ليوسف مالا يجوز نسبته لآحاد الفساق، والذى اختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم البته، بل هو منفى لوجود رؤيته بالبرهان كما تقول: «قارفت الذنب لولا أن عصمك الله» وكقول العرب «أنت ظالم إن فعلت» وتقديره: إن فعلت فأنت ظالم وكذلك هنا التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها ولكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهمّ. وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لايصح عن أحد منهم شىء من ذلك، لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضا مع كونها قادحة فى بعض فساق الملل فضلا عن المقطوع لهم بالعِصْمة[1] وقال ابو السعود: إن همّه بها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، ميلا جبليا، لا أنه قصدها قصداً اختياريا، ألا يُرى إلى ماسبق من استعصامه المُنبىء عن كمال كراهيته له ونفرته عنه، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين، وهل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهمّ منه تسجيلا محكما؟ وما قيل: إنه حل الهميان، وجلس مجلس الختان، فإنما هى خرافات وأباطيل، تمجها الأذان، وتردها العقول والأذهان[2].

وقال الشيخ النجار رحمه الله «والقول الذى لاغبار عليه ويلتئم مع قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ ومع قوله فى الآية نفسها ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ إن همّه عليه السلام بها امتنع لوجود البرهان عنده، وهو حرصه على الطاعة، واستمساكه بآداب آبائه وأخلاقهم الذكية الطاهرة، وإن قوله ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ لايصلح جوابا لأن (لولا) لها الصدارة. لأنا لا نقول إن هذا هو الجواب، ولكنه دليل الجواب، ونظير ذلك قوله تعالى ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ لأن (لولا) حرف امتناع لوجود. امتنع الهمّ لوجود البرهان. وامتنع إبداء أم موسى ما فى نفسها على ابنها لوجود. (ربطنا على قلبها)، والجواب محذوف تقدم دليله على (لولا).

يوسف وامرأة العزيز

يقول المثل العربى (ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى) ذلكم المثل هو امرأة العزيز مع يوسف. ذلك أنها لما رأت سيدها لدى الباب يريد الدخول وكان معه

(١) البحر (٥/ ٢٩٥).
(٢) أبو السعود (٢/ ٦٣).

ابن عمها- أرادت أن تشفى غلّ صدرها وحنقها على يوسف لما فاتها من التمتع به، وتوقعه فى الشر جزاء إبائه عن مطاوعتها. تقدمت نحو زوجها باكية شاكية قائلة ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وأفهمته أنه راودها عن نفسها وأنها أبت عليه، ولكن يوسف دفع التهمة عن نفسه قائلا: بأنها هى التى حاولت أن تخون زوجها، وأنه امتنع عن الاستجابة لها ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ وأنا امتنعت وأبيت حتى آل أمرها إلى أن نازعتنى ثوبى.

وهنا ظهرت فراسة ابن عمها فى تحقيق الحق من قولها فقال ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لأن الذى يهجم على المرأة وهى تدافعه إنما يظهر أثر دفاعها فى مقدمة قميصه، أما الهارب من المرأة العالقة بثوبه فيظهر أثر ذلك من الخلف، لأنه يكون مستدبراً لها وهى تجاذبه من خلف، فظهر حق يوسف وكذب امرأة العزيز بأن رأوا قميصه قُدّ من دُبر. فعاد الشاهد أو العزيز على امرأته باللوم وقال ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وأمر يوسف بكتمان الخبر، وأمرها بالاستغفار لذنبها وصرّح بأنها مخطئة فيما صنعت، وكأن هذا هو المهم، محافظة على الظواهر(١)، وفى هذا إشارة إلى أن العزيز كان قليل الغيرة حيث لم ينتقم ممن أرادت خيانته، وتدنيس فراشه بالإثم والفجور، قال ابن كثير: كان زوجها لين العريكة سهلا، أو أنه عذرها لأنها رأت مالا صبر لها عنه(٢).

اقرءوا قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

---

(١) قصص الأنبياء لفضيلة الشيخ : عبد الوهاب النجار (رحمة الله تعالى) (٢/ ١٢٤) ط. الحلبى - القاهرة.

(٢) مختصر ابن كثير (٢/٢٤٧). ثم أضرب بعلها عن هذا صفحا فقال: (يوسف أعرض عن هذا) أى لا تذكر لأحد، لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن، وأمرها بالاستغفار لذنبها الذى صدر منها، والتوبة إلى ربها، فإن العبد إذا تاب الله عليه. وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام، إلا أنهم يعلمون أن الذى يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله، وحده لاشريك له فى ذلك. ولهذا قال لها بعلها، وعذرها من بعض الوجوه: لأنها رأت مالا صبر لها على مثله، إلا أنه عفيف نزيه برىء العرض سليم الناحية فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

لطيفة

للإمام الفخرى الرازى كلمة قديمة أوردها فى تفسيره، خلاصتها أن يوسف قد شهد الله تعالى ببراءته، بقوله تعالى ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ وشهد الشيطان ببراءته، بقوله ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ وشهد ببراءته الشاهد من أهل العزيز، إذ قال ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ وشهد ببراءته النسوة اللائى قطعّن أيديهن بقولهن ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ وشهدت ببراءته امرأة العزيز بقولها ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فالذى يريد أن يتهم يوسف بالهمّ عليه أن يختار أن يكون من حزب الله أو من حزب الشيطان، وكلاهما شهد ببراءة يوسف فلا مفرّ له من الإقرار بالحق على أى حال، وهو براءة يوسف من الهمّ بها.

شيوع الخبر فى المدينة وتحدّث النساء به

شاع نبأ حادثة امرأة العزيز وفتاها فى أرجاء المدينة، ولاكته أفواه النساء لائمات لها على هذا الغرام، وشرعن يضللنها ويلمنها بفادح اللوم. ودوّى صدى هذا القول فى أذن امرأة العزيز، فأخذت فى الكيد لهن ليعذرنها ولايعزلنها، فأرسلت إلى طائفة من نظيراتها العاذلات، وأعدت لهن مكانا وثيراً يجلسن فيه متكئات على الوسائد، زيادة فى الرفاهية والإكرام كما هى عادة المترفين، وبعد أن استقر المقام بالمدعوات أمرت جواريها بإعداد الطعام، وآتت كل واحدة منهن سكينا، لقطع اللحم والفاكهة، ثم شرعن يأكلن وأنشأن يتبادلن الأحاديث فى سرور وضحك، وفى تلك اللحظة أمرت يوسف أن يخرج عليهن، فبهرهن جماله، وألهاهن عن الطعام، فصرن يقطعن أيديهن، وانشغلن بارتشاف حُسْنه عن ألم جراحهن، فأكبرن هذا الجمال وقلن ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

حينئذ باحت امرأة العزيز بمكنون فؤادها، وقالت لهن كما يشكو العاشق بلواه لعاشق مثله ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا

آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ فأنتم ترون أن امرأة العزيز كتمت أمرها حتى صادتهن، وأوقعتهن فى شباك غرامه، وصرن كلهن فى الهوى سواء، ثم باحت لهن بذات نفسها، ولم تعد تخشى لوما ولا مقالا، وكأنها بقول القائل:

لا تُخْفِ ما فعلت بك الأشواق   واشـــرح هـــواك فكلنا عشّاق

وأنتم ترون أيضا أن عشقها فضحها فى المرة الأولى، وكذبت لتتخلص من العار ولتتشفى من ذلك الرجل الذى وصل حبه إلى شغاف قلبها، وأنضج فؤادها بنار هواه، فلم تحسن التخلص، ولم يكن كذبها منجِّيا لها من اللوم. وكان من حقها أن ترتدع، ولكن الهوى صرعها للمرة الثانية فتوعدته بأن يصدع بأمرها، وإلا كان مأواه السجن ولقاء الصغار بدخوله.

ولما فشت القالة بذلك، رأى العزيز وحسَّن له مشيروه أمراً هو أنه لايخلصهم من العار، ويكف ألسنة الناس عنه وعن زوجته إلازجُّه فى السجن، ليخيِّلُوا للناس أنه ما زُجّ فى السجن إلا لأنه آثم فى ادِّعاء البراءة، وأن زوجة العزيز بريئة مما قُذفت به وهذا مصداق قوله تعالى ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

قال ابن عباس: فأُمر به فحُمل على حمار، وضُرب بالطبل، ونودى عليه فى أسواق مصر، إن يوسف العبرانى أراد سيدته فجزاؤه أن يُسجن، قال أبو صالح: ماذكر ابن عباس هذا الحديث إلا بكى[1].

يوسف فى السجن

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤].

التجأ يوسف إلى ربه مستغيثا به، مستعيذاً من المكائد والمؤامرات التى حيكت له حتى يذعن ويسلّم ويرضخ ويخضع.

(١) البحر المحيط (٣٠٧/٥)

تضرّع وهو النبى المعصوم، وسأل ربه أن يصرف عنه السوء، ويبطل الكيد ويحميه، يحمى نقاوته وطهارته، ويحميه من الأجواء التى أحاطت به. من الحرية.. الحرية الملوثة المملوءة بالأنفاس الخبيثة المحمومة تتنفسها نسوة بهرهن جماله، وسحرهن بهاؤه، وأعجزهن تمنّعه وحصانته، فتآمرن عليه للإيقاع به النسوة صديقات امرأة العزيز يراودنه ويردنه لأنفسهن، وامرأة العزيز تقول ﴿لَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ تضرّع إلى ربه أن يقيه شر ذلك كله، طالبا السجن، فالسجن عنده خير من الخطيئة والزلل، فيه يحمي طهره، ويحبس نقاءه، ويعتقل عفّته، ويصونها من أن تتلوث ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ .

واستجاب له ربه، وفرّج كربه وحماه وصرف عنه الكيد عندما أبعده عنهن فى السجن، فسكنت المؤامرات، وسكتت الفتنة، وانتصرت العفّة وصفاء الصحيفة، ونقاء الظاهر والباطن ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وهكذا اجتاز يوسف محنته الثالثة بلطف الله ورعايته[1].

الدعاء الثالث

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩].

قال يوسف ذلك حينما حضر إخوته، مصطحبين معهم أخاهم بنيامين كرغبة يوسف فى استحضاره.. ولقد أعد يوسف الحيلة فى استبقاء أخيه بجواره، فأمر عمّاله أن يضعوا صواع الملك فى رحل بنيامين، ثم ينادى مناد عند همّهم بالرحيل: أيتها العير إنكم لسارقون صواع الملك، ولمن جاء به حمل بعير جائزة له، ثم بدئ بالتفتيش الذى أسفر عن استخراج الصواع من وعاء «بينامين»، وكان

(١) كانت محنته الأولى هى ظلم إخوته له وإلقاؤه فى الجب، والثانية محنة الاسترقاق وقد نجاه الله منهما كما قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ أى وكما نجيناه من الجب جعلناه متمكنا فى أرض مصر يعيش بعز وأمان..

عقاب السارق وتتذاك استعباد السارق، فاستبقى يوسف أخاه بينامين جريا على الحكم المعروف، فى شريعة يعقوب[1]، وأمام هذا اضطر أخوة يوسف للتقدم إلى العزيز (يوسف) للشفاعة، ملتمسين منه الصفح والإفراج عن أخيهم دون أن يعرفوه فقالوا له ﴿أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف:٧٨]. فرفض يوسف ذلك قائلا ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ أى نعوذ بالله من أن نأخذ أحداً بجرم غيره ﴿إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ أى نكون ظالمين إن فعلنا ذلك، قال الألوسى: والتعبير بقوله ﴿مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ بدل من (سرق) لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب[2].

انقضى الأمر، ودُبرت المكيدة الهادفة، ليتم قضاء الله من أمر الحيلة الحسنة، ويأخذ يوسف أخاه فى دين الملك، بعد أن أعلمه جلية الأمر، وعرّفه أنه أخوه يوسف.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ من الكيد المحبوب المراد الذى يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة والمنشودة، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فليس عالم إلا وفوقه عالم، إلى أن ينتهى العلم إلى الله علاّم الغيوب، فمنه بُدىء العلم وتعلّمت العلماء.

الدعاء الرابع

﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢].

اتجه يعقوب إلى بنيه وأوصاهم قائلا ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

نهّضهم وبشرّهم وأمرهم ألا ييأسوا من روح الله فلا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه، فإنه إن شاء الله حاصل، فلاييأس من رحمة الله

---

(١) وقد نسخ بقطع الأيدى فى الشريعة الإسلامية.
(٢) روح المعانى (١٣/ ٣٤).

إلا القوم الكافرون بنعمة الله. فامتثل الأبناء لنصيحة الأب الرسول، وتوجهوا إلى ديار مصر، يطلبون ما أراد منهم، وهنا تجلت صفة الأنبياء فى يعقوب عليه السلام ولم يتوجه إلا إلى ربه طالبا منه رحمته تعالى وفرجه وتنفيسه، فإنه لا يقنط من رحمته تعالى إلا الجاحدون المنكرون.

فلما دخلوا على يوسف قالوا ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ من الجوع ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ لقلّتها ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ وإن كان الثمن لا يوجب ذلك ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بإطلاق أخينا من عبوديتك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

وهنا وجدها العزيز يوسف عليه السلام فرصة سانحة ليخبرهم بحقيقة أمرهم وأمره معهم، فكانت المفاجأة وتحقق كلام يعقوب فى رؤيا يوسف وتفسيرها.. فقال لهم مذكراً بما كان منهم ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ إذ فرقتم بينهما وألهبتم صدورهما بنار البعد، فأحزنتم الأب، وظلمتم يوسف، وعصيتم الإله، وكل من عصى الله فهو جاهل، ولعله إنما كلَّمهم بلغتهم لأول مرة فعرفوا أنه يوسف، ومن دهشتهم نظروا إليه فوجدوا الشامة فى جبهته، فبهرهم ما رأوا، إذ عرفوا فيه أخاهم الصغير الذى أساءوا إليه، فبدا على وجوههم الخجل، وعلَتهم الحسرة والندامة، فلم يسعهم إلا أن يقولوا ﴿أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ فكانت الإجابة المذهلة المفرحة. قال ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ولا شك أن يوسف قد تعرّف إليهم بنفسه بإذن من الله، كما أنه قد أخفى منهم نفسه فى المرتين الأولين بأمر من الله فى ذلك فهو النبى المعصوم، بمقتضى الوحى، ويسير وفق أوامر الرسالة.

وحين أنبأهم بأنه يوسف وهذا أخوه، قد منّ الله عليهما باللُّقيا والفرج، والمُلْك والسِّعة، لم يبق مجال للكتمان والإصرار بل لابد من الانفتاح والمصارحة والإقرار. أساءوا إليه وقد أحسن إليهم، وتجاوز عن سيئاتهم وصارحهم، ولا حرج عليهم إن لم يفعل ما فعل معهم.

﴿قَالُوا تَاللَّه لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ فاعترفوا له بالفضل فى الخَلق، والسِّعة والُملْك، والتصرف والنبوة. . وهذا بون شاسع بينه وبينهم، فكان العفو منه شيمة، وفى حقهم واجب، والدعاء لهم مكرمة واستغفارا ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فلا ذكر للذنب لكم عندى، يستر الله ما بيننا ويرحمنا، وهو أرحم الراحمين.

وفرح الإخوة بلقاء أخيهم الكبير القلب، الرحيم بهم، المشفق على والده، فما أحسنها فرصة، وما أعظمها سروراً واستبشاراً، وهذه العبارة التى قالها يوسف لإخوته لمن أرق العبارات فى مثل هذه المناسبات، ومما يدل على سموّ معانيها، ورقّة ألفاظها، ودقّة أسلوبها أن رسول الله ﷺ استعمل هذه العبارة بعينها ونصِّها حينما دخل مكة فاتحا، وقال لقريش:

«ما ترونى فاعلا بكم؟».

فقالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قَدَرْتَ.

فقال : أقول ما قال أخى يوسف ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.

وهذه العبارة ذاتها هى التى نصح العباس رضى الله عنه أبا سفيان أن يقولها لرسول الله ﷺ حينما يُقبل عليه معلنا إسلامه. فقد روى أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس: إذا أتيت رسول الله ﷺ فاتلُ عليه ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ ففعل فقال الرسول ﷺ «غفر الله لك ولمن علّمك».

فيوسف حينما قال ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ كأنه أزال عن إخوته ملامة الدنيا وعتابها. . ولما قال ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ كأنه طلب لهم من الله تعالى أن يزيل عنهم عقاب الآخرة، ولا يحاسبهم على ما صدر منهم فى حقه وأخيه، وما سبّبوه من إزعاج لأبيهم وآلام. . فالجملة وإن كان ظاهرها الإخبار إلا أن حقيقتها الدعاء، أى أطلب لكم من الله المغفرة والستر لما سلف منكم، وهو أرحم الراحمين.

الدعاء الخامس

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

شد يعقوب وآله أجمعون رحالهم إلى مصر، فلما جاءوا إليها دخلوا على يوسف فآوى إليه أبويه، أى يعقوب وزوجة خالة يوسف، لأن أمه كانت قد ماتت وهو صغير، وسجد له أبوه وأمه واخوته الأحد عشر، وقال لأبيه ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ وجعلنى على خزائن الأرض بيدى الحل والعقد وإلىّ الأمر والنهى ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ وهذا كله من لطف الله بى وبكم ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

فى هذا الموقف الباهر، والإكرام العظيم الذى أكرم الله به يوسف بعد ملاقاة الأهوال التى يلين لها الحجر، من ائتمار إخوته به، فلطمه ولكمه ولكزه، فسلبه ثيابه، فإلقاءه فى الجبّ عاريا فريداً لا أنيس ولا معين، فإخراج السيّارة له وبيعه بيع الرقيق فى مصر، فمحنته مع امرأة العزيز تدبّر له الكيد، وتمعن فى الإساءة إليه جزاء له على تفويته غايات سافلة لها، فسجنه السنين الطوال.

كل ذلك وهو متمسك بدينه وشرفه وكرامته ووفائه وذمته، ودائب على الدعاء إلى الله، فخروجه من السجن، فتوليته على خزائن الأرض، فقدوم إخوته مستجدين حنانه وهم لا يعرفونه، فمداعبته إياهم، فقدوم والده إليه بعد أن ابيضّت عيناه من الحزن عليه وعلى أخيه، ولم يزل بياضهما إلا بإلقاء قميص يوسف عليه، وسجود أبيه وأمه وإخوته.

كل ذلك مرَّ بمخيلة يوسف، فحق لمثله أن يشكر الله تعالى على ما مّن به عليه من النعمة، وما منحه من علم ومُلْك داعيا الله تعالى أن يتولاه فى الدنيا والآخرة، وأن يتوفاه مسلما أى مطيعا لله غير عَاصٍ، وأن يلحقه بالصالحين من آبائه الأنبياء. اقرءوا قوله تعالى ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ

الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

بين يدى هذا الدعاء: اشتملت الآية الكريمة على اعتراف بالنعمة وثناء ودعاء تلويحى، ودعاء تصريحى.

أما الاعتراف بالنعمة فيشتمل على جملتين:

الجملة الأولى: يعترف فيها يوسف بأن الله مَنّ عليه ببعض مُلْك مصر، لأن لفظة (من) دالة على بعضية هذا المُلْكْ لا كله، وهذا هو حقيقة الأمر، قال الأصم: إنما قال ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾ لأنه كان دون ملك فوقه.

ولعل يوسف أراد بهذه الجملة أن يشير إلى تعلق نفسه بعالم الأجسام، وصدّرها بلفظ الربوبية الدال على التربية والرعاية.

والجملة الثانية: يعترف فيها يوسف بأن الله مَنّ عليه بتأويل الأحلام والرؤى حتى كان لايشق له غبار فى ذلك، غير أنه مع قدمه الراسخ فيها عَبرّ عنها بلفظ (من) الدالة على التبعيض أيضا، لأنه لم يؤت التأويل كله، وفوق كل ذى علم عليم، وهذا من عظم أدبه وتواضعه وحُسْن خُلُقُه.

ولعل يوسف أشار بهذه العبارة إلى تعلّق نفسه بحضرة جلال الله تعالى وعالم الأرواح، وهذان النوعان يُضاف إليهما نوع ثالث فتكون مراتب الموجودات ثلاث:

أولها : مؤثر لا يتأثر وهو الله تعالى.

ثانيهما: متأثر لا يؤثر وهو عالم الأجسام.

ثالثهما: مؤثر ومتأثر وهو عالم الأرواح.

فعبارة يوسف الأولى وهى ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ تشير إلى الثانى، وعبارته الثانية وهى ﴿عَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ تشير إلى الثالث، وهذان النوعان لانهاية لدرجاتهما من حيث الكمال والنقص والقوة والضعف والجلاء والخفاء، لهذا حصل للإنسان منهما مقدار متناه، ولذا جاء تعبير يوسف عنهما فى غاية الدقة حيث عبرّ بلفظة (من) الدالة على التبعيض.

وهاتان الجملتان السابقتان، وإن كانتا تفيدان الاعتراف بالنعمة والإجلال والثناء لمانحهما، فهما متضمنتان للدعاء، لأن الاعتراف بالنعمة اعتراف بموجدها، وثناء عليه، والثناء على موجد هذه النعم متضمن للدعاء والطلب أن يديمها ويزيدها. . إذ الثناء والشكر يديمان النعم، ويحملان أيضا على الدعاء المجدد لها شبابها على الدوام.

أما الثناء على الله ففى قوله ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض﴾ أى يامبدع السموات والأرض وخالقهما على غير مثال سابق، فهو لم يرد بانفطار السموات والأرض أصل معناه، وإنما أراد بالانفطار الإيجاد، للإشعار بأنهما أى السموات والأرض حال عدمهما، كانا فى ظلمة فلما دخلا فى الوجود صارا كأنهما انشقا عن العدم وخرجا منه[1].

لهذا قال ابن عباس رضى الله عنهما: ماكنت أدرى معنى الفاطر حتى احتكم إلىّ أعرابيان فى بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها وأنا ابتدأت حفرها.

وقال أهل اللغة: أصل الفطر، الشق يُقال: فطر ناب البعير إذا بدا، وفطرت الشىء فانفطر أى شققته فانشق، وتفطر الأرض بالنبات أى تصدعت، وكذلك كل منشق عن شىء. . ولقد خصّ يوسف السموات والأرض بالذكر لعظمتهما، التى

(١) يشير القرآن إلى أن السماء كانت دخانا (كتله غازية ذات جزيئات) على هيئة سديم فى الخلق الأول. قال تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ ويشير القرآن أيضا إلى عملية الفتق للكتلة الفريدة الأولى التى كانت عناصرها فى البداية ملتحمة فى بيضة كونية ملتهبة، ثم انفجرت فى (البيج بانج) وأن هذا الانفجار هو المسئول الأول عن التوسع فى الكون، وهــو سبب بعض الظواهر المقاسة فى الوقت الحاضر (مثل إشعاع الخلفية الكونية) قال تعالى ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.

وتشير التوقعات العلمية الحديثة إلى فكرة السديم الأولى عندما تكثف الدخان الكونى فى مركز السديم لتكوين الشمس بينما انفصلت الكواكب (ومنها الأرض) من حواف هذا السديم طبقا لآراء لابلاس الذى اقترح هذا الفرض عام ١٧٩٦ م .

وهكذا يقدم القرآن الكريم فى آيتين موجزتين ملخصا دقيقا للظواهر التى أدت إلى تكوين العملية الأساسية لتشكيل الكون.

وأحدث نظرية عن الكون نشرت عام ١٩٥١ تنص على ان الـكواكب بما فيها الأرض تكونت من نجم عملاق يُدعى(Supernova) ولا علاقة لها بالشمس فى نشأتها (وانظر كتاب من دلائل الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسُّنة للدكتور موسى الخطيب: ص ٢٦٧-٢٦٩، ٢٨٤).

تشير إلى عظمة الخالق سبحانه وتعالى، ولكونهما بالنسبة للإنسان أساس كل شيء، فمن السماء؛ الإمداد الحرارى والنورانى والإروائى.. ومن الأرض الاستقرار والغذاء الحيوانى والنباتى... فهما من أعظم مظاهر قدرة الله وسعة ملكه، وواسع رحمته وعظيم نعمته وخيراته.

أما الدعاء الرمزى فهو ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ هذه الجملة اعتراف وثناء من يوسف عليه السلام لله، وعلى الله المتولى جميع أموره وشئونه الدنيوية والأخروية.. وما دام العبد معترفا بذلك فهو باعترافه هذا، يطلب من الله تعالى دوام هذه الولاية، وتلكم الرعاية والعناية، كما يطلب استمرارها ونمائها، وهذا هو الدعاء بعينه.

أما الدعاء الصريح فهو قوله ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ أى مطيعا لله غيرعاص ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ من آبائه الأنبياء: يعقوب وإسحق وإسماعيل وإبراهيم عليهم السلام، وهذه الدعوة التى دعا بها يوسف هى دعوة مشتركة بين جميع أنبيائه ورسله، وكان ذلك منهم تواضعا وتأدبا.. لذلك يقول ابن عباس رضى الله عنهما وكثير من المفسِّرين: أراد يوسف عليه السلام بالصالحين آبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب فى الدرجة والشرف، فهو يطلب من ربه أن يكون فى عدادهم وضمن صفوفهم.

ويقول الإمام الرازى: هاهنا مقام آخر من تفسير هذه الآية على لسان أصحاب المكاشفات وهو: «أن النفوس المفارقة إذا أشرقت بالأنوار الإلهية واللوامع القدسية، فإذا كانت متناسبة متشاكلة انعكس النور الذى فى كل واحد منها إلى الأخرى بسبب تلك الملازمة والمجانسة، فتعظم تلك الأنوار وتقوى تلك الأضواء.. ومثال تلك الأحوال المرايا الصقيلة الصافية، إذا وضعت وضعا، متى أشرقت الشمس عليها انعكس الضوء من كل واحدة منها إلى الأخرى، فهناك يقوى الضوء ويكمل النور وينتهى فى الإشراق والبريق واللمعان إلى حد لا تطيقه العيون والأبصار الضعيفة فكذا هاهنا»[1] أ . هـ

(١) الرازى (١٨/ ٢١١).

فائــدة

ويقول العلاّمة ابن القيم[1]: قوله تعالى عن يوسف نبيه أنه قال ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه والبراءة عن موالاة غيره ـ سبحانه ـ وكون الوفاة على الإسلام أجلّ غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لابيد العبد، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء.

(١) كتاب الفوائد لابن قيم الجوزية (ص. ١٩٦).

الفصل الثالث
دروس وعبر

فى أدعية يوسف ويعقوب عليهما السلام وقصتهما نرى ألوان من التربية الفاضلة، والأخلاق الطاهرة، والاستقامة على المبادىء الحقة وأثرها فى النفس، وهى موضع درس عميق فى علم النفس.

ذلك أن طيب الأصل، إذا آزره طيب البيئة، ووُجد الإنسان فى تلكم البيئة زمنا كافيا، فإنه ذلك يجعله يشبّ على أكمل الأوصاف وأروع الخصال، ويصيّره خيراً لاشر فيه، والإحساس بالشرف عامل حافز على الاستمساك بالفضيلة.

١- هذا يوسف بن إسحق بن إبراهيم - وكلٌ إذا أعدّ الرجال مقدّم - غُذّى بدرّ النبوّة، وارتضع أفاويق الرسالة، نشأه أبوه على التقوى والصلاح، وتعهّده بالأخلاق النبوية الكريمة، فنشأ أصلح نشأة، وأحسّ منذ صغره بمجد آبائه وأجداده، وأبوه يذكّره بأولئك الآباء الصالحين المصطفين الأخيار، ويمنّية أن يلحقهم ويسير على قدمهم، انظروا حين قصّ يوسف على أبيه رؤياه ماذا قال له؟ قال ﴿ **وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ** ﴾ [يوسف: ٦].

والأصول عليها ينبت الشجر:

أفعال من تلد الكرام كريمة   وفعال من تلد الأعاجم أعجم

وهكذا يكون الرجل الذى يرشح للنبوة، ويعده الله تعالى لنشر دينه ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

٢- أن يوسف عليه السلام قد شبّ على أكمل الأوصاف، عاملا بما علم من آبائه وأجداده الأنبياء صلوات الله عليهم، فكفّه ذلك عن اتباع الشهوات، بل حصر فكره وعمله فى موجبات الفلاح، وما يعقب رضا الله تعالى، فوعظ

السجينين ودعاهما إلى وحدانية الله، وترك الإشراك به، وعرض الدلائل النيِّرة التى تشهد بوجوده، وهى دعوة كل الأنبياء والرُّسل الذين أرسلهم الله لهداية الخلق.

لاجرم أن الله تعالى زاده علما على علمه، وفتح بصيرته وجعله ذا فطنه ثاقبة، وعلَّمه من تأويل الأحاديث، وقد عبرّ للسجينين عن رؤيا كل منهما، ودعاهما إلى الدين القيِّم، بعد أن أبان لهما قدرته على تعبير كل رؤيا، ولو كانت الرؤيا عن طعام يرزقانه لنبأهما بتأويلها قبل أن يأتيهما ذلك الطعام (معرفة المغيبات)

وماذا يعيب المرء فى مدح نفسه إذا لم يكن فى قوله بكذوب

ثم بيَّن لهما أن ذلك الإخبار بالمغيَّبات ليس بكهانة ولاتنجيم، وإنما هو وحى وإلهام من الله، الذى خصّه بذلك العلم لأنه من بيت النبوّة، وأنه اجتنب ملَّة قوم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، واتبع دين آبائه الأنبياء إبراهيم وإسحق ويعقوب، ثم بيّن لهما شناعة ما عليه أهل الشرك من تعدد الألهة وتكثير الأرباب، وأن دينه دين التوحيد، هو الدين القيّم، ولكن الناس فى غفلة منه، اقرءوا قوله تعالى: ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٣٧-٤٠]

٣- درس فى الصبر الجميل وقوة اليقين: الصبر من أعظم الفضائل وأجلها قدراً، ذُكر فى القرآن الكريم فى نيف وسبعين موضعا. وقد رتّب الله كثيراً من الخيرات والدرجات العالية على تحلّى الإنسان بفضيلة الصبر، حيث لم يجعل له جزاءً محدوداً ومكافأة معينة، بل جعله منوطا بكرمه الواسع، وجوده العميم بغير

وزن ولامعيار، مع أنه حدّد لكل مزيّة جزاءً معينا. اقرءوا قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾[الأعراف: ٣٧] ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾[آل عمران: ١٢٥] ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] وقال ﷺ «الصبر نصف الإيمان» وسُئل عن الإيمان فقال «الصبر والسماحة» [البقرة: ١٥٥].

الصبر: هو حبس النفس على ما تكره، وهو من خواص الإنسان التى تميّز بها عن سائر الحيوان فإن البهائم لا تحبس نفسها عن شهوة من الشهوات كالغذاء وغيره، ولا تنظر فى عواقب شىء من مشتهياتها، بل هى تنظر شهوتها الحاضرة فقط ولا تحبس نفسها عنها أصلا.

والصبرله أسماء تتجدد بالإضافة إلى معانى الصبر. فإن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج سُمى (عفّه)، وإن كان عن احتمال مكروه؛ فإن كان فى مصيبة سُمى (صبرا) وضده الجزع والهلع ـ وذلك بأن يسترسل فى لطم الخدود وشق الجيوب ـ وإن كان الصبر فى احتمال الغنى، بأن يجاوره بالشكر سُمى (ضَبْط النفس) ويقابله البطر، وإن كان الصبر فى الحروب وملاقاة الأهوال سُمى (شجاعة) ويضادها الجبن. وإن كان الصبر عند موجبات الغضب سمى (حلما) ويضاده التذمر. وإن كان الصبر عند نائبة مضجرة من نوائب الزمان سُمّى (سعة الصدر) ويضاده الضجر وضيق الصدر. وإن كان الصبر بإخفاء كلام يسوء غيره ظهوره سُمى (كتمان سر)، وإن كان الصبر على القدر اليسير من الحظوظ سُمى (قناعة)،وإن كان الصبر عن فضول العيش بأن اقتصر على أقل القوت سُمى (زهداً). اقرءوا هذه الآية الجامعة لكثير من أنواع الصبر

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ولقد ضرب يعقوب ويوسف عليهما السلام للناس المثل الأعلى فى الصبر.

فها هو يعقوب يتلقى نبأ فقدان يوسف ـ أحب أولاده إليه ـ وأن الذئب قد افترسه.

تصّور وقْعَ هذه المصيبة عليه، وما تحدثه فيه من انفعالات وجروح فى نفسه، ولكن ماذا كان رد الفعل فى نفس يعقوب؟

لقد رأينا يعقوب يظهر بمظهر المستعين بالله على هذه المصيبة، صابراً على هذا البلاء، ولكن بأى صورة من الصبر؟ إنه الصبر الجميل الذى لا يخالطه جزع ولا شكوى، فنراه ينطق بهذا القول الرائع ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**﴾ [يوسف:١٨].

وها هو يعقوب أيضا يتلقى صدمة قاسية، هى استرقاق ولده بنيامين، فهذه المصيبة ذكّرته بيوسف ففاضت أحزانه، فعندما لامه أهله على استرساله فى الحزن نراه يقول لهم ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [يوسف:٨٦] أى همّى العظيم إلى الله، وهو الرحيم القادر على كشف غمتى، ولا أشكو إلى العباد الذين لا حول لهم ولاقوة أمام تصاريف الدهر، ثم كانت إجابته هى نفس إجابته الأولى حين أتوه بقميص يوسف ملطّخا بالدماء، لكنه أجاب بصبر المؤمن المتفائل المفعم بالأمل، قال ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ [يوسف:٨٣].

أى لا أجد سوى الصبر محتسبا أجرى عند الله، عسى أن يجمع الله شملى بهم، ويقرّ عينى برؤيتهم جميعا، فهو العالم بحالى الحكيم فى تدبيره وتصريفه، فهو يقدم المثل الأعلى للصمود فى مواجهة المحن. وفى كل ما تقدم نرى يعقوب مؤمنا إيمانا عميقا بلطف العناية الآلهية، مستسلما لها بثقة ويقين، فلم ييأس بل اتجه إلى بنيه قائلا: ﴿**يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [يوسف:٨٧] فهو يحدد نفسية المؤمن بأنه لاييأس من رحمة الله، فاليأس كفر بنعمة الحياة وخالقها، لإنه يشل حياة الإنسان وإرادته، ويجعله عاجزاً عن السير فى ركابها، بينما الإيمان عدو اليأس اللدود، إذ هو الأمل والرجاء برحمة الله مهما ادلهمّت الخطوب، واكفهرّ الزمان، فإن مع العسر يسراً، وإن وراء الضيق فرجا.

٤- أما يوسف عليه السلام فقد بزَّ الرجال بصفاته الكريمة، وضرب الأمثال

العالية بأخلاقه الطاهرة، التى استمدها من آبائه المصطفين الأخيار، كما ضرب يوسف المثل الأعلى للناس فى كثير من أنواع الصبر:

أ- صَبَر على إيذاء إخوته له، وتجريدهم إياه من ثوبه، ولطمه ولكزه وإلقائه فى الجبّ بقصد إهلاكه.

ب- صَبَر على نعمة الله فجاورها بالشكر، وجانب البطر حين تمكن فى بيت سيده وصار صاحب الأمر والنهى، فلم يسىء استعمال المال بصرفه على الشهوات بل شكر لله ولسيِّده، ولم يدّخر من ذلك الغنى، ولم ينل منه إلا حاجته وكفّ عن الفضول فكان قانعا.

جـ- صَبَر على شهوة الفرج، وقد هيئت له فى جيش من المغريات يحفُّ به من كل ناحية، فالطالبة سيدته وربة نعمته، مع ما هى عليه من جمال ورغد، ورغبة فيه، وهو شاب ماطر شاربه فى إبان فيضه الحيوى، وأوان التهاب جذوة الشهوة، واحتشاد الدواعى الطبيعية، وانتظار الآمال والأمانى الجسام له إذا لبىّ، فلم يخرج من بين أولئك المغريات إلا إلى العفة متوجا بتاج الصبر عن الشهوات، واسقط منازعة دواعى الهوى وقهرها لباعث الدين، وكرم النفس، والحفاظ والوفاء لتراث أبائه الماجدين الأخيار، فنصر جند الرحمن على جند الشيطان.

د - مسَّته الضراء، وأُلقى فى غياهب السجن، فحالف الصبر الجميل وسعة الصدر.

هـ - خرج من السجن ومكّن الله له فى الأرض وجعله على خزائنها، وصار أهل القطر المصرى فى وثاقه، والنفوس بين حبسه وإطلاقه، وعزرائيل بين شفتيه، وكلمته فيها الحياة الطيبة أو الموت الزؤام، وجاء إخوته يمتارون وهم ثأره الذين أبدعوا به، وأودعوا عنده إساءتهم سَلَفا، فلم يجز شرهم بمثله بل صبر وغفر ولما قالوا له ﴿**أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ**

اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] فأظهروا ندمهم واعترفوا بخطئهم قائلين ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١] فأسبل ذيل عفوه على إساءتهم، وآجرهم، وسنّ التجاوز وقال لهم: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف: ٩٢].

فهو عفو عند المقدرة، وذلك من شيم الكرام، لذا قال عنه النبى ﷺ لما سُئل أى الناس أكرم؟ قال «يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله».

٥- وجوب العدل بين الأبناء : تعطينا قصة يوسف درسا وتوجيها فى كيفية معاملة الأبناء بالعدل والمساواة. فالطفل فى طبيعته غيور، حسود، محتاج إلى عطف وحنّو والديه، وأى إهمال له، أو انحراف فى مراعاة شعوره، يولد فيه حقداً دفينا نحو إخوته. والغيرة سريعة الحدوث بين الإخوة،فقد يؤدى إيثار الوالدين لأحد الأبناء على الآخرين إلى إذكاء العدواة بينهم،التى تتأجج على طول الزمن، مما يؤدى إلى قطع الروابط بين الأسر.. فهذا يوسف قريب من قلب والده يعقوب، لأنه توسّم فيه أمارات النبوّة، لذا آثره على إخوته، فأثار ذلك حفيظتهم وبغضاءهم، وظهرت أمارات ذلك عليهم مما دفع أبوه يعقوب إلى تحذيره عندما قصّ عليه رؤياه، وما تحمل من إرهاصات رفعته وعلوّ شأنه بأن قال له ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً﴾ [يوسف: ٥].

٦- درس فى العفّة: فى قصة يوسف .. صور للصراع الجنسى إطارها العفّة، وظلالها النقاء، وألوانها الطُّهر والإيمان، قدّمها القرآن لتبين المثل الأعلى لقوة الإيمان، وصدق اليقين، وضبط النفس، وغلبة العقل على العاطفة.

انظروا إلى يوسف وهو الفتى الغض الإهاب، المشتعل جمرة الشباب ـ الذى يقولون أن الجنون شعبة منه ـ مع فراغه وارتفاع شأنه فى بيت سيده ومع الحياة الجديدة التى هو فيها، والغنى الوافر الذى يتقلّب فى أعطافه، ويرغد فى أكنافه، ها هى امرأة العزيز معه فى البيت، وهى على قسط وافر من الجمال، تعرض عليه

مفاتنها وإغرائها، هى سيدته والحاكمة عليه، فى بيئة كلها مغريات بإرضاء الشباب وشفاء غلة النفس، تدعوه إلى نفسها فيعرض، وتلح عليه فيرفض أرادت قسره على ما فيه السعادة ظاهراً فأبى، ونازعته ثوبه فنبا استمساكا بمبدأ العفاف والتقوى، وحذراً من أن يكون عار آبائه وأجداده الذين علم عنهم العزوف عن كل ما يشينهم أو يخلّ بأوامر دينهم ونواهيه، وحفاظا لسيده الذى أكرم مثواه وأحله محل الولد، ومقابلة النعمة بالكفران ليس من دأبة ولا دأب أسرته وهى لا تصغى لعظة ولا تسمع لنصيحة، ولاترعوى عن غّى، تتفنن وتتحايل ويوسف يستعصم ويقاوم، وأحدثت عفّته ضجة ورجّه وبخاصة فى المجتمع النسائى بالمدينة، والتجأ يوسف إلى ربه مستغيثا، مستعيذاً من المكائد والمؤامرات التى حيكت له، حتى يذعن ويسلم ويرضخ ويخضع... واستجاب له ربه وفرّج كربه وحماه، وصرف عنه الكيد ما أبعده عنهن فى السجن، فسكنت المؤامرات، وسكتت الفتنة، وانتصرت العفة، وصفاء الصحيفة ونقاء الظاهر والباطن.

ولبث يوسف فى السجن بضع (سبع) سنين وهو مظلوم، فكان أكثر عزما وأكثر مضاء، لم تشغله قسوة السجن ومرارته عن أداء رسالته، وتكليف الله له، فوعظ وأفاد وعبرّ الرؤى مما علّمه الله، ودعا إلى عبادة الله الواحد الديان ونبذ الأصنام **﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾** [يوسف: ٤٠].

ومع أن أحداً سوى يوسف إذا جاءه أمر الإفراج والخروج من السجن، لابد أن يبادر إلى الخروج منه ويغتبط بذلك أيما اغتباط، لكن يوسف لم يتلهف للخروج، ولم يغتبط لهذه البشرى، بل رفض الخروج من السجن حتى يبرئ نفسه من التهمة، شرف نفسه وطهارتها آثر لديه من الخروج من السجن، فلم يشأ أن يقال عنه مجرم سُرَّ منه الملك فعفا عن جريمته وأخرجه من السجن، بل أبى أن يخرج إلا بعد أن يثبت أنه برئ الساحة نقى الصحيفة. فأرسل إلى الملك يبسط ظلامته ويطلب إليه إعادة التحقيق فيما نُسب إليه زوراً وبهتانا. فلمّا أجرى الملك التحقيق على وجهه وظهرت براءته، رضى بالخروج من السجن، مرفوع الرأس نقى الصحيفة موفور الكرامة. كل ذلك ينبىء عن نفس كريمة، وروح طاهرة،

وعزيمة صمّاء لا تسمع رقى الغواية، ولاتجيب داعى الجهالة، وهذا من أخلاق أولى العزم المستضيىء البصائر، المؤمنين حق الإيمان بالمبدأ الذى اعتنقوه. كل هذا أثار إعجاب الملك به، ففى المرة الأولى، عندما بلغه علمه تأويل الرؤيا وتدبير الأمور الصعبة قال ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾ [يوسف: ٥٠]، أما عندما تحقق نزاهته وشممه وإبائه سُرّ منه وقال ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤] فالملك رغب فى إسناد الوزارة إلى يوسف بعد أن لمس منه علما ونزاهة وعفة.

وقد أثنى رسول الله ﷺ على يوسف الصديق فى كرمه وصبره وحلمه فقال «لو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى» وكفى بهذا برهانا على عفّة يوسف ونزاهته عليه السلام.

٧- فوائد الإحسان: فى قصة يوسف ترغيب لفضيلة الإحسان، وبيان أثرها فى الفوز بسعادتى الدنيا والآخرة. والإحسان من أحسن ضد أساء، ويأتى بمعنى إتقان العمل، نرى ذلك جليا فى ثناء الله تعالى على يوسف وتكريمه أياه، فى قوله تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

فيوسف لم يؤت العلم والحكمة محاباة بل لسابق إحسانه، ونعمة العلم والحكمة أفضل نعم الحياة على ذوى النفوس الكبيرة ولاتقاس بهما نعمة المال.. وكذلك أعطاه الله السلطة والجاه والنفوذ جزاء إحسانه. اقرءوا قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

فهذه الآية وعد إلهى بأن من كان محسنا، مكنّه الله فى الأرض وأصابه برحمته، فليس هذا العطاء متعلّقا بشخصية، ولكنه مرتبطاً بالوصف..

وتأمل قوله تعالى ﴿وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. فما أحلى وقعها على النفس، فهى بلسم لأصحاب النفوس السامية المحسنة، وحافزاً لهم للاستمرار فى كفاحهم فى سبيل الإحسان.

والأفعال الحسنة التى يقدمها الإنسان لمجتمعه تُكسبه علوّ المقام وحُسْن الذكر، والعرفان بالجميل ممن يصيبهم إحسانه. وكل من أحسن عمله وأتقنه نال الجزاء الأوفى من إقبال الناس على صناعته، وثقتهم به، وتقديرهم له، تأمل قوله تعالى ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ۝ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٠، ٦١].

هذه هى فوائد الإحسان فى الدنيا، أما ثوابه فى الآخرة ففى قوله تعالى ﴿ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ [يوسف:٥٧]، وهو ولا شك أجلّ وأعظم من ثواب الدنيا.

٨- العظة البالغة: «الدنيا تتغير والحياة قُلّب فكن كريما».

إنكم ترون أن يوسف قد تقلب فى الحالتين، بين بؤس ورخاء، وتداولته أيدى ريحين، زعزع ورجاء، وهو كالذهب الإبريز لايزيد على التقلّب فى النار إلاصفاء، أو كالياقوت لا تؤثر فيه النيران، فبينما هو فى كنف أب يؤثره بالكرامة، ويحوطه بالمحبة، ويخاف عليه من الليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس، إذ هو فى يد إخوته يسومونه الإهانة والمذلّة، يضربونه ظالمين، ويلقونه فى غياهب الجبّ غير نادمين، وبينما هو على هذه الحال إذا هو يشم نسيم الحياة من جديد، ولكنها حياة الرِّق والعبودية، ثم انتقل إلى عبودية هى أشبه بالحرية إذ صار رئيس العبيد والخدم فى بيت سيّده، وبينما هو فى هذه النعمة التى يغبطه عليها كثير من الأحرار، إذ هو فى غيابة السجن بلا ذنب اقترف، ولا جريمة احترف، وبينما هو فى هذه الحال، إذ هو فى السجن يدعو إلى عبادة الله وحده، ويصد الناس عن كل ما سواه من الأرباب المتفرِّقين، وإذ هو يعبِّر الرؤى ويخبر بالأشياء الغائبة، ثم ترقّت به الحال إلى أن صار يعبِّر منام الملك، وينذره بقحط عقب رخاء، يعمّ كل منهما البلاد، فصيّره على خزائن الأرض واصطفاه لنفسه، واستخلصه لمملكته، فصار قسيم الملك وكافل المملكة المصرية وعليه إعاشة مصر والبلاد القريبة منها فهو «وزير التموين».

وبينما هو على هذه الحال لا ينقصه إلا أن يشاهد أباه وأمه ـ خالته ـ إذا هو بإخوته قد وقعوا فى شَرَكه، فداعبهم أجمل مداعبة، وعبث بهم عبث كلّه جد، واحتال عليهم حتى أتوه بأخيه لأمه وأبيه، ثم أتوه بأهلهم أجمعين.

وهو فى كل هذه الأطوار المختلفة متمسك بأكمل الخصال وجميل الأخلاق:

وإن امرأ دامت مواثيق عهده   عـلى مـثل هـذا إنه لكـريـم

فهذه القصة الجميلة وما ورد فيها من أدعية، عبرة وعظة بالغة، لا تلمح العبرة منها عين كل ناظر إليها، ولاينفذ إلى لبابها كل قارئ لها، ولكنها كما قال الله تعالى ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَاب**﴾ [يوسف: ١١١].





الباب الخامس

١- أدعية أيوب عليه السلام فى القرآن الكريم.

٢- دروس وعبر من أدعية أيوب عليه السلام.

٣- أدعية شعيب عليه السلام فى القرآن الكريم.

٤- دروس وعبر من أدعية شعيب عليه السلام.



الفصل الأول
أدعية أيوب عليه السلام فى القرآن الكريم

تمهـــيد:

أيوب عليه السلام من الأنبياء الذين قصّ الله علينا قصتهم فى القرآن الكريم قال تعالى مخاطبا رسوله محمد ﷺ:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوب﴾ [النساء: ١٦٣].

وأيوب من ذرية إبراهيم عليه السلام، قال تعالى ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الانعام: ٨٤]، وأمه بنت لوط عليه السلام، وامرأته هى ليا بنت يعقوب، وقيل رحمة بنت افرايم، وقيل منشا بنت يوسف بن يعقوب، وقال ابن عباس: سمُى أيوب لأنه آب إلى الله تعالى فى كل حال.

كان أيوب عظيم التقوى، رحيما بالمساكين، يكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضيف، وكان يدعو قومه إلى عبادة الله وحده، شأن رسل الله أجمعين صلوات الله وسلامه عليهم.

وقال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم: إن أيوب كان رجلا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه، من الأنعام والعبيد والمواشى، والأراضى المتسعة بأرض الثنية من أرض حوران، . . وكان له أولاد وأهلون كثير فسلب منه ذلك جميعه، وابتلى فى جسده بأنواع من البلاء، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر الله عز وجل بهما، وهو فى ذلك كله صابر محتسب، ذاكر لله عز وجل فى ليله ونهاره وصباحه ومساءه، وطال مرضه حتى عافه الجليس، وأوجس منه الأنيس، وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقه، وتعرف

قديم إحسانه إليها وشفقته عليها، فكانت تتردد عليه فتُصلح من شأنه، وتعينه على قضاء حاجته، وتقوم بمصلحته. وضعف حالها وقلّ مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر، لتطعمه وتقوم بأوده، رضى الله عنها وأرضاها، وهى صابره معه على ما حلّ بهما من فراق المال والولد، بعد السعادة والنعمة.. فلم يزده ذلك كله إلا صبراً واحتساباً، وحمداً وشكراً حتى ضُرب به المثل فى الصبر بما حصل له من أنواع البلايا. وروى أنه كان يقول كلما أصابته مصيبة: (اللهم أنت أخذت وأنت أعطيت).

واختلف العلماء فى مدة بلواه، قيل ثلاث سنين، وقيل سبع سنين وأشهرا، وقيل ثمانية عشرة سنة. وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ أن أيوب عليه السلام لما توفى كان عمره ثلاثا وتسعين سنة، وقيل إنه عاش أكثر من ذلك.

أدعيته فى القرآن الكريم

الدعاء الأول

قال الله تعالى ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٨٣ ، ٨٤].

لم يصرّح أيوب عليه السلام هنا بالدعاء وجاء على صورة الرمز، ولكنه وصف نفسه بالعجز والضعف، ووصف ربه بغاية الرحمة ليرحمه، فكان فيه من حَسْن التلطُّف ماليس في التصريح بالطلب، فاستجاب الله دعاءه، وأزال ما أصابه من ضر وبلاء ﴿ **وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ** ﴾ قال ابن مسعود: مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث، فلما عوفى أحياهم الله له، وولدت امرأته سبعة ذكور وسبع بنات[1] والمعنى أعطيناه أهله فى الدنيا ورزقناه من زوجته ما كان له

(١) هذا الأثر عن ابن مسعود أن الله أحيا أولاده بعد موتهم فيه نظر، لأنه لا يرجع أحد إلى الدنيا بعد انتقاله منها إلا ما كان من معجزة المسيح عليه السلام، والصحيح أن الله عوّضه من زوجته أولاداً مثل من فقدهم.

من الأولاد والأتباع ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أى من أجل رحمتنا إيّاه ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ أى وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر. قال القرطبى: أى وتذكيراً للعباد لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب ومحنته وصبره، وطّنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا مثل ما فعل أيوب وهو أفضل أهل زمانه(١).

وفى إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى تعليق على هذه الآية الكريمة، يقول العلاّمة القسطلانى: «وقد ابتلاه ربه بهذا المرض، فلم يبق سليما سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله عز وجل ووقعت فيه حكّة، فكان يحك بأظفاره حتى سقطت كلها، ثم حك بالمسوح ـ أى اللوفة الخشنة ـ حتى قطعها، ثم بالفخارة والحجارة الخشنة حتى تقطّع لحمه وتساقط فلم يبق إلا العظام والعصب، وهو فى ذلك صابر يحمد الله، ولذا كان عبرة للصابرين وذكرى للعابدين.. ومكث فى ذلك ثمانى عشرة سنة. ويُروى أن امرأته قالت له يوما: لو دعوت الله، فقال: كم كانت مدة رخائى، فقالت: ثمانين سنة. فقال: استحى من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى، ثم قال له الله تعالى: اركض (أى أضرب) برجلك الأرض فضربها، فنبعت عين فاغتسل منها، فرجع صحيحا»(٢).

الدعاء الثانى

قال الله تعالى ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤١-٤٤].

هذا هو الدعاء الثانى لسيدنا أيوب عليه السلام، والذى جاء على صورة الرمز والتلويح أيضا، ممثّلا فى شكايته، كما أن الهدف فى الاثنين واحد، وهو بيان ابتلائه ومناجاته ربه الذى كشف عنه ضره لصبره، ومنحه من النعم الوفيرة ما استرد به كل ما فُقد منه.

---

(١) القرطبى (١١/ ٣٢٧).

(٢) إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى - الجزء الخامس - باب مرض أيوب عليه السلام.

فالأسباب فى الآيات واحدة، وكذا الأهداف بل كثير من الألفاظ بحروف واحدة، فالضّر الذى أجمل فى سورة الأنبياء، فُصّل ووضح فى سورة ص، فى قوله تعالى ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. . والاستجابة التى وردت فى سورة الأنبياء، فُسِّرت فى سورة ص فى قوله تعالى ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ وذُيِّلت آيات الأنبياء بالثناء على الله، وبيان أن ما منّ الله به عليه من كشف ضُرّه، هو رحمة من عند الله تعالى وتذكره. اقرءوا قوله ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وقوله تعالى﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾.

وذُيِّلت آيات سورة ص بمثل هذا مع التفصيل، إلا أن الثناء هنا صادر من الله تعالى على أيوب لعظيم صبره. قال الله تعالى ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وقد أورد صاحب تنوير المقباس[1] المنسوب لابن عباس تفسيراً سهلا كريما للآيتين كعادته فلم يدخل فى التفاصيل ولا ذكر الكثير من الروايات. . ولذا أحببنا ذكره ففى تفسير آية الأنبياء يقول (وَأَيُّوبَ) أى واذكر أيوب، (إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ) إنى أصابتنى الشدة فى جسدى فارحمنى ونجنى (وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)، (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ) الدعاء (فَكَشَفْنَا) فرفعنا، (مَا بِهِ مِن ضُرٍّ) من شدة (وَآتَيْنَاهُ) وأعطيناه (أَهْلَهُ) فى الجنة الذين هلكوا فى الدنيا (وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ) ولداً فى الدنيا مثل ما هلكوا فى الدنيا (رَحْمَةً) نعمة (مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ) وعظة للمؤمنين.

وفى تفسير آية «ص»[2] يقول (وَاذْكُرْ) يا مُحمدّ لكفار مكة خبر (عَبْدَنَا أَيُّوبَ) عبدنا الصالح أيوب عليه السلام الذى ابتلى بأنواع البلاء فصبر (إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) أى حين نادى ربه متضرعا إليه قائلا: إنى مسّنى الشيطان بتعب ومشقة، وألم شديد فى بدنى، قال المفسّرون: وإنما نسب ذلك إلى الشيطان تأدبا مع الله تعالى، وإن كانت الأشياء خيرها وشرها من الله تعالى، وكان أيوب قد أُصيب فى ماله وأهله وبدنه وبقى فى البلاء ثمان عشرة سنة، وقد تقدمت قصته.

(١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس لأبى طاهر محمد بن يعقوب الفيروزابادى الشيرازى الشافعى صاحب القاموس المتوفى سنة ٨١٧ هـ.

(٢) مع الاستعانه بالتفاسير الأخرى لتتم الفائدة.

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أى قال جبريل يا أيوب أضرب برجلك على الأرض فضربها فنبعت له عين ماء صافية، فقال له جبريل اغتسل منه ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاغتسل منه فالتأم ما به، ثم قال له اضرب ضربة أخرى، فضرب فخرج منها عين أخرى فقال له جبريل: هذا شراب بارد عذب اشرب فالتأم ما فى جوفه، فباغتسالك يبرأ ظاهرك، وبشربك يبرأ باطنك، والجمهور: على أنه نبعت له عينان، شرب من إحدهما واغتسل من الأخرى فشفى[1]. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ الذين أهلكناهم ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فى الآخرة ويقال فى الدنيا قال الرازى: الأقرب أن الله متّعه بصحته وبماله وقوّاه حتى كثر نسله، وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك، وعن الحسن أنه أحياهم بعد أن هلكوا[2].

وقال أبو حيان: الجمهور على أنه تعالى أحيا له من مات من أهله، وعافى المرضى، وجمع من تشتت منهم[3] ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ أى نعمةً منا عليه وعظة لذوى العقول من الناس. قال ابن كثير: أى وذكرى لذوى العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج[4] ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ أى وقلنا له خذ بيدك يا أيوب قبضة من سنبل فيها مائة سنبلة، وقيل حزمة من القضبان الرفيعة فاضرب بها زوجتك «رحمة بنت يوسف الصديق» ولا تأثم فى يمينك، وكان قبل ذلك حلف بالله لئن شفاه الله ليجلدنها مائة جلدة، بسبب كلام تكلمت به لم يرض الله به.

قال المفسِّرون: كان أيوب قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوط إذا برئ من مرضه، وسبب ذلك أنها كانت تخدمه فى حالة مرضه، فلما اشتد به البلاء وطالت به المدة ووسوس إليها الشيطان، إلى متى تصبرين؟ فجاءت أيوب وفى نفسها الضجر فقالت له: إلى متى هذا البلاء؟ فغضب من هذا الكلام، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط، فأمره الله أن يأخذ حزمة من قضبان خفيفة فيها مئة عود ويضربها به ضربة واحدة ويبرّ فى يمينه، رحمة من الله به وبزوجه التى قامت

(١) البحر المحيط (٧/ ٤٠١).
(٢) التفسير الكبير (٢٦/ ٢١٥).
(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٠١)
(٤) مختصر ابن كثير (٣/ ٢٠٥).

على رعايته وصبرت على بلائه، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه، ولهذا قال تعالى ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً﴾ أى ابتليناه فوجدناه صابراً على الضراء ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إنه أَوَّاب﴾ أى نعم العبد أيوب إنه كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة والعبادة . وقال ابن عباس: مطيع لله، مقبل على طاعة الله، ويقول ابن القيم[1] معلقا على دعاء أيوب عند قوله تعالى ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٣]. . جمع فى هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة، إلى ربه، ووجود طعم المحبة فى التملّق له والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه، وقد جرب أنه من قالها سبع مرات ولاسيما مع هذه المعرفة، كشف الله ضره. . . (أ. هـ).

وفى الحقيقة أن نداء أيوب ليس من صريح الدعاء، وإنما هو إعلام وإعلان بحاله، تجمّل بالأدب الرفيع، ولبس ثياب الشكوى وما حلّ به من ضُرّ، وقد صدّره بلفظ الربوبية آملا فى الله تعالى أن يزيل عنه ما حل به، إذ الشكوى لاتُرفع إلا لمن يستطيع إزالة أسبابها، فكأن الشاكى يقول: أشكو إليك أمرى لعلمى بأنه لايفك كربى ولا يزيل همّى إلا أنت يا الله لهذا شكوت إليك ولم أشكُ إلى غيرك. لذا قرن أيوب شكواه بما يفيد ذلك، بل صرّح بالثناء الكامل على الله تعالى حيث قال ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. . ولابد من رحمتك، وها أنذا وما فيه من متعلقات رحمتك، وممن هم فى أشد الحاجة إلى رحمتك الواسعة، ولا مانع من أن يُعد هذا من دعاء الثناء. . ولقد أثنى أيوب على ربه كما ورد ذلك فى سورة الأنبياء، وأثنى الله تعالى عليه كما ورد فى سورة ص، فقال جل شأنه ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ولا يخفى ما فى ذكر لفظ «العبد» من التوبة بشأن أيوب ما فيه، حيث لم يجعل الله لفظ العبد قرين أنبيائه ورسله فى القرآن إلا فى مقام الثناء والمدح، وشتان ما بين الثنائين: ثناء العبد أيوب على ربه، وثناء الله على عبده أيوب.

(١) ابن القيم : هو شمس الدين محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ فى مؤلفه كتاب الفوائد: ص ١٩٥.

الفصل الثانى
دروس وعبر من أدعية أيوب عليه السلام

١- الصبر على البلاء: فى قصة أيوب وما أصابه من البلاء، وما دعا به ربه فى كشف ما نزل به، وما امتنّ الله به عليه من رفع البلاء، وما ضاعف له بعد صبره من النعماء. كل ذلك فيه درس للمؤمنين بأن يكون أيوب قدوة لهم فيما يصيبهم من ابتلاء، لأن البلاء لم ينج منه الأنبياء، بل هم أشد الناس ابتلاء كما قال ﷺ «أشد الناس بلاء: الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه»[1].

فيظهر لنا أن البلاء لايدل على الشقاء، فإن السعادة والشقاء فى هذا العالم لا يترتبان على صالح الأعمال وسيئها، لأن الدنيا ليست دار جزاء، بل هى دار امتحان ومزرعة للآخرة، وإن عاقبة الصبر على البلاء هى مضاعفة الأجر، فإن أيوب لما امتحن صبر وشكر، فكان من رحمة الله له أن أعاد إليه صحته، و أعطاه أضعاف ما فقده من رزق وولد، لذا جعل الله فى قصته عظة وتذكيراً للعباد، لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وصبره، وهو أفضل أهل زمانه، وطّنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا.

والصبر من أعظم الفضائل وأجلّها قدراً، وقد رتّب الله كثيراً من الخيرات والدرجات على تحلّى الإنسان بفضيلة الصبر، حيث لم يجعل له جزاء محدوداً ومكافأة معينة، بل جعله منوطا بكرمه الواسع وجوده العميم بغير وزن ولا معيار، لهذا كان الصبر خلق الأنبياء، وسلاح المتقين والمصلحين، ما نجح نبى ولازعيم ولا مصلح إلا به، وقد أوصى الرسول ﷺ بفضيلة الصبر و التحلّى به فقال (الصبر نصف الإيمان)، وسُئل عن الإيمان فقال (الصبر والسماحة)، وقال (ومن يتصبّر يصبره الله وما أُعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر) ومن الكلمات الجامعة المشهورة عند العرب (الصبر مطيّة النصر).

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

٢- وجوب التداوى: فإن الله تعالى أمر أيوب أن يشرب ويغتسل.. وكان بإمكانه تعالى أن يشفيه دون اللجوء لاتخاذ هذه الوسيلة للتدواى، وكل شئ له سبب.

٣- الرِّفق بالزوجة الصالحة: وقد أحسنت زوجته عِشْرته أيام محنته، ولأن المحُسْن يُثاب من جنس عمله، لذلك أمر الله أن يبرّ فى يَمينه مع زوجته بأسهل طريق، وجعل له رخصة مسهلة ليتحلل بها من قسَمه، إكراما لها لما بذلته مع زوجها نبى الله أيوب.

والنساء شقائق الرجال، وإخلاص الزوجة فى الأمن قد يغنى عن نكرانه فى الشدائد والملمات.. فالزوجة المؤمنة الوفية لاتترك زوجها حتى الشفاء أو لقاء الله.

٤- اللجوء إلى الله عند الابتلاء: فى قصة أيوب وأدعيته درس فى الالتجاء إلى الله والابتهال إليه، كما ابتهل أيوب، والتضرّع إليه سبحانه وتعالى، وذكره باسمائه الحسنى وصفاته العليا حتى يكشف عنا ما يصيبنا من بلاء.

٥- جواز بث الشكوى إلى الله مالم تقترن بالجزع وعدم الرضا.

٦- التأدب فى مقام الله واجب فلم ينسب أيوب المسّ إلى الله وإنما نسبه إلى الشيطان.

٧- الدعاء التلويحى قد يكون أدعى للقبول من الدعاء الصريح.

٨- اقتران الدعاء بالثناء دليل التوحيد الخالص والأدب الجم ومبعث الأمل.

٩- مآل التحمل والصبر وصدق النية الفوز والنجاة ورضا الله تعالى.

١٠- النجدة الإلهية أسرع إلى العبد، إذا ما أخلص فى الدعاء،وتحقيقها بأيسر الأشياء.

١١- التوكُّل والاعتماد على الله خير طريق لفكِّ الكرب وإزالة الهموم.

١٢- الثناء الإلهى على من امتثلوا أمر الله وكانوا فى دين الله خير قدوة تؤتسى.

١٣- إخبار الله تعالى عن أيوب أنه كان كثير الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله.

١٤- ضرورة تنفيذ وجوب النَّذر.

الفصل الثالث
أدعية شعيب عليه السلام فى القرآن الكريم

شُعيب هو أحد أربعة أنبياء عرب هم: هود وصالح وشُعيب ومحمد ﷺ، ويسمِّيه المفسِّرون خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته قومه، وبراعته فى إقامة الحجة عليهم، ودحض حججهم.. وكان شعيب ممن آمن بإبراهيم، وهاجر معه ودخل معه دمشق، وزوَّجه إحدى بنتى لوط عليه السلام[1].

قومه وعبادتهم

أما قومه فهم شعب مدين بن إبراهيم عليه السلام، ويعبَّر عنهم فى التوراة بمديان، ومساكنهم فى قرية تقع فى أرض معان، من أطراف الشام، مما يلى الحجاز قريبا من بحيرة لوط.

كان أهل مدين عربا، وكانوا فى عيش رغيد، وهم مع ذلك أهل تجارة، وكانوا لايؤمنون بالله ويعبدون سواه، وكانوا من أسوأ الناس معاملة، يطفِّفون الكيل والميزان، ويماكسون الناس فى سلعهم إرادة شرائها بثمن بخس، فبعث الله فيهم رجلا منهم، هو رسوله شعيب عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، ونهاهم عن كل ذلك، وحذّرهم بأس الله تعالى، فأنكروا عليه ما جاء به أشد الإنكار، وهو دائب على نصحهم وهدايتهم. وقد جاءهم ببيِّنة من ربه على صدقة بما يدعو إليه، غير أن الله تعالى لم يذكر فى الكتاب الكريم هذه البيّنة، وقد تنوّعت أقوال المفسِّرين فيها بما لابرهان لهم به، فالأولى التسليم لعلم الله تعالى.

وكان أهلِ مدين يقعدون على الطرق، يرصدون الناس الذين يأتون إلى شعيب، ليصدّوهم عن الدين، ويعيبون طريقته، ويتوعّدون من آمن بشعيب بالنكال، ويبغون سبيل الله عوجا.

---

(١) قصص الأنبياء : لابن كثير (١/ ٢٨٨، ٢٨٩).

ولعل البيِّنة هى الطريقة الواضحة المقبولة فى العقل، وهى شريعة من الله أتاهم بها.

وقد جهدوا جهدهم فى إبطال دعوة شعيب، فقد كانوا يقولون ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ ويحتقرون شأنه بقولهم ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ ظنا منهم أن القوة ميزان الصدق فى القول وهو ضلال منهم، ثم يتهددونه بقولهم ﴿وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

آمن بشعيب قلّة من المؤمنين بالله، وكفر بدعوته أكثرهم، ولكنه لم ييأس بل أقام فيهم يدعوهم، وكررّ النصح لهم بإيفاء الكيل والميزان وعدم نقصها، وألا يبخسوا الناس أشياءهم، ونهاهم عن الإفساد فى الأرض بقطع الطريق، والإغارة على الناس وإهلاك الزرع، ونهاهم عن صدِّهم الناس عن دعوة الله: دعوة الحق والكرامة والخلق.

وذكَّرهم بأنهم فى خير، وأنهم الآن كثرة بعد قلّة، وحذَّرهم عاقبة انحرافهم، وبصرّهم بنهايات من سبقوهم من الأمم، ممن كانوا على شاكلتهم تكذيبا لرسلهم، ومحاربتهم لرسالات الله، فقال لهم ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[هود: ٨٩، ٩٠][١].

فما كان جوابهم إلا أن قالوا ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

فاستجاب الله اقتراحهم، وحلّ بهم ماطلبوا حينما حان موعده ووقته الذى حدّده الله له.

ولقد كان لشعيب أثناء مدة إقامته بين قومه أدعية وتضرعات، رفعها إلى خالقه، يطلب فيها الفتح والنصر، حتى يظهر للخلق معدن الحق ونقاؤه.

وسوف نذكر بمشيئة الله تعالى أدعيته مرتّبة حسب الترتيب القرآنى لها، كما جاءت فى سور الأعراف وهود والشعراء والعنكبوت.

---

(١) لا يجرمنكم: لا يكسبنكم، شقاقى: معاداتى..

الدعاء الأول

قال الله تعالى على لسان نبيه شعيب عليه السلام ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[الأعراف:٨٧].

قصد شعيب عليه السلام بقوله هذا أمرين:

الأول: تسلية المؤمنين برسالته.

الثاني: زجر العصاة الكافرين من قومه، لهذا فهو يقول لمن آمن به: أصبروا على ما أصابكم من هؤلاء الكافرين، فالأمر بالصبر هنا بشارة لهم، ووعد بما أعدّه الله لهم من نعيم مقيم، وجنات عرضها السموات والأرض.

وبالنسبة للكافرين فهو تهديد لهم على ما ارتكبوه من المعاصى والسيئات.. ثم علّل الأمر بالصبر بقوله ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.. فهذه الجملة وإن كان ظاهرها الإخبار إلا أنها متضمنة لمعنى الدعاء باستعجال الحكم بينه وبين قومه الذين كفروا برسالته، إذ هو يطلب من الله أن ينصر المؤمنين به فيعلى درجاتهم فى الدارين، وينزل الذلّ والصّغار بالكافرين فى الدنيا والآخرة..

ولما أحرج شعيب قومه بدعائهم إلى ما لا يريدون من الإيمان بالله، وحُسْن المعاملة والاستقامة على الجادة، اجتمع ملأ قومه وهدّدوه هو والذين آمنوا معه بإخراجهم من القرية إذا لم يدخلوا فى دين قومهم، فراجعهم بقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾[الأعراف:٨٨] أى أتجبروننا على الخروج من الوطن أو العودة فى ملتكم ولوكنا كارهين لذلك؟ والاستفهام للإنكار.

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف:٨٩] أى إن عدنا إلى دينكم بعد ان أنقذنا الله منه بالإيمان، وبصّرنا بالهدى، نكون قد افترينا على الله كذبا، وهذا تيئيس للكفار من العودة إلى دينهم ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف:٨٩] أى لا ينبغى ولا يصح لنا أن نعود إلى ملتكم ودينكم إلا إذا شاء الله لنا الانتكاس والخذلان فيمضى فينا قضاءه.

ثم عرج شعيب على الثناء على مولاه ليجعله ممهداً وموطنا لدعائه الذى يرجوه من ربه فيقول ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الأعراف:٨٩] ولعل شعيبا أراد بهذه العبارة أن تكون أمتداداً لقوله ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[الأعراف:٨٩] فيخلق المصلحة فى تلك العبادات فحينئذ يكلفنا بها، والعالم بالمصالح ليس إلا من وسع علمه كل شىء، أو لعل شعيبا أراد بهذه العبارة إضافة قسم ثالث فلما قالوا له: إما أن تخرج من قريتنا وإما أن تعود إلى ملّتنا، عندئذ قال شعيب: وإما أن نبقى فى قريتكم من غير عود إلى ملّتكم، بل يجعلكم الله مقهورين تحت أمرنا فى ذلة وخضوع تحت حكمنا لأن علم الله وسع كل شىء، فربما كان فى علمه هذا القسم الثالث.

ثم أثنى على مولاه ثناء آخر فقال ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[الأعراف:٨٩] بهذا القصر البلاغى يكون توكّل شعيب على الله، إذ به يعزل كل العلل والأسباب جانبا، ويرتقى إلى مسبب الأسباب فيتوكل على الله وحده، ويصبح التوكل على غيره لاشىء.. فهو الكافى لمن توكّل عليه.

بعد النقاش والجدال مع قومه، وبعد هذه العبارات التى أثنى بها على مولاه، يتوجه إليه بالدعاء قائلا:

الدعاء الثانى

﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾[الأعراف:٨٩] وهذا الدعاء الصريح هو عين ما قاله سابقا وهو ﴿ فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾[الأعراف:٨٧] فشعيب يطلب من ربه أن يكون حكما بينه وبين الكفرة من قومه وفى معنى الفتح تتفاوت آراء العلماء .. ومنها:

* قال ابن عباس: ما كنت أدرى قوله ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول لزوجها: تعالى «أفاتحك» أى أحاكمك.
* قال ابن عباس والحسن وقتاده والسدى: احكم واقض.
* وقال الفراء : أهل عمان يسمون القاضى الفاتح، والفتاح لأنه يفتح مواضيع الحق.

* وقال الزجاج وجائز أن يكون قوله ﴿افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أى أظهر أمرنا حتى ينفتح بيننا وبين قومنا وينكشف.

والمراد من ذلك استنزال العذاب عليهم، ليثبت لهم بطلان معتقدهم.. كما يدل على كون شعيب والمؤمنين به على الحق الذى لاريب فيه.. ثم يثنى بعد هذا الدعاء على دعاءه بين ثنائين، وحاشا لله أن يردّ دعاء على هذه الصورة.

الدعاء الثالث

ثم يأتى دعاؤه الثالث فى سورة هود:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود:٨٨].

ظل القوم على عنادهم بعد أن نصحهم شعيب وحذّرهم وأنذرهم، فأرداهم حُمقهم إلى القول ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[هود:٨٧] ردوا عليه على سبيل السخرية والاستهزاء فقالوا: أصلاتك تدعوك لأن تأمرنا بترك عبادة الأصنام التى عبدها آباؤنا؟ إن هذا لايصدر عن عاقل ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾[هود:٨٧] أى وتأمرك بأن نترك تطفيف الكيل والميزان. قال الإمام الفخر: إن شعيبا أمرهم بشيئين: بالتوحيد، وترك البخس فأنكروا أمره بهذين الشيئين فقوله ﴿وَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ إشارة إلى التوحيد، وقوله ﴿نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا﴾ إشارة إلى ترك البخس، وقد يُراد بالصلاة الدين والمعنى: دينك يأمرك بذلك؟ وأطلق عليه الصلاة لأنها أظهر شعار الدين، ورُوى أن شعيبا كان كثير الصلاة[1]، وكان قومه إذا رأوه يصلى تغامزوا وتضاحكوا، فقصدوا بقولهم ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ السخرية

(١) كان شعيب عليه السلام كثير الصلاة وكان قومه يقولون له: ما تستفيد بهذا؟ فكان يقول: إنها تأمر بالمحاسن وتنهى عن القبائح، فقالوا على وجه الاستهزاء: أصلاتك تأمرك أن تأمرنا بترك عبادة ماكان يعبد آباؤنا، أو أن نترك التبسّط فى أموالنا ما نشاء من إيفاء ونقص وجاز أن تكون الصلاة آمرة مجازاً، كما سمّاها الله تعالى ناهية مجازاً (تفسير النسفى ٢/ ٢٠١).

والهزء، كما إذا رأيت معتوها يطالع كتبا ثم يذكر كلاما فاسداً فتقول: هذا من مطالعة تلك الكتب[١].

﴿إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾[هود:٨٧] أى إنك لأنت العاقل المتصف بالحلم والرُّشد؟ قال الطبرى: يستهزئون به، فإنهم أعداء الله قالوا له ذلك استهزاء، وإنما سفهوه وجهلوه بهذا الكلام[٢].

فكان أن صدّر دعاءه هذا على سبيل الرمز والتلويح ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أى قال لهم شعيب أخبرونى إن كنت على برهان من ربى وهو الهداية والنبوة ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أى أعطانى المال الحلال، فقد كان عليه السلام كثير المال. قال النّسفى فى تفسيره: والجواب محذوف دل عليه المعنى أى أخبرونى إن كنت على حجة واضحة، ويقين من ربى، وكنت نبيا على الحقيقة أيصح لى أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان، والكف عن المعاصى؟ والأنبياء لايُبعثون إلا لذلك[٣].

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أى لست أنهاكم عن شىء وأرتكبه وإنما آمركم بما آمر به نفسى ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ لا أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه إلا إصلاحكم، وإصلاح أمركم بقدر استطاعتى﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ أى ليس التوفيق إلى الخير إلا بتأييده سبحانه ومعونته ﴿عليه تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى على الله سبحانه اعتمدت فى جميع أُمورى، وإليه تعالى أرجع بالتوبة والإنابة.

وهو بقوله ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يشير إلى محض التوحيد، حيث لا ينبغى للإنسان أن يتوكل على أحد سوى الله تعالى، وكيف يتوكل على ما سواه، وكل ما سواه مخلوق له تعالى، وممكن لذاته وكان بذاته، ولايحصل إلا بإيجاد الله وتكوينه، وإذا كان الأمر كذلك.. لم يجز التوكل إلا على الله تعالى.

---

(١) تفسير الرازى (١٨/ ٤٢).

(٢) الطبرى (١٢/ ١٠٣).

(٣) تفسير النّسفى (٢/ ٢٠١).

كما أن قوله ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ يدل على أنه لا مرجع للخلق إلا إلى الله تعالى.

ظل شعيب عليه السلام يراجعهم ويقيم الحجة عليهم إلى أن تأذن الله بهلاكهم. قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[هود: ٩٤، ٩٥].

قال القرطبى: صاح بهم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم من أجسادهم[١] فأصبحوا فى ديارهم موتى هامدين لاحراك بهم، وذكر فى الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٩١]، وهى الزلزال فبادوا ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢] أى كأن لم يعيشوا ويقيموا فى ديارهم قبل ذلك ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥] قال الطبرى: أى ألا أبعد الله مدين من رحمته بإحلال نقمته، كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته بإنزال سخطه بهم[٢].

وبعد أن فرغ الله من أهل مدين، ونجّى شعيبا والذين آمنوا معه، أرسله إلى أصحاب الأيكة وهى غيضة ينبت فيها ناعم الشجر، كانت بقرب مدين، تسكنها طائفة من عباد الله، قيل كانوا بادية مدين، وكان شعيب أجنبيا عنهم، وكانوا على مثل طريقة أهل مدين فلما نهاهم عما هم فيه قالوا ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥، ١٨٦] ظنا منهم أن الله لايرسل إلى البشر هداة منهم، جهلا منهم بأن الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وكان من شدة حماقتهم أن يطلبوا إلى شعيب أن يسقط عليهم من السماء كسفا ـ أى قطعة منها ـ إن كان من الصادقين، فدعا شعيب ربه للمرة الرابعة بكلمات حملت معنى الدعاء الرمزى دون التصريح به فقال:

(١) القرطبى (٩٤-٩٥).
(٢) الطبرى (٩/ ٩٢).

الدعاء الرابع

﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٨].

فشعيب لم يدع على قومه بهذه الجملة صراحة بل تلويحا حيث فوّض الأمر إلى الله، ولشدة جهلهم لم يطلبوا الهداية إلى الله، بل استمروا على تكذيب رسول الله شعيب وعصيانه، فأخبرهم عذاب يوم الظلة بأن سلّط الله عليهم الحر سبعة أيام حتى غلت مياههم، ثم ساق إليهم غمامة فاجتمعوا للاستظلال بها من وهج الشمس فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا، إلى ذلك الإشارة فى قوله تعالى ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

قال ابن كثير : ذكر فى سورة هود أنه أتتهم صيحة، وفى الأعراف رجفة، وفى الشعراء عذاب يوم الظلة، وهم أُمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذُكر فى كلٍ سياق مايناسبه[١].

قيل صاح بهم جبريل فرجفت بهم الأرض أو رجفت أفئدتهم، وقد حبس الله عنهم الريح أى الهواء الذى يتنفسون سبعة أيام، وسلط عليهم الرمل فأخذ بأنفاسهم حيث لم ينفعهم ظل ولاماء، فاضطروا إلى الخروج إلى البرية فأظلتهم سحابة، وجدوا لها برداً ونسيما، فاجتمعوا تحتها فأمطرتهم ناراً فاحترقوا.

وروى الكلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لم يعذب الله تعالى أُمتين بعذاب واحد إلا قوم شعيب، وقوم صالح، فأخذتهم الصيحة من تحتهم، وأما قوم شعيب فأخذتهم من فوقهم.

فاصبحوا فى ديارهم موتى هامدين، لاحراك لهم، ملازمين لما كتب الله عليهم من العذاب لايتحولون عنه.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير (١/ ٣٠٠، ٣٠١).

الفصل الرابع
دروس وعبر من أدعية شعيب عليه السلام

١- الحضّ على الأمانة والاستقامة

من الدروس التى نستخلصها من قصة وأدعية شعيب عليه السلام، الدعوة إلى الأمانة والاستقامة فى البيع والشراء، وترك الغش بالمكاييل والأوزان، والإفساد فى الأرض، لأن ذلك يؤدى إلى سخط الله والتعرّض لغضبه وعتابه، كما فعل بقوم شعيب جزاء فسادهم، أما حذّرهم شعيب بأس الله تعالى، فانكروا عليه ما جاء به أشد الإنكار، وهو دائب على نصحهم وهدايتهم. . قوله ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقوله ﴿وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٤ ، ٨٥].

لقد كان الإسلام أبعد نظراً، وله السبق دائما فى إقرار الأنظمة الصالحة للمجتمعات البشرية، من تلكم الدول المتمدنة التى باتت تحرص أشد الحرص على ضبط المكاييل، ومراقبة الأوزان، وتعرُّض المتلاعب بهما لأشد العقوبة. فالإسلام لا يكتفى بهذا بل يرتقى إلى أعلى مرتقى من النموّ حين قال ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، فالشىء هنا يشمل الأنواع الحسية فى كافة معاملات الناس، والتى يندرج فيها المكاييل والأوزان، كما يشمل المعانى المعنوية من احترام الناس، وتقديرهم حسب فضلهم ومعطياتهم وتضحياتهم للمجتمع، ووضع الفرد المناسب فى المكان المناسب حسب كفاءاته ومؤهلاته العلمية.

فهذه الجملة الكريمة ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ وصيّة من الله تجمع الخير من أطرافه، وتجرى مجرى الأمثال ـ فما أحرانا أن نرددها دائما، ونسير حسب توجيهاتها لنجنى ما تحمله من خير وصلاح للمجتمع.

٢- الدعوة إلى الإصلاح وأسسه: فى قصة شعيب وأدعيته، يوضح لنا القرآن الطريقة التى يجب أن يسلكها المصلح، ليكون ذا أثر فعّال فى إصلاح مجتمعه: قال الله تعالى حكاية عن شعيب ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

قف قليلا عند قوله ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ يؤكد شعيب لقومه فى هذا القول أنه لايفعل ما ينهاهم عنه، فهنا درس للمصلح بأن عليه أن يراعى فى سلوكه أرشد المراعاة كل كلمة، وكل تصرّف يصدر عنه، فالسلوك يؤثر أكثر من الكلمات، والقدوة الحسنة هى أعظم الأسوة، فمهما صدر من المصلح من خطب ومواعظ فلن يكون لها الأثر الفعال فى نفوس مستمعيها، إذا لم يكن قائلها هو أول العاملين بها، لهذا ذم الله هذا الصنف من الناس الذين يأمرون بالبر ولا يلزمون أنفسهم به قال تعالى ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤]، وفى ذلك يقول القائل:

لاتنه عن خُلق وتأت بمثله　　　عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

ثم ننتقل إلى الجملة الكريمة فى قول شعيب ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ فرغبة شعيب فى الإصلاح، رغبة مجردّة لوجه الله، بعيدة عن أى أغراض مادية أو منفعة ذاتية، وهكذا كانت دائما غايات الأنبياء وأهدافهم على مراحل التاريخ، مما جعل الفوز حليفها، وهذه هى الطريق التى يجب على كل مصلح أن يسلكها ليصل إلى النجاح، وتحقيق ما يؤمن به من المثل العليا، فالإصلاح المجرد من أى غاية وهوى النفس، هو الذى يُكتب له فى النهاية الفوز والنجاح.. ذلك هو الحق وتلكم رسالته، والحق دائما هو المنتصر.. وأما الغايات والأهواء الخاصة فكثيراً ما تفضح نفسها فتنكفىء ويكون الخسران مآلها.. وكيف

لاتنتصر الحقيقة والتى مصدرها خالق الكون ومدبّره؟! وهذا ما أشارت إليه الآيات فى ختامها ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود:٨٨].

وتظهر لنا أيضا بوضوح براعة شعيب، وتلطّفه فى مراجعة قومه، وإقامة الحجة عليهم، لهذا ينبغى على المصلحين والدعاة التلطف فى النقاش فى عرض دعواهم، وعند مجادلة الخصم حتى لو كان على خطأ وضلال، ولذلك يقول المصطفى ﷺ حينما كان يذكر سيدنا شعيب عليه السلام قال (ذا خطيب الأنبياء) لحُسْن مراجعته فى كلامه مع قومه.

٣- إن الله يمهل ولا يُهمل الكفرة والمشركين : فقد استجاب الله دعاء رسوله شعيب فأنزل بهم العذاب، وقد تعدّدت عليهم النقم لسوء فعالهم، قبحّهم الله، وتعدّد العذاب حيث بدأ بالصيّحة فالرّجفة فالظُّلة.

٤- رحمة الله بشعيب ومن آمن معه، حيث أمرهم بالخروج قبل نزول العذاب لذلك يقول الكلبى: «أخرج من بين أظهرهم ولم يُعذب قوم نبى حتى يخرج من بينهم».



الباب السادس

أدعية موسى الكليم عليه السلام

١- ولادته وإرضاعه وتربيته فى بيت فرعون وخروجه من مصر إلى أرض مدين وسببه.

٢- أرض مدين ونزول موسى بها.

٣- موسى بالوادى المقدس: بعثته وأخيه هارون عليهما السلام.

٤- موسى عليه السلام بعد المناجاة ودعوته لفرعون.

٥- كفاح موسى وقومه : معجزة العصا واليد وإيمان السَّحَرة.

٦- مصير فرعون وقومه.

٧- فى الطريق إلى أرض الميعاد.

٨- دروس وعبر من أدعية موسى عليه السلام.



الفصل الأول
أدعية كليم الله موسى عليه السلام

ولادته ورضاعته وتربيته فى بيت فرعون

هو موسى بن عمران بن فاهت بن لاوى بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم[1].

ولد موسى بمصر فى الوقت الذى كان فيه فرعون مصر[2] يذبح من يولد من الذكور من بنى إسرائيل، وذلك إثر منام رآه أن زوال مُلْكه سيكون على يد وليد من بنى إسرائيل، قيل إنه أمر بذبح الذكران سنة، وإبقائهم سنة، وكان من بنى إسرائيل رجل عبرانى يقال له عمران - (عمرام) بالعبرى - بن فاهت بن لاوى بن يعقوب عليه السلام قد تزوج من عمته يوكابد بنت لاوى ـ كما هو مقتضى الآية (٢٠) من الإصحاح الثانى من سفر الخروج ونصّها «وأخذ عمران يوكابد زوجة له فولدت له هارون وموسى» ومعلوم أن زواج العمّات لم يكن قد نزل الأمر بتحريمه[3]، لأن ذلك إنما كان على يد موسى بعد خروج بنى إسرائيل من مصر، وأنجب أيضا بنتا سماها «مريم». وُلد هارون فى السنة التى يتُرك فيها الولدان، ثم أنجب موسى فى «سنة التقتيل» فخافت عليه أمه من الذبح، فألهمها الله أن تصنع له تابوتا، ثم تضعه فيه وتلقيه فى النيل، ففعلت وناطت بأختِه أن تتبع أثره، وتعلم علمه، وكان الله تعالى قد أعلمها أنه رادُّه إليها وجاعله من المرسلين. كما قال تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧].

---

(١) نقلا عن العهد القديم، سفر التكوين.

(٢) هو رمسيس الثانى، أما ابنه منفتاح فهو فرعون الخروج.

(٣) قال الشيخ النجار: قد ينكر بعض الناس صحة زواج العمات، وأنا أقول أنه ثابت تزويج آدم أولاده من بناته، فتزوج من بعض منهم من الأقارب بالأولى، وما ثبت من حلّ التزويج بالقريبات لا يحظر إلا بشرع جديد يأتى بعدم الإباحة العامة ـ ونحن أُسراء النص ـ فمن أراد أن يثبت حُرْمة هذا النوع من الزواج فى ذلك العهد فعليه أن يأتى بالنص القاطع على ذلك (قصص الأنبياء لفضيلة الشيخ النجار: ص ١٥٨ ط. الحلبى).

حكى العلامة القرطبى عن الأصمعى أنه قال: سمعت جارية أعرابية تنشد:

استغفر الله لذنبى كله ... قتلت إنسانا بغير حله

مثل الغزال ناعما فى دلّه ... انتصف الليل ولم أُصلّه

فقلت: قاتلك الله ما أفصحك؟ فقالت: ويحك أو يُعدّ هذا فصاحة مع قول الله عز وجل﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فقد جمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين[1].

فالتقطه آل فرعون، وألقى الله محبته فى قلب امرأة فرعون فقالت له: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [القصص:٩]، وأقام الرضيع فى بيت فرعون عازفا عن كل مرضع، وقد حرّم الله عليه ثدى النساء، حتى تقدمت إليهم أخته قائلة: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ [القصص:١٢]، فاستجابوا لقولها، وهذا تدبير من الله لموسى وأمه لأنه سيعود إليها لتكون ظئراً له وتتقاضى على إرضاعه أجراً، وهى آمنة كيد الكائدين وسعى السّاعين، وصدق الله إذ يقول ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص:١٣].

فرده الله إلى أمه باسم ابن فرعون، فتربى ونشأ فى كنف فرعون وزوجته، حتى بدا منه ذات يوم فعل استقبحه فرعون وتشاءم منه، وهو إمساكه وهو طفل بلحيته وهزَّها هزاً عنيفاً، وقد كان هذا الفعل سبباً فى همٍّ فرعون وعزمه على قتله لولا أن امرأته طلبت منه التمهل والتريّث حتى يستبين أمره، وهل هو متعمد أم مخطىء، فقدَّمت له مختبرة، تمرة وجمرة بحضرة فرعون، وانتظرت ماذا يفعل ذلك الصغير؟ فاتجه بطبيعة الأطفال إلى ما يلفت الأنظار، حيث وجد لمعانا وضوءاً، ومد يده إلى الجمرة، وسرعان ما وضعها فى فمه فلسعته حتى امتد أثرها من وقتئذ إلى يوم بعثته حتى وفاته.

---

(١) تفسير القرطبى (١٣/ ٢٥٢).

شبَّ موسى فى بيت فرعون، وكان أيداً قوى البأس وافر القوة، ولم تخف عليه أنه دخيل فى بيت فرعون، وأنه إسرائيلى من ذلك الشعب المضطهد من فرعون وآله، فكان ظهيراً للعبرانيين قومه وقد جاء فى الطبرى أنه من حين شب موسى وقوى، كفَّ عادية المصريين عن بنى إسرائيل، ومن الأمور الطبيعية أن يعرف فيه بنو إسرائيل الظهير والنصير، وأن يلجأ إليه المظلومون منهم[1].

خروج موسى من مصر إلى أرض مدين وسببه

قال تعالى ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

فهنا موسى قد بدأ مرحلة جديدة من حياته، سببها ظاهر وحكمتها خافية، لم تتجلَّ على حقيقتها إلا فيما بعد. فقد دخل المدينة (مصر) على حين غفلة من أهلها، إذ دخلها سراً دون أن يعلم به أحد، وقيل فى سبب دخوله المدينة على هذه الصورة إن فرعون كان قد خرج لبعض شأنه فى رحلة، وكان من عادته أن يكون موسى فى ركبه، فخرج هذه المرة ولم يكن موسى حاضراً، فلما حضر أخبر بذلك، فجدَّ فى طلبه، فدخل المدينة فى وقت يستريح الناس وقت الظهيرة، إذ يخلدون للراحة عند القيلولة. وبينما هو على حاله تلك حصل له ما حصل، إذ وجد الرجلين يقتتلان، هذا من شيعته، وهذا من عدوه، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه، فاستجاب موسى لهذه الاستغاثة.

وقيل فى سبب الاقتتال إن الإسرائيلى امتنع عن السُّخرة لثقل الحمل، إذ كلّفه القبطى بحمل شجر لمطبخ الملك، فأبى عليه ذلك، وصادف أن موسى ماراً، فاستغاث به الإسرائيلى ليمنع منه ظلم القبطى، فضربه موسى بجمع كفه أو بأطراف أصابعه، وذلك من قوة موسى عليه السلام، قال القرطبى: فعل موسى ذلك وهو لايريد قتله إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه وكانت القاضية[2].

---

(١) الطبرى (٢٠/ ٢٢).

(٢) القرطبى (١٣/ ٢٦١).

وندم موسى على ما فعله وقال فى نفسه: هذا الذى أتيت من عمل الشيطان ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾. قال الصاوى: نسبه إلى الشيطان من حيث أنه لم يؤمر بقتل القبطى، وظهر له أن قتله خلاف الأولى لما يترتب عليه من الفتن، والشيطان تفرحه الفتن ولذلك ندم على فعله[1] فكان منه هذا الدعاء.

الدعاء الأول

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٦ ، ١٧].

بعد أن قرر موسى أن هذا العمل شيطانى، لم يبرىء نفسه منه بل اعترف حقا أوهضما لنفسه بأنه ارتكب ظلما، لهذا لم يشعر براحة الضمير بل أحس بأن وخز عمله يؤلمه، فأراد محوه وإزالته وذلك لا يكون إلا بمن بيده المحو والإزالة والعفو، فتوجه إلى ربه بقوله ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ أى أمح هذا الذنب، واعف عنى ولا تؤاخذنى بخطيئتى، فاستجاب الله له بسبب صدق نيته، حتى جاءت الإجابة مقرونة بالفاء، لابحرف آخر من حروف العطف الدالة على التراخى، حيث قال المولى جل شأنه ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ بصيغة الماضى دلالة تحقق المغفرة وثبوتها له، وهذا من لطائف القرآن ودقة تعبيره، وسعة رحمة الله بالعباد. فموسى فى استغفاره بالفاء، عقب اعترافه بظلم نفسه فجاءت إجابة الله تعالى على النمط الذى استغفر به موسى ربه حيث قرن الله مغفرته لموسى بالفاء، ليقابل حُسْن خُلُقُ موسى بأوسع منه فضلا ورحمة. ولعل المغفرة التى طلبها موسى هى عدم مؤاخذته على ذلك الفعل الذى وقع خطأ، أو جانب الصواب والأولى يدل على ذلك أمران:

أ- قول الله تعالى ﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ حيث لم يُعرف فى هذا الوقت تصرف لموسى استوجب المغفرة.

ب- قوله تعالى ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ فعبارة موسى هذه تدل على أن الله تعالى ستر عن فرعون وجنده، هذا القتل الخطأ الذى

---

(١) حاشية الصاوى على الجلالين (٣/ ١١٢).

صدر من موسى، حتى مكّنه من الخروج من مصر متجها إلى مدين سالما. وهذا كله يستوجب على موسى عملا يقوم به، وعهداً يلتزم به أمام ربه، فأخذ على نفسه عهداً بألا يفعل ذلك ثانية وقال ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أى بسبب إنعامك علىّ بالقوة، وبحق ما أكرمتنى به من الجاه والعز، فلن أكون عونا لأحد من المجرمين أو ناصراً لأهل الشر[1].

فلما كان اليوم الثانى خرج إلى المدينة وهو يخاف افتضاح فعلته التى فعل، ولكن ماذا ينفع الاحتراز مع القدر؟.. هنالك قابل موسى الإسرائيلى الذى استغاث به بالأمس، وأعانه موسى على استغاثته وكان له ناصراً، قابله على صورة أخرى، قابله ﴿الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أى فإذا صاحبه الإسرائيلى الذى خلّصه بالأمس يقاتل قبطيا آخر، فلما رأى موسى أخذ يصيح به مستغيثا لينصره من عدوه ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ نصرتك بالأمس، وكان النصر إزهاق روح قضاءً وقدرا، والآن ماذا تنتظر منى أن أقدمه لك؟ أتريد اليوم أن توقعنى فى ورطة أخرى؟ وظهرت بوادر الغضب على وجه موسى الكليم، ومدّ يده يريد أن يبطش بالفرعونى، فظنها الآخر موجهة إليه، وأنه يشرع فى وكزه هو فصاح ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾[القصص: ١٩].

وعندما فاه بلفظ القتل وأنه هو الذى قتل نفسا بالأمس، والملأ فى بحث عميق عن القاتل، وجدها القبطى فرصة سانحة، وسبيلا إلى الانتقام، فجرى إلى قصر الملك، وناشد الحراس الدخول قائلا: إنه وجد القاتل بالأمس، وأخبرهم بالحقيقة.

الدعاء الثانى

﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

انطلق الفرعونى فأخبر قومه، ورفعوا الأمر إلى فرعون بأن القاتل هو موسى فأرسل إليه الذبّاحين. فى ذلكم الوقت خاف رجل شريف من آل فرعون قومه،

(١) قال الرازى: وفى الآية دلالة على أنه لا يجوز معاونة الظّلمة والفسقة (الرازى: ٢٤/ ٢٢٠).

وجاء إلى موسى من أقصى المدينة مسرعا ليسبق الذين يطلبون موسى من طريق مختصر ـ وأعلمه علم القوم وما دبّروا عليه، وذلك من فتون الله له، ونصح ذلك الرجل الشريف له أن ينجو بنفسه، ويفارق بلاد مصر حتى لاتمتد إليه أيديهم بسوء، فقبل منه موسى هذه النصيحة الغالية، وذهب على وجهه يريد أرض مدين. وإنما وُصِف الرجل بالشرف لأمرين:

الأول: أن من الأمثال الجارية «الأطراف سكنى الأشراف» وذلك أنهم ينالون حاجاتهم من المدينة بفضل مالهم من قوة وثروة، ويسعى إليهم أهل الحاجات بفضل مالهم من جاه وعز.

الثانى : أن الله عبّر عن نصيحته بقوله لموسى ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ والملأ القوم يملأون عين من يراهم مهابة وروعة، ولا يطلع على أسرار الملأ إلا من كان منهم، ولا يقف على ما يبيتون إلا من كان من طبقتهم، ولا يحجبون عنه سرهم، ومثل هذا لايكون إلا من أشرافهم وعلْيتهم، اقرءوا هذه الآيات:

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

خرج موسى من مصر خائفا على نفسه يترقب وينتظر الطلب أن يدركه فيأخذه ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ ثم التجأ إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء لعلمه بأنه لا ملجأ سواه ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٢١] أى خلصنى من الظالمين، واحفظنى من شرهم، والمراد بهم فرعون وملؤه .

الفصل الثانى
أرض مدين ونزول موسى بها

هى بلاد واقعة حول خليج العقبة عند نهايته الشمالية، وشمال الحجاز وجنوب فلسطين تُنسب إلى مدين، وتقول التوراة (مديان) بن إبراهيم عليه السلام، سُميت القبيلة باسمه وكانوا شاوية وفى الطبرى عن سعيد بن جبير أن ما بين مصر ومدين(غزة الآن) ثمان ليال، وكانت مدين هى البلاد التى وقع اختيار موسى على قصدها، والنزول بها، ولعله راعى صلة القرابة بين مديان بن إبراهيم وإسحق بن إبراهيم الذى من ذريته موسى عليه السلام.

وظاهر أن موسى خرج من مصر على عجل، فلم يتزود للطريق، ولم يعد للسفر عدته، معتمداً على الله فى هدايته إلى السبيل السوى فلم يكن فى قافلة أو رفقه فى ذلك السفر الشاق، لأن من يطلب النجاة بخيط رقبته، لايمكن أن يروى أمره، أو يعّد لسفره عُدّته. ويروى أنه لما وصل مدين كانت خضرة البقل تتراءى من بطنه من الهزال، لأنه كان فى الطريق يتقوت ورق الشجر، وأنه خرج حافيا، فما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدمه، وقد أضّربها السير الحثيث المتواصل.

الدعاء الثالث

قوله ﴿ ...رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤].

سار موسى حتى ورد ماء مدين، وقد أضناه السفر، وبلغ به الكلال مبلغه، فلا طعام ولاغذاء، بل نبات برى لايصلح لأكل الإنسان فجلس ليستريح عند ذلك الماء ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

وجد المرأتين تذودان غنمهما عن غنم القوم، لكيلا يؤذيا، فمن عادتهما أن تسقيا بعد أن يستقى غنم القوم. فرقّ لهما قلبه، ولانت عاطفته رغم مابه من التعب والإعياء.

ويروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين، وجد عليه أُمة من الناس يسقون، قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولايطيق رفعها إلا عشرة من الرجال، فإذا هو بامرأتين تذودان، قال: ما خطبكما؟ فحدثتاه فأتى بالحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوبا واحداً حتى رُويت الغنم وذلك من بركته عليه السلام.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

قال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى مدين، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيا، فما وصل مدين حتى سقطت نعل قدمه، وجلس إلى الظل، وهو صفوة الله فى خلقه، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترُى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمره[١].

سقى لهما دون ابتغاء أجر أو طلب مساعدة، بل سقى لله وفى الله ولم يطلب الأجر إلا من الله، إذ توجه إليه فقال ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

وهذا شأن الأنبياء حين تأتى الشدة لاينظرون إلا إلى الله، ولايطلبون إلا من الله، شأن أجداده إبراهيم ومن أتى بعده من دوحة النبوة.

قالها متوجها صادقا بينه وبين نفسه، وأسمع المرأة ما قال ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

أى أنى يارب محتاج إلى فضلك وإحسانك.

قالها وآوى إلى الظل، وابن عباس وغيره من أهل التفسير يقولون إنما طلبه الطعام، ويقول بعض المفسرين: إنه أسمع المرأتين هذا القول تعريضا حتى يكون له

(١) مختصر ابن كثير (٣/ ١٠).

منهما ما يقوله، وهو ليس معه درهم ولادينار ولاما يؤكل، فكانت دعوته كدعوة المظلوم سريعة الإجابة.

ومن جهة أخرى فإن غرس الجميل قد أثمر وأتى وأكل فى أقل من ساعة، والله يضاعف الحسنات لعباده المخلصين.

عادت المرأتان إلى أبيهما الشيخ فأنكر منهما تبكيرهما بالعودة على خلاف شأنهما كل يوم، وسألهما عن سبب ذلك فأخبرتاه بما كان، فقال لإحداهما، وهى التى سمعت قوله: اذهبى إليه فاحضريه، فوافته بمكانه قرب الماء، وقالت له والخجل[1] يأخذ منها ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥].

قال ابن كثير: وهذا تأدب فى العبارة لم تطلبه طلبا ومطلقا لئلا يوهم ريبة[2].

تبع موسى المرأة إلى منزل أبيها، وجعلها خلفه قائلا: إنا لا ننظر إلى أدبار النساء، ولكن انعتى لى الطريق وأنت خلفى، ويقول بعض المفسرين إنه إنما قال ذلك حين تبعها، وضربت الريح ثوبها فكشفت عن عجزتها فأخرها موسى وتقدم وقال لها: انعتى لى الطريق. موسى رجل رُبى على العزِّ فى بيت فرعون، مدللا فى نعيم دائم ورفاهية، وقد نزل به من الجوع ما اضطره إلى أن يرضى بأخذ أجر عمل من أعمال المروءة، والجوع يُرضى الأُسود بالجيف، وأحسبه لو كان فى بلهنية من العيش لم يرض أن يأخذ أجراً على زكاة قوته[3].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

جاء موسى إلى الشيخ فرحبّ به، وسأله عن خطبه وسبب مجيئه بعد أن قتل عنه سوّرة الجوع طبعا، فقصّ عليه موسى قصصه ولعله وقّفه على جلية أمره،

(١) قال عمر رضى الله عنه: لم تكن بسلفع من النساء خرّاجه ولأجه، الطبرى (٣٩/٢٠) والسلفع، الجريئة السليطة الجسور قاله الجوهرى.

(٢) ابن كثير (١١/٣).

(٣) قصص الأنبياء للشيخ النجار (ص. ١٦٧). الحلبى.

وفعل فرعون وجنوده ببنى إسرائيل من ذبح الأطفال الذكران وترك النساء، وأنه أفلت من شفارهم بأعجوبة، وقصّ عليه جميع الأدوار التى لقيتها أمه فى سبيله إلى أن قتل القبطى على غير عمد، وأنهم طلبوه ليقتلوه فهرب منهم إلى أن ورد ماء مدين فطمأنه ذلك الشيخ قائلا ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال الأب لموسى: نحن أحرار فى بلادنا، نسير بالعدل، فى بلدٍ لا سلطان لفرعون عليه، وقد نجاك الله من المجرمين.

مصاهرة الشيخ لموسى

لما جاء موسى إلى الشيخ وكلّمه وطمأنه، قالت إحدى بنتى الشيخ: وهى التى دعت موسى: يا أبت استأجره لرعى ماشيتنا ليكفينا مؤونة هذا العمل إن خير من استأجرت القوى الأمين.

ويذكر أهل التفسير أن أباها سألها عن أمانته وقوته من أين علمتيها؟ ونص عبارة الطبرى فى التفسير: فأحفظته الغيرة أن قال: وما يدريك ما قوته و أمانته؟ فقالت: أما قوته فما رأيت منه حين سقى لنا، لم أر رجلا قط أقوى فى السقى منه. وأما أمانته فإنه نظر حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أنى امرأة صوّب رأسه فلم يرفعه ولم ينظر إلىّ حتى بلغته رسالتك. ثم قال: امشى خلفى وانعتى لى الطريق ولم يفعل ذلك إلا وهو أمين، فسرى عن أبيها وصدّقها وظن به الذى قالت[1].

نشط الشيخ لرأى ابنته وطلب إلى موسى أن يخدمه برعى غنمه ثمانى سنوات فى نظير أن يزوّجه بإحدى ابنتيه، وأشار إليها وهى الصغرى وأنه إذا أجمل معه يتم عشر سنوات فقبل موسى على أنه بالخيار فى أى الأجلين، وتمت الصفقة بينهما على ذلك. اقرءوا هذه الآيات:

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٦، ٢٧].

(١) الطبرى (٢٠/ ٢٩).

قال القرطبى: فى الآية عرض الولى ابنته على الرجل، وهذه سُنّة قائمة، عرض الشيخ ابنته على موسى، وعرض عمر ابنته حفصه على أبى بكر وعثمان، وعرضت الموهوبة نفسها على النبى ﷺ، فمن الحُسْن عَرضْ الرجل وليتّه على الرجل الصالح، اقتداء بالسلف الصالح[1] وأكثر المفسرين على أن اسم ابنة الشيخ التى صارت زوجا لموسى «صفورة».

الدعاء الرابع

﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص:٢٨].

قضى موسى الأجل وهو الأتم الأوفى، وقد أجرّ نفسه فى المدة التى اتفقا عليها وأتمها على تمامها ـ على عفّة فرجه وطعام بطنه ـ فقد شرط من أوله ﴿أيما الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أى والله شاهد على ما تعاهدنا وتواثقنا عليه.

فقضى أطيب الوقتين وأتمهما، وما كان لنبى إلا أن يفعل ما يقول، ويتم شروطه كاملة، وذلك دليل الوفاء فى الأنبياء.

وقد روى الثورى عن عبد الله بن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة أبو بكر حين تفرّس فى عمر، وصاحب يوسف حين قال لامرأته ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف:٢١]، وصاحبة موسى حين قالت ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

واختلف المفسرون فى والد الفتاتين، وأرجح الأقوال، أنه شعيب النبى الذى أُرسل إلى أهل مدين.

وقد وفد على رسول الله ﷺ مَسلَمة بن سعد الغزى، فقال له رسول الله «مرحبا بقوم شعيب، واختان[2] موسى» هديت.

---

(١) القرطبى (١٣/ ٢٧١).

(٢) أختان : أصهار.

فلما قضى موسى الأجل، أمر زوجته أن تخبر أباها، ليأذن لهما فى السفر، وأن تسأله أن يعطيهما من غنمه ما يعيشون به، فأعطاهما ما ولدت من غنمه من قالب لون[1] ممن ولد فى ذلك العام.

وكانت غنمه سوداء حسناء، وتقول الروايات: أن موسى عليه السلام انطلق إلى عصاه فقسمها من طرفها ثم وضعها فى أدنى الحوض، ثم أورده الغنم فسقاها، ووقف بإزاء الحوض فلم تصدر منها شاة، إلا ضرب جنبها بعصاه شاة شاةً، فأتأمت وألبنت[2]، ووضعت كلها قوالب ألوان، وعصاه هذه هى التى أعطاها إياه شعيب عليه السلام، ليدرأ بها عن غنمه السباع.

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: لما دُعى نبى الله موسى عليه السلام، وصاحبه إلى الأجل الذى كان بينهما، قال له صاحبه: كل شاة ولدت على غير لونها، فذلك ولدها لك، فعمد فرفع حبالا على الماء، فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة، فولدن كلهن بُلقا إلا شاة واحدة، فذهب بأولادهن عن ذلك العام.

---

(١) قالب لون : يحتوى على ألوان (على غير لون أمها).
(٢) أتأمت : ولدت اثنين، وألبنت : كثر لبنها.

الفصل الثالث
موسى بالوادى المقدس (الطور)
بعثته وأخيه هارون عليهما السلام

فلما قضى الأجل المضروب حنّ إلى أهله ودياره مصر، بعد أن أعلم صاحبه بانتهاء الأجل المضروب فأقره عليه، وأعطاه الغنم كما وعد، هنالك سار موسى بأهله وغنمه، فسلك بهم فى ليلة مطيرة مظلمة باردة وفى الطبرى[1]: فلما كانت الليلة التى أراد الله بموسى كرامته، وابتداءه فيها بنبوته وكلامه، أخطأ الطريق حتى لايدرى اين يتوجه، فأخرج زنده ليقدح ناراً لأهله ليبيتوا عليها حتى يصبح ويعلم وجه سبيله، فصلد عليه زنده، فلم يور ناراً، فقدح حتى أعياه، ولاحت له النار فرآها تتوهج من جانب جبل الطور ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾[طه: ١٠] بقبس تصطلون، وهدى عن علم الطريق الذى أضللناه بنعت من خبير، فخرج نحوها فإذا هى شجرة من العليق، وبعض أهل الكتاب يقولون فى عوسجة أ.هـ.

ذهب موسى إلى مكان النار التى رأى والتى واعد أهله أن يأتيهم بقبس منها، أو يجد عليها هدى، فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن، فى الجانب الذى على يمينه فى البقعة المباركة التى تم فيها النداء، وكلم فيها موسى تكليما، وبُعث نبيا ﴿نُودِيَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[القصص: ٣٠] وفى موضع آخر قال له رب العزة ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ سمع موسى النداء، فاتجه ببصره صوبه فإذا الشجرة الخضراء تضىء بالنور والضياء، وهذا على غير المألوف، استمع إلى المناداة فوجد المناجاة. . وقال الله ﴿يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾[طه: ١١ - ١٣][2].

---

(١) هذا خلاصة قول مجاهد ،ابن عباس واختاره الطبرى (١٦/ ١٥٠).

(٢) قال صاحب الظلال: (إن القلب ليجف، وإن الكيان ليرتجف، وهو يتصور ذلك المشهد . . موسى فريد فى تلك الفلاة، والليل دامس، والظلام شامل ، والصمت مخيم، وهو ذاهب يلتمس النار التى آنسها من جانب الطور، ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب بذلك النداء العلوى ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (الظلال: ٥ / ٦٨).

فاخلع نعليك إنك بمناجاتنا، وأنت فى وادى الطهر، فالتمس بقدميك الأرض لتنال البركة، وتهيأ للمناجاة طاهراً زكيا، وقد بسطت لك بساط النور والهدى، فلاينبغى أن تطأه بنعليك، وتهيأ للمناجاة، فهذا أول أمر منا إليك، وقد اصطفيناك للنبوة واستمع لما أوحيه إليك، فقد جاءك أمر عظيم هائل متأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفا إليه ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾[طه: ١٤-١٦] أى أنا الله المستحق للعبادة لا إله غيرى فافردنى بالعبادة والتوحيد، وأقم الصلاة لتذكرنى فيها قال مجاهد: إذا صلى ذكر ربه لاشتمالها على الأذكار[١] وقال الصاوى: خص الصلاة بالذكر وان كانت داخلة فى جملة العبادات لعظم شأنها، واحتوائها على الذكر، وشغل القلب واللسان والجوارح، فهى أفضل أركان الدين بعد التوحيد[٢]، وأن الساعة آتية، قائمة لا محالة، وكائنة لابد منها، أكاد أخفيها، فلا أطلع على ميعادها أحداً غيرى، فقد أخفيتها عن الملائكة المقربين وعن الأنبياء والمرسلين، ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ أخفيتها لأُجزى كل عامل بعمله ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[الزلزلة: ٧، ٨] قال المفسرون: والحكمة من إخفائها وإخفاء وقت الموت أن الله تعالى حكم بعدم قبول التوبة عند قيام الساعة وعند الاحتضار، فلو عرف الناس وقت الساعة أو وقت الموت، لاشتغلوا بالمعاصى ثم تابوا قبل ذلك، فيتخلصوا من العقاب، ولكن الله عمّى الأمر، ليظل الناس على حذر دائم، وعلى استعداد دائم، من أن تبغتهم الساعة أو يفاجئهم الموت.

---

(١) الرازى (٢٢/١٩).

(٢) حاشية الصاوى على الجلالين (٣/ ٥٠).

آيات الرسالة

هنا أعلمه ربه وعلمه آيات الرسالة، ليكون على بينة منها ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾[طه:١٧] أى وما هذه التى بيمينك يا موسى؟ أليست عصا؟ والغرض من الاستفهام التقرير والإيقاظ والتنبيه إلى ما سيبدو من عجائب صنع الله فى الخشبة اليابسة بانقلابها إلى حيّة، لتظهر لموسى القدرة الباهرة، والمعجزة القاهرة. قال ابن كثير: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أى أما هذه التى فى يمينك عصاك التى تعرفها؟ فسترى ما نصنع بها الآن[١] ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أى أعتمد عليها فى حال المشى ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أى أهز بها الشجرة، وأضرب بها على الأغصان فترعاه غنمى ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ أى ولى فيها مصالح ومنافع وحاجات أخرى غير ذلك. قال المفسرون: كان يكفى أن يقول هى عصاى ولكنه زاد فى الجواب لأن المقام مقام مباسطة، وقد كان ربه يكلمه بلا واسطة، فأراد أن يزيد فى الجواب ليزداد تلذذاً بالخطاب، وكلام الحبيب مريح للنفس ومذهب للعناء.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ﴾ أى اطرح هذه العصا التى بيدك يا موسى لترى من شأنها ما ترى ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ أى فلما ألقاها صارت فى الحال حية عظيمة تنتقل وتتحرك فى غاية السرعة قال ابن عباس: انقلبت ثعبانا ذكراً يبتلع الصخر والشجر، فلما رآه يبتلع كل شىء خافه ونفر منه، وولّى هاربا[٢] قال المفسرون: لما رأى هذا الأمر العجيب الهائل، لحقه ما يلحق البشر عند رؤية الأهوال والمخاوف، لاسيما هذا الأمر الذى يذهب بالعقول، وإنما أظهر له هذه الآية وقت المناجاة تأنيا له بهذه المعجزة الهائلة، حتى لايفزع إذا ألقاها عند فرعون لأنه يكون قد تدرب وتعوّد ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه : ٢١] قال المفسرون: ادخل يدك فى فمها ـ وعلى موسى جبة من صوف فلف يده بكمه ـ وهو لها هائب ـ

(١) المختصر (٢/ ٤٧٢).
(٢) القرطبى (١١/ ١٩٠).

فنودى أن ألق كمك عن يدك، فألقاه عنها ثم أدخل يده بين لحييها، فلما أدخلها قبض عليها فإذا هى عصاه فى يده، ويده بين شعبتيها حيث كان يضعها، ومحجنها بموضعه الذى كان لاينكر منها شيئا. ثم قال ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أى من غير برص: قال ابن كثير: كان إذا أدخل يده فى جيبه ثم أخرجها تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر من غير برص ولا أذى[1] وقال الطبرى: وكان عليه السلام رجلا آدم أفتى جعداً طوالا، فأدخل يده فى جيبه ثم أخرجها بيضاء مثل الثلج ثم ردها فى جيبه فعادت كما كانت لونها[2].

أراه الله معجزتين «العصا، واليد» وهى بعض ما أيده الله به من المعجزات الباهرة، ثم أمره أن يتوجه إلى فرعون، رأس الكفر والطغيان ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ [طه: ٢٤].

فقد غادرته منذ مدة، ازداد فيها طغيانه، وعلا تكبّره، وأنت الآن له ولقومه رسول، وبيدك الأمر والتوفيق، ومعك الآيات البينات، وقد عرفت أركان الدعوة، وأتيت الدليل الصادق، والبرهان الساطع، وهنا طلب موسى العون.

الدعاء الخامس والسادس

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾[طه: ٢٥-٣٦].

إلى هنا تمت المناجاة الأولى، ورجع موسى رسولا مكلفا بأداء الرسالة، ذهب إلى موضع النار ليجد عندها خبراً، فوجد الخير كله، ذهب يستطلع طريق الصحراء، فرجع مستضيئا بنور الرسالة، كأن فى طلب القبس من النار، فرجع محملاً بفيضٍ من الأنوار.

---

(١) المختصر (٢/ ٤٧٣).
(٢) الطبرى (١٦/ ١٥٩).

ذهب خالى الوفاض من كل شىء، فرجع ممتلىء القربة من كل شىء. انصرف ليكلم الناس فكلمه مولاه، واجتباه واصطفاه.

﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾[الأعراف: ١٤٤].

ذهب وهو وحيد، فرجع ومعه وعد من مولاه أن يكون أخوه هارون مؤازراً وشريكا له فى الدعوة ينصره.

وأخيراً رأى البرهان وعلِم اليقين، وكان الرسول الكليم بالمناجاة، وهارون رسولا بالتبليغ عن موسى، وقد ألقى الله فى قلبه أن يلقى أخاه فى الطريق، فكان ذلك خاتمة المناجاة الأولى، والعلم بالرسالة وقد تيقن والبرهان معه.

فالمناجاة والأمر بالرسالة وشد العضد بأخيه، والعصا، واليد، وعرف إلى من سيرسل، وماذا يقول له، وقد تمت المناجاة الأولى، فكان دعاؤه السادس ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ أى قال موسى يارب قتلت قبطيا من آل فرعون وأخشى إن أتيتهم أن يقتلونى. قال المفسِّرون: هو القبطى الذى وكزه فمات، فطلب من ربه ما يزداد به قوة على مجابهة فرعون بإرسال أخيه هارون معه فقال: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ أى هو أوضح بيانا، وأطلق لسانا، لأن موسى كان فى لسانه حُبْسه، وقال ابن عباس: كان فى لسانه رتّه، وقيل تمتمة ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أى فأرسله معى معينا يبين لهم عنى ما أكلمهم به بتوضيح الحجج والبراهين ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ أى أخاف إن لم يكن لى وزير ولا معين أن يكذّبونى لأنهم لايكادون يفقهون عنى، قال الرازى: والمعنى ارسل معى أخى هارون حتى يعاضدنى على إظهار الحجة والبيان، وليس الغرض بتصديق هارون أن يقول له: صدقت، أو يقول للناس: صدق موسى، وإنما هو أن يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل، ويجيب عن الشبهات ويجادل به الكفار[1] ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أى أجابه الله تعالى إلى طلبه وقال له: سنقويك بأخيك ونعينك به، ونجعل لكما غلبة وتسلطا على

(١) الرازى فى التفسير الكبير (٢٤/٢٥٩).

فرعون وقومه ﴿ فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا ﴾ أى لاسبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب ما أيدتكما به من المعجزات الباهرات ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ أى العاقبة لكما ولأبتاعكما فى الدنيا والآخرة، وأنتم الغالبون على القوم المجرمين كقوله تعالى ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة: ٢١] ونقل عن السدى: فأقبل موسى إلى أهله فسار بهم نحو مصر حتى أتاها ليلا فتضّيف على أمه وهو لايعرفهم، فأتاهم فى ليلة كانوا يأكلون فيها الطفيشل (المرق) فنزل فى جانب الدار، فجاء هارون فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه فأخبرته أنه ضيف فدعاه، فلما أن قعدا تحدثا فسأله هارون من أنت؟ فقال: أنا موسى! فقام كل منهما إلى صاحبه فاعتنقه.

قال العلماء: ما نفع أخ أخاه كما نفع موسى هارون فقد طلب له من ربه أن يجعله وزيراً له، ويكرمه بالرسالة فاستجاب الله دعاءه وجعله نبيا مرسلاً[١].

تنبيه : ذكر تعالى بعض المنن على موسى وعدد منها ستا :

الأولى: إلهام أمه صنع الصندوق وإلقاؤه فى النيل ليُربىّ فى قصر فرعون ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ﴾ [طه: ٣٨، ٣٩].

الثانية : إلقاء المحبة عليه من الله تعالى بحيث لا يراه أحد إلا أحبه ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾[طه:٣٩].

الثالثة: حفظ الله ورعايته له بالكلاءة والعناية ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

الرابعة : رده إلى أمه مع الإنعام والإكرام ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [طه: ٤٠].

الخامسة : إنجاء موسى من القتل بعد قتله القبطى خطأ ﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ [طه: ٤٠].

---

(١) سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرون فى طريق الحج: أى أخ أمنّ على أخيه؟ فسكت القوم، فقالت عائشة لمن حول هودجها: هو موسى بن عمران حين شفع فى أخيه هارون فأوحى إليه قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ قصص الأنبياء لابن كثير.

السادسة : تكليم الله له بعد عودته من أرض مدين وتكليفه بالرسالة ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠].

أما قوله تعالى ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢] فمعناه أن الله تعالى يأمر موسى بأن يضم يديه إلى جنبيه إذا آنس من نفسه رعبا ورهبا من فرعون، فإن الله ينزل عليه السكينة والقوة على مقاومة ذلك فى هذا الحين، وهذه ليست من الآيات التى ضربها لفرعون، وإنما هى تأييد خاص من الله لموسى وكأنها تكاد تكون أمراً عزيزيا.

الفصل الرابع

موسى عليه السلام بعد المناجاة

ودعوته لفرعون

رجع موسى من المناجاة وفى نفسه انصياع للأمر الإلهى، وتنفيذه لما جاء به التكليم، وسار بأهله نحو مصر فوجد هارون فى انتظاره وقد أوحى الله إليه بما أوحى من أن يكون عضداً لأخيه فى رسالته، فاندفع موسى وأخوه إلى بيت فرعون.

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[طه: ٤٣، ٤٤].

فهنا أمر من المولى القدير إلى موسى وأخيه هارون، بأن يذهبا معا إلى فرعون ويلينا له القول، وينهجا معه سبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والإيمان بالله.

أُمر بالإلانة فى القول، وعدم الشدة فى الطلب، لأن فرعون متجبِّر متكبِّر يخشى منه عليهما، وهما فى بدء الرسالة، وكان موسى عنده وتربى فى بيته.

فإن قيل فقد قال الله لمحمد ﷺ ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾[التوبة: ٧٣، والتحريم:٩]، قلنا لأن طبع سيدنا ونبينا محمد ﷺ اللين واللطف، وطُبع موسى على الصلابة والقوة، فقال له: ارفق بفرعون ولا تفزعه بين الملأ، فإن الملوك يأنفون من التوبيخ بين الناس، ولهذا قالوا: لا ينبغى لأحد أن يقابل السلطان بما يكره، بل يكتب النصائح فى ورقة.

وقد كان فى أمر الله لهما ما أوصاهما به من الاحتياط والحذر من أمر فرعون.. وهنا قال: الدعاء السابع.

الدعاء السابع

﴿ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٥، ٤٦].

أى قال موسى وهارون: يا ربنا إننا نخاف إن دعوناه إلى الإيمان أن يعجل علينا العقوبة، أو يجاوز الحد فى الإساءة إلينا﴿ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦] أى لا تخافا من سطوته إننى معكما بالنُّصرة والعون أسمع جوابه لكما، وأرى ما يفعله بكما ذهبا بسمع الله ورؤيته، وتأييده ونصره، لايرهبهما شىء ولايخيفهما من فرعون أمر.

ذهب موسى وهارون وعندهما وعد من رب العزة، بأنه معهما يسمع كلامه وكلامهما، ويرى مكانه ومكانهما، لا يخفى عليه من أمو الجميع شىء وقد أعلمهما أن ناصية فرعون بيده جل وعلا، فلا يتكلم، ولا يبغى ولا يبطش إلا بإذن الله وبعد أمره، وفوق هذا، فالله معهما بالحفظ والنصر والتأييد.

ذهب موسى رسولا إلى فرعون وبنى إسرائيل، وذهب معه أخوه هارون رسولا إلى فرعون.

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ [طه:٤٧].

ذهبا حتى وصلا إلى بيت فرعون الطاغية، فقرع موسى الباب بعصاه، فسمع ذلك فرعون، أسمعه الله نقر العصا فملأه الغضب وقال: من هذا الذى يجرؤ على بيتى فى مثل هذا الوقت، وينقر الباب ولايستأذن الحراس؟ فقيل له: رجل بالباب يقول: إنه رسول رب العالمين إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين. فأمر بإدخاله، فدخل ومعه أخوه هارون، فقال لهما: من أنتما؟ ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ [طه:٤٧].

فنظر فرعون فإذا الذى يكلمه هو موسى فكان فيما قاله وذكرّه به: أنه رُبى فى بيت فرعون وليداً ولبث فيهم سنين من عمره، وهذا يقتضى أن يكون حافظا

للمودة حريصا على التباعد عن كل ما يغيظ فرعون وآله، فلا يروِّعهم بمعتقد غريب عنهم غير معروف لهم، وهو عبادة غير فرعون وآلهته، بل عليه أن يبادر إلى عبادة فرعون. ثم ذكرّه بفعلته التى فعل من قتل الرجل القبطى، وهربه على أثرها، فمن كان آثما إثمه لا يأتى بما هو أعظم منه، وهو حملهم على ترك آلهتهم وتقديس فرعون وترك التوجه إليه بالعبادة، فرد موسى على هذه المسألة الأخيرة بقوله ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء: ٢٠، ٢١].

دعوة موسى لفرعون للإيمان بالله

لما فرغ موسى مما قال، وذكر لفرعون أنه يريد إطلاق بنى إسرائيل ليعبدوا إلههم فى البرية - وفرعون رجل عات تدين الأمة المصرية بعبادته وتذعن بقداسته[1]، وقد فاجأه موسى بأمر لا يقره ولا يرضاه، وهو محاولة إنزاله عن عرش الربوبية، وواجهه بقول لم يقله إنسان

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾.. أتمن على بإحسانك إلي رجل منهم بأن أسأت إليهم جميعا حتى عبدتهم وصيرّتهم إلى ما هم فيه من الذل والهوان والتسخير والتحقير.

نظر فرعون فرأى قولاً سديداً، وفكراً جريئا، وحجة قوية، وإنسانا يتكلم بلسان لم يسمعه من قبل، فتملّى فى وجه موسى صائحا: ﴿مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قال ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٤] هو خالق السموات والأرض، والمتصرف فيهما بالإحياء والإعدام، وهو الذى خلق الأشياء كلها من بحار وقفار، وجبال وأشجار، ونبات وثمار، وغير ذلك من المخلوقات البديعة،

(١) كان الملوك فى قديم الزمان يحيطون أنفسهم بهالة من التقديس، ويضعون مكانتهم فى إطار من الالهية لا جهلا منهم بأنهم أناس لا يختلفون عن غيرهم، ولكنهم يفعلون ذلك تمويهاً على العامة حتى يأمنوا غائلة الثورات الهوج من الذين يطمعون فى تبوئ عرض الملك، مقدرين أن ذلك التقديس يحول بين النازعين إلى الثورة وبين ما يشتهون، وهذه كانت حالة نمرود فى عقد إبراهيم، وحال الذين أتوا بعد موسى من ملوك اليونان ثم الرومان، كما كانت حال الفراعنة فى مصر.

إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة، فهذا أمر ظاهر جلى فالتفت فرعون لمن حوله مظهراً العجب قائلا: ﴿أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾ واستمر موسى قائلا ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ أى حين لم يكن فرعون موجوداً ولا معبوداً فقال فرعون لملئه ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ لأنه جاءنا بشىء لا نعرفه ولا نقرّه فاستمر موسى قائلا: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ولما علم موسى وهارون عدم ارعواء فرعون عن غيِّه، وتماديه فى ادعاء الربوبية وأنه مكذب لامحالة، قالا له: ﴿أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ فقال لهما: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ فأفهمه أن الله هو الذى أحصى كل شىء خلقه، فهو الذى أعطاهم الحواس والعقول، وخلق لهم ما فى الأرض جميعا، وجعلهم فيها خلفاء، وصرّفهم فى خيراتها ومرافقها وما عليها من حيوان، وجعلهم مستخلفين فى كل ذلك، وهداهم إلى الانتفاع بكل شىء فى مصالحهم، كل فيما يصلح له.

فسأله فرعون عن القرون الأولى؟ وشرع يحتج بالذين لم يعبدوا الإله الذى يقول عنه موسى وقد مضوا! فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول لم يعبدوا ربك؟ بل عبدوا غيره. قال ذلك خروجا من المأزق الذى وقع فيه، وظن أنه خرج وألزم موسى الحجة، ولكن موسى الرسول أجاب بالقول الصريح، وأتى بالحجة البالغة.. فأحال علمها على الله الذى علم كل شىء من شؤونها، وأن ذلك فى كتاب، وأن الله لايضل عن أعمالهم ولاينس منها شيئا، وسيحاسب كل إنسان بما صنع. ثم ذكر من قدرته تعالى على ما صنع ويصنع ما تجب بمثله الحجة على قدرته وحكمته واستحقاقه للعبادة فقال ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾[طه: ٥٣] أى أخرج به أنواع النبات على تعدده وأزواجه، وتباين ألوانه.. وسهّل للإنسان ما يأكله، ولماشيته ما ترعاه، وأن من كانت هذه أعماله، كانت تلك الأعمال آيات يهتدى بها ذوى العقل السليم. ثم قال: إن الأرض منبتنا الذى أنبتنا الله منه، وفيها يعود الناس إذا فنيت حياتهم، ومنها يخرجون مرة أخرى لمجازاة كل بما صنع.

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[طه: ٥٣-٥٥].

فرعون يدعى الألوهية
ويأمر ببناء صرح يصعد به إلى السماء

لما ألح موسى على فرعون بالدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وهو فى ملأ من قومه، ولما كان ذلك يضعف من هيبته ويحط من قدره، أصدر أمره إلى وزيره (هامان) بأن يطبخ له الآجر ويبنى له صرحاً يأخذ فى السماء صعداً حتى ينالها ويطلع إلى إله موسى. ثم أردف ذلك بأنه يظن أن موسى كاذب فى أن له إلها سوى فرعون ولانظن أن فرعون كان من الجهل بدرجة أنه يأمل أن ينال السماء ببناء عال، ولكنه أراد أن يتغفل القوم الذين معه حتى لا يخامرهم شك فى قدرته. ويذكر المفسرون أن هامان بنى له الصّرح حتى بلغ نهاية ما قدر عليه من البناء، ثم صعد فرعون، وصوّب سهماً إلى السماء ورمى به فعاد إليه النصل مخضبا بالدم[٢]، فقال لملئه: لقد قتلت إله موسى. اقرءوا هذه الآيات.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾[القصص: ٣٨].

وفى سورة غافر ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾[غافر: ٣٦، ٣٧][٢].

(١) قيل غمس فرعون السهم بالدم خفية عن القوم.
(٢) أسباب السماوات: أبواب السماوات والطرق المؤدية إليها، تباب: هلاك وخسران.

الفصل الخامس
كفاح موسى وقومه
معجزة العصا واليد وإيمان السحرة

لما أعضل موسى وأخوه بفرعون ولم يجد السبيل إلى إقرارهما بألوهيته فطلب آية من موسى دليلا على صدقه ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾[الأعراف: ١٠٧ ، ١٠٨].

فهاتان آيتان تدلان على صدق موسى، الذى تكلم وحاور وداور وبلّغ الرسالة، وأخوه هارون معه معين مؤازر.

فما موقف فرعون؟ لم تتغير فيه المكابرة، ولم يستطع النزول عن عنجهيته بل تمادى فى غيه، وأخذته العزة بالإثم، واتجه إلى من معه من الملأ وقال ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[الأعراف: ١٠٩، ١١٠].

إلى هنا وقد لعب فرعون بعقول القوم، وحفزهم واستنجد بهم على موسى وأخيه، فماذا يفعل القوم إزاء هذا كله وقد استشارهم فرعون وأعلى من قدرهم بهذه المشورة؟

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾[الأعراف: ١١١، ١١٢].

وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام وتسخير الله تعالى لهم فى ذلك اليوم، ليجتمع الناس فى صعيد واحد،ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس فى النهار جهرة، وأمام الملأ والكل حاضرون شاهدون.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾[طه:٥٧-٥٩].

أرسل فرعون في مدائن مصر حاشرين يأتونه بالسَّحرة. وكان للسحر منزلة عظيمة في أرض مصر يعنى به الملوك والأمراء ويكافئون عليه. وهذا أمر لم يزل كشف الآثار المصرية يبين عنه إلى اليوم، فجاءوا بجمهور عظيم من السَّحرة كانوا مدلين أنفسهم واثقين من مقدرتهم على السحر والتصرف في الأعيان والعيون، وعرضوا لفرعون بالأمر الذى ينالونه مكافئة لهم عند تفوقهم فوعدهم بالأجر الجزيل، والزلفى لديه، وكان الجمع حاملا وفي يوم الزينة، ويظن أنه يوم وفاء النيل، فإنه كان أعظم أعيادهم.

راود السّحرة موسى هل يلقون سحرهم أو يلقى هو سحره أولا؟

فقال لهم موسى: بل ألقوا.. وكان عتادهم العصى والحبال فألقوها، فامتلأ المكان حيات وثعابين، وخُيِّل إلى موسى من سحرهم أنها تسعى، وأوجس في نفسه خيفة، فأمره الله أن يُلقى عصاه فإذا هي حية تسعى وإذا هي تبتلع حيات السّحرة وتتلقفها. فوقع الحق وبطل سحر السَّحرة، ودهش آل فرعون والملأ من قومه، علم السحرة أن السحر لا يفعل مثل ذلك، وإنما هي قوة إلهية صنعت هذا، فخرّوا ساجدين لله تعالى وآمنوا برب موسى وهارون، مفضلين ذلك على الأجر الذى كانوا يرجونه من فرعون، مستهينين بجزائه الذى سيوقعه بهم.

بهت فرعون، فأذهلته المفاجئة، وعلم أنه لم يعجز موسى، ولكن موسى أعجزه، فأراد أن يستر عوراه، فقال مخاطبا السحرة بحضرة الناس: ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾[الشعراء:٤٩]. أي هلا شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتي؟!

ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد، وكذب فأبعد قائلا: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾[الشعراء:٤٩].

وقال في الآية الأخرى ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:١٢٣].

قال هذا مع علمه بأن موسى لم يعرفهم، ولم يجتمع بهم من قبل بل كان

ثاويا فى أهل مدين، ولم يتصل بالسحرة بأية صلة . . ولكنه المقهور المغلوب يلتمس لنفسه العذر وإن كان لا يُغنى (ولابد للمغلوب من بادر العذر).

وهدد السَّحرة بقطع الأيدى والأرجل من خلاف. والتصليب على جذوع النخل، فلم يثنهم ذلك عن الإيمان، وقد نفَّذ فيهم ما هددهم به ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[الأعراف: ١٢٥، ١٢٦].

قال عبد الله بن عباس: كانوا أول النهار سحرة فصاروا آخره شهداء بررة!

الدعاء الثامن

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾[يونس: ٨٨، ٨٩].

كان موسى لايترك فرصة للدعوة إلى الله سواء أمام فرعون أو غيره انظروا إلى قول موسى لآل فرعون لما اتهموه بالسحر ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾[طه: ٦١].

وقوله لهم: ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾[يونس: ٧٧].

وهيهات! كذبت والله الظنون، وأخطأت الآراء، أن يعارض البهتان والسحر والهذيان خوارق العادات التى أجراها الديَّان، على يدى عبده الحكيم، ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان، الذى يبهر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان!

كانت عصارة هذه الأحوال كلها أن فريقا من بنى إسرائيل قد آمنوا لموسى وهم على خوف من فرعون ومن ملأ بنى إسرائيل أن يفتنهم لأنه كان مسرفا لايبالى ما يصنع، ويظهر أنهم كانوا شبابا لقوله تعالى ﴿إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ وقد أمر الله موسى وأخيه هارون أن يتخذا لهم بيوتا للعبادة فى مصر، ويقيمون فيها الصلاة لله تعالى،

قال ابن عباس: كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم[1]، وأمر الله موسى أن يطمئن اتباعه المؤمنين بدعوته، ويبشرهم بالنصر والغلبة على عدوهم.

وكان موسى يعتقد أن طغيان فرعون وملئه وإباءهم عن الإيمان به سببه: أن الله تعالى أغدق عليهم الأموال فى الحياة الدنيا ومتعهم بلذائذ العيش فقست قلوبهم، وظنوا بقاء ذلك النعيم فتمادوا فى طغيانهم ولم يصغوا إلى العظات التى يغاديهم بها موسى ويراوحهم، فحمله ما عناه من العناء فى إرشادهم، وما تحّمل من البلاء والعنف فى دعوتهم على أن يدعوا عليهم بأن يسد الله تعالى طريق هدايتهم، ويقل ما بأيديهم من المال الذى هو سبب طغيانهم وإسرافهم فى أمرهم، وأن يشد على قلوبهم ويبعدهم عن طريق الإيمان قال ابن عباس: أى امنعهم الإيمان ﴿فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ دعاء عليهم بلفظ النفى أى اللهم فلا يؤمنوا حتى يذوقوا العذاب المؤلم ويوقنوا به حيث لا ينفعهم ذلك، وإنما دعا عليهم موسى لطغيانهم وشدة ضلالهم، وقد علم بطريق الوحى أنهم لايؤمنوا فدعا عليهم قال ابن عباس: كان موسى يدعو وهارون يؤمّن فنُسبت الدعوة اليهما[2] ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ على فرعون وأشراف قومه ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ أى اثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الله وإلزام الحجة ﴿وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى لاتسلكا سبيل الجهلة فى الاستعجال أو عدم الاطمئنان بوعد الله تعالى، قال الطبرى: رُوى أنه مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة[3] ثم أغرق الله فرعون .

فائدة: قال ابن كثير: دعوة موسى على فرعون كانت غضباً لله ولدينه كما دعا نوح على قومه فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾.[نوح : ٢٦، ٢٧] ولهذا استجاب الله لموسى دعوته التى شاركه فيها أخوه هارون، كما استجاب دعوة نوح عليه السلام[4].

---

(١) الطبرى (١١/ ١٥٤).
(٢) البحر (٥/ ١٨٧).
(٣) الطبرى (١١/ ١٦١).
(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٩).

تمادى فرعون وقومه وإصرارهم على الكفر وصمود موسى واتباعه

رأى فرعون الآيات التى أتى بها موسى فتمادى فى كفره، وأصرّ على عناده، ولامه أشراف قومه على ترك موسى واتباعه يفسدون فى الأرض بالامتناع عن الأعمال التى سُخِّروا فيها، والخروج عن عبادة فرعون وآلهته، وأغروه بهم، وحّرضوه على قتلهم وتعذيبهم، فطمأنهم فرعون، وسكّن روعهم واعداً إياهم بقتل أبنائهم، واسترقاق نسائهم، مقراً بماله عليهم من القهر والغلبة والسلطان ثم اتبع القول بالعمل، وشرع يحقق وعيده السيىء فيهم.

وطبيعى أن يضج بنو إسرائيل بالشكوى إلى موسى مما حاق بهم من الحيف والجور، فوصاهم موسى بالصبر على هذا البلاء النازل، وأن يستعينوا بالله على احتماله، ووعدهم حُسن العاقبة إن اتقوا، فلم يكفكف ذلك دموعهم، ولم يخفف من مصيبتهم، وقالوا له ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أى أوذينا من قبل أن تأتينا بالرسالة ومن بعد ما جئتنا بها، يعنون أن المحنة لم تفارقهم فهم فى البلاء والعذاب قبل بعثة موسى وبعد بعثته.. فكان منه هذا الدعاء.

الدعاء التاسع

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٢٩].

أى لعل ربكم أن يهلك فرعون وقومه، ويجعلكم تخلفونهم فى أرضهم بعد هلاكهم، وينظر كيف تعلمون بعد استخلافكم من الإصلاح والإفساد، والغرض تحريضهم على طاعة الله وقد حقق الله رجاء موسى فأغرق فرعون، وملك بنى إسرائيل أرض مصر، قال فى البحر: سلك موسى طريق الأدب مع الله وساق الكلام مساق الرجاء[1].

---

(١) البحر المحيط (٤/ ٣٦٩).

الدعاء العاشر

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

استمر موسى فى دعوته وكثر مريديه، وزاد عدد متبعيه، فأرق ذلك فرعون وغاظه، وخاف على مُلكه الضياع ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ أى قال فرعون الجبار: اتركونى حتى أقتل لكم موسى ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أى وليناد ربه حتى يخلصه منى، وإنما ذكره على سبيل الاستهزاء، وكأنه يقول: لايهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى، وغرضه أن يوهمهم بأنه إنما امتنع عن قتله رعاية لقلوب أصحابه، قال أبو حيان: والظاهر أن فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنه نبى، وأن ما جاء به آيات باهرة وما هو بسحر، ولكن الرجل كان فيه خُبْث وجبروت وكان قتّالا سفاكا للدماء لأهون شيء، فكيف لا تقل من أحسّ منه بأنه يثلّ عرضه ويهدم ملكه، ولكنه يخاف إن همّ بقتله أن يُعاجل بالهلاك، وكان كلامه للتمويه على قومه وإيهامهم أنهم هم الذين يكفّون، وما كان يكفّه إلا شدة الخوف والفزع[1] ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أى إنى أخشى أن يغير ما أنتم عليه من عبادتكم لى إلى عبادة ربه ﴿أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ أى أو أن يثير الفتن والقلاقل فى بلدكم، ويكون بسببه الهرج، ولعله إنما يعنى بالفساد إطلاق بنى إسرائيل من أسر العبودية، ويفوت بذلك على فرعون وآله المنافع التى تعود عليهم من تسخير بنى إسرائيل فى الأعمال الشاقة، ولعل الأعمال التى كانت تؤدى إلى فرعون كانت على سبيل السُّخرة فى الأعم والأغلب وكما يقول المثل «صار فرعون واعظا!».

وعلى أى حال: أراد فرعون أن يبطش بموسى متحديا إلهه حتى لا يكون منه تبديل لدين القوم أو فساد أرضهم، ولكن موسى عاذ بالله من شر هذا المتكبر الذى لايؤمن بيوم الحساب، فكان عياذاً ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أى إنى استجرت بالله واعتصمت به ليحفظنى ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٤٥٩).

أى من شر كل جبار عنيد متكبر عن الإيمان بالله، لايصدّق بالأخرة، قال فى التسهيل: وإنما قال ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ ولم يذكره باسمه ليشمل فرعون وغيره، وليكون فيه وصف لغير فرعون بذلك الوصف القبيح[1].

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/٥).

الفصل السادس
مصير فرعون وقومه

أخذت فرعون وقومه العزة بالأثم، وعتوا عن أمر ربهم، وتمادوا فى تكذيب موسى، واستمروا فى إعنات نبى إسرائيل وإيقاع ضروب الاذلال والإهانة بهم، وعندئذ أمر الله تعالى موسى أن يعلن فرعون وقومه بأن الله تعالى سيوقع بهم العذاب جزاءً لهم على تكذيبه، وامتناعهم عن إطلاق بنى إسرائيل، فكانوا كلما وقع بهم عذاب بعد انباء موسى إياهم به، وعدوه بالإيمان به تارة، وبإرسال بنى إسرائيل معه تارة أخرى إذا سأل ربه أن يكشف ما وقع بهم من العذاب، فإذا كشف الله عنهم ما نزل بهم، عادوا إلى طغيانهم وغدرهم بعهدهم، وخنسوا بوعدهم. إلى أن كانت الآية الكبرى والبطشة العظمى وهى إغراق فرعون وأتباعه فى اليمّ، ونجاة موسى وقومه. . والآيات التى ابتلاهم الله بها هى:

١- الجدب أو السنون: بأن قلّ عنهم النيل، وقصر عن إرواء أرضهم، وسمّوا الجدب يؤرخ بها، فيقال لعام الجدب سنة. . ومنها أسبت القوم أى أصابتهم سنة.

(٢، ٣، ٤) النقص فى الأموال والأنفس والثمرات: بسبب ما يأتى عليها من الجوائح والعاهات.

٥- الطوفان: ربما كان من النيل، ولم يقطع المفسرون بأن هذا الطوفان كان على أى وجه؟!. . يغمر ممتلكاتهم ويدمر زراعاتهم.

٦- الجراد : بأن أرسل الله على بلاد مصر الجراد فأكل الزرع واجتاح الثمار.

٧- القمل: الذى أقض مضاجعهم، وأتعبهم أيما تعب.

٨- الضفادع: قيل إنها كثرت عندهم حتى نغَّصت عليهم عيشتهم بسقوطها فى طعامهم وشرابهم وفراشهم وبين ملابسهم.

٩ - الطمس على أموالهم، وهو محقها وإهلاكها.

١٠ - الدم : بأن استحال الماء لأهل مصر دماً، وقيل سلّط الله عليهم الرّعاف.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠ـ١٣٥].

خروج بنى إسرائيل وهلاك فرعون وجنوده

جاء الأمر الإلهى لموسى بالخروج من مصر، فانطلق بقومه بنى إسرائيل سراً من أرض مصر قاصداً فلسطين ليلا.

علم فرعون بذلك فأرسل أعوانه، يجمعون له الناس من كل المدن لتجهيز جيش كبير، ليقتفوا أثر نبى إسرائيل[١]، وليدركوهم قبل أن يهربوا إلى فلسطين، وأذاع فرعون فى مصر أن الفارين شرذمة ضئيلة لا يخشى شرها، وقد أغاظونا بهربهم وأخذهم أموالنا وحلى نسائنا، وقد كنا دائما متيقظين لهم نتبع حركاتهم، فنحن من عادتنا التيقظ والحذر، واستعمال الحزم فى الأمور، قال الزمخشرى وهذه معاذير اعتذر بها إلى قومه لئلا يُظن به ما يكسر من قهره وسلطانه[٢].

وصل بنو إسرائيل إلى ساحل البحر الأحمر على خليج السويس، فأدركهم فرعون وجنوده مع شروق الشمس، عندئذ أيقنوا بالهلاك، واستولى الذعر على نفوسهم وقالوا لموسى : لقد لحق بنا فرعون ولا طاقة لنا به، فماذا نفعل والبحر أمامنا، فماذا كان جواب موسى؟ هل كان خائفا مثلهم فى مثل حالهم؟ كلا بل أجاب بأسلوب الواثق من ربه الموعود بنصره ، والمؤيد بتوفيقه.

(١) كان بنو اسرائيل ستمائة وسبعين ألفاً كما قال الطبرى.
(٢) الكشاف (٣/٢٤٨).

قائلا﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢] وهذه الجملة خبرية بالنسبة لقوم موسى، إنشائية بالنسبة له عليه السلام، فهو يطمئن بها بنى إسرائيل، ويعرِّفهم أن الله كان دائما معه، وسوف يكون معه أيضا هنا، ولن يتركه فى مثل هذا الضيق وأن معيّة الله تعالى لا تعدلها معيّة، فإذا كان الله معى فسوف يهدينى إلى طريق النجاة، وكأنه فى دعائه هذا يقول يارب لقد أنجيتنا من فرعون وعذابه، وها هو فرعون وجنده على مقربة منا، وليس أمامنا إلا البحر، وهم الآن خلفنا ففرّج يارب كربنا، كما فرّجت سابقا كربنا، فقد كنت معنا دائما، فكن معنا الآن، واهدنا إلى طريق النجاة. لم يلبث موسى بعد نطقه بهذه الكلمات إلا قليلا حتى وافته نجدة الله تعالى فأوحى إليه قائلا: ﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾، فانطلق وانشق، وصار به اثنى عشر طريقا يبسا، لكل سبط منهم طريق كما قال ابن عباس(١) ووقف الماء بينهما كالجبل الشامخ الثابت ﴿ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾، فاجتاز موسى وقومه من تلك الطرق المفتحة لهم فى البحر، وتبعهم فرعون وجنوده، ثم قال الله لموسى ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾[الدخان:٢٤](٢) فلما أصبحوا فى لجّته أطبقت عليهم أمواجه فكانوا من المغرقين، ثم رمت مياهه جثة فرعون لتزول الشكوك التى قد تكون فى نفوسهم من أن فرعون لا يعتريه موت ولا فناء، ولتكون جثته آية وعظة وعبرة على مدى الأزمان للطغاة المتكبرين. اقرءوا الآيات ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾[يونس: ٩٠ ـ ٩٢].

(١) مختصر ابن كثير (٢/ ٦٤٩).

(٢) والمعنى أى اترك البحر ساكناً منفرجاً على هيئته بعد أن تجاوزه فإن فرعون وقومه سيغرقون فيه، قال فى التسهيل: لما جاوز موسى البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطبق كما ضربه فانفلق، فأمره الله بأن يتركه ساكناً كما هو ليدخله فرعون وقومه فيغرقون فيه (التسهيل لعلوم التنزيل: ٤/ ٣٥)

وتذكر التوراة أن فرعون مصر الذى اضطهد بنى إسرائيل، كان يستخدمهم فى بناء مدينتين (فيتوم ورعمسيس)[1] وقد ثبت من الحفائر الآثرية وجود هاتين المدينتين اللتين بناهما رمسيس الثانى، وأن موسى عليه السلام وُلد فى عهد رمسيس الثانى وهو فرعون الاضطهاد، وتذكر التوراة بعد ذلك أن ملك مصر (رمسيس الثانى) مات[2] وكان ذلك عند هرب موسى إلى أرض مدين وقبل تلقيه رسالة ربه.

وحيث أن الملك رمسيس الثانى قد أشرك ابنه الملك (منفتاح) معه فى الحكم قبل وفاته، وكان منفتاح الولد الثالث عشر لرعمسيس وقد بلغ أولاده ١٥١، وكان مُسناً حين ولايته للعهد فيكون قد عاصر موسى فى بيت أبيه، وبحق قال لموسى ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، ويكون منفتاح هو فرعون الخروج الذى أُرسل إليه موسى وهارون عليهما السلام، لإخراج بنى إسرائيل من مصر، وهو الذى لحق بموسى عند البحر وغرق، وبقيت جثته إلى الآن، وهى موجودة بالقاعة الملكية بالمتحف المصرى بالقاهرة، ويستطيع الزوار مشاهدتها مصداقا لقول القرآن الكريم ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ بعد ثلاثة عشر قرنا من نزول القرآن، فقد عثر على الجثة مع غيرها من الجثث فى قبر (أمنحتب الثانى) بالأقصر عام ١٩٠٠م، وظهر من آثار قبر منفتاح أنه لم يكن مهيأ كما يجب لدفن ملك، لأن موته لم يكن منتظراً فلم يهيأ له قبر خاص.

ويقول الدكتور موريس بوكاى[3] - الجراح الفرنسى الشهير الذى فحص بنفسه هذه الجثة كجراح اشترك فى دراسات طبية أجريت عام ١٩٧٥ - قائلا: «وفى العصر الذى وصل فيه القرآن للناس بواسطة النبى محمد ﷺ، كانت جثث كل

---

(١) سفر الخروج: الفصل الأول آية ١١.

(٢) سفر الخروج: الفصل الثانى آية ٢٣.

(٣) جراح فرنسى شهير أتاح له الملك فيصل رحمه الله فرصة العمل فى المملكة العربية السعودية، ويسر له وشجعه على البحث فى الإسلام فمن الله بنعمته عليه فأسلم وألف كتابه المعروف «القرآن والتوراة والإنجيل والعلم» جزى الله عنه الملك فيصل وعما قدم للإسلام خير الجزاء، والله أسأل أن يوفق حكام المسلمين لما فيه خير الإسلام والمسلمين.

الفراعنة مدفونة بمقابر وادى الملوك بطيبة، على الضفة الأخرى للنيل أمام مدينة الأقصر الحالية، وظل كل شيء عن هذه الجثث مجهولا حتى نهاية القرن التاسع عشر حين تم اكتشاف هذه المقابر لأول مرة، وكما ينص القرآن فقد أُنقذ بدن فرعون الخروج، ونعلم الآن أن هذه الجثة موجودة فى قاعة المومياء الملكية فى المتحف المصرى بالقاهرة، ويستطيع الزوار مشاهدتها، ويستطرد الدكتور بوكاى فيقول (إنها شهادة مادية فى جسد محنّط على من عرف موسى أثناء المطاردة، وأنقذ الله جثته من الهلاك التام، ليصبح آية للناس كما هو مكتوب بالنص فى القرآن، لذلك فإننى أرجو من المسئولين عن المتحف اتخاذ الاحتياطات اللازمة، للمحافظة على هذه الجثة من التآكل فى المستقبل، حتى نتجنب فقدان الشاهد المادى الوحيد الباقى حتى يومنا هذا، أى الشاهد على موت فرعون الخروج وعلى النجاة التى أرادها الله لجسده.. أى بيان رائع لآيات القرآن وهى تشير إلى ما حدث لبدن فرعون، والذى تقدمه قاعة المومياء الملكية بالمتحف المصرى بالقاهرة، لكل من يبحث فى معطيات العلم الحديث عن أدلة على صدق وإعجاز القرآن الكريم).

فهذه الآية معجزة علمية للقرآن تشهد أنه وحى إلهى، وأن محمد ﷺ رسول الله حقاً، وللأسف فإن أعداء الإسلام مازالوا سادرون فى غيهم، وينكرون حتى يومنا هذا نبوّة محمد ﷺ والله شاهد عليهم ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[الرعد: ٤٣].

حقا لقد اعترف كثير من أهل الكتاب بصدق القرآن الكريم، وأنه وحى من عند الله، وبصدق دعوته ﷺ وأنه رسول من رب العالمين وهو خاتم المرسلين، فلنستمع جميعا إلى الدعوة العالمية لسيدنا محمد ﷺ إلى الحق والنور والهداية فى دعوة الإسلام للناس أجمعين[1].

(١) وانظر كتاب دلائل الإعجاز العلمى للدكتور موسى الخطيب (ص ٢٢٦ - ٢٢٧).

مصير آل فرعون فى الآخرة

بيّن الكتاب الكريم ما أعده الله لآل فرعون من سوء العذاب، وأليم العقاب فى الآخرة قال تعالى﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾[غافر: ٤٥، ٤٦].

أى ونزل بفرعون وجماعته أسوأ العذاب وهو الغرق فى الدنيا، والحرق فى الآخرة، ثم فسّره بقوله ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ أى النار يحرقُون بها صباحا ومساء. قال المفسرون: المراد بالنار هنا نار القبر وعذابهم فى القبور بدليل قوله بعده ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ أى ويوم القيامة يُقال للملائكة: أدخلوا فرعون وقومه نار جهنم التى هى أشد من عذاب الدنيا.

الفصل السابع
فى الطريق إلى أرض الميعاد

لقى موسى عليه السلام الأمّرين من بنى إسرائيل فى سبيل دعوتهم إلى عبادة الله وحده، وكانت المعجزات التى أيده الله بها، ورأوا بأعينهم انفلاق البحر لهم حتى جاوزوه على يبس قاعة، لم تبتل أقدامهم ولا نعالهم ولم يفقدوا نقيراً ولا قطميراً، بل خدعوا نساء المصريين واستعاروا منهن الحلى من الذهب والفضة، وذهبوا بذلك المال كله كما ذهب الأسير بقيده!.

ولما أراد فرعون أن يدركهم، ويردهم إلى عبوديته، وطمع أن يعبر كما عبروا، أطبق الله عليه وعلى جنوده الماء فكانوا من المغرقين! كل ذلك يجرى أمام أعينهم وموسى يتخولهم بالنصح والموعظة، ومع هذا كله غلبت عليهم الوثنية التى ألفوها لطول عهدهم مع المصريين، شأن المغلوب فى تقليد الغالب، ومن مظاهر ذلك أنهم عندما جاوزوا البحر مرُّوا على قوم يعبدون الأصنام فطلبوا من موسى أن يجعل لهم صنما، يعبدونه مثل هؤلاء الوثنيين، فلامهم موسى على جهلهم، وأكد لهم أن هؤلاء القوم الذين يعبدون الأصنام، دينهم باطل، وأعمالهم خاسرة، ولذا فإن مصيرهم الهلاك، ثم أبدى عجبه ودهشته منهم ومن أفعالهم، كيف يطلبون آلها سوى الله الذى خصّهم بالإكرام وفضّلهم على الأمم التى كانت فى زمانهم بوحيه ورعايته. اقرءوا الآيات.

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

[الأعراف: ١٣٨ - ١٤٠].

تابع بنو إسرائيل مسيرهم، وجاءوا إلى الشاطىء الشرقى، ولم يجدوا ماء لشربهم وسُقيا دوابهم، فشكوا إلى موسى متذمّرين، واستسقوه، فأمره الله أن يضرب الحجر بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا[1] لكل سبط من الأسباط عين تجرى بالماء يشرب منها لئلا يتنازعوا ويقتتلوا على الماء، وجعل موسى لكل سبط نقيبا ليرجعوا فى أمورهم إليه.

ولما وصلوا إلى سهول شبه جزيرة سيناء، والشمس فيها شديدة الحرارة، فلا مساكن يأوون إليها، ولا شجر يلتمسون تحته الظل، شكوا إلى موسى أمرهم، فدعا ربه فساق لهم الغمام يكنّهم من حر الشمس، ويقيهم من آذاها قال الألوسى: وكان الظل يسير بسيرهم ويسكن بإقامتهم[2].

ولما كان زادهم عُرضة للنفاذ، وتاقت نفسهم للطعام مع خشيتهم الجوع والهلاك، سأل موسى ربه مرة أخرى أن يطعمهم، فأرسل الله لهم الرياح تحمل لهم المنّ والسلوى. والمنّ مادة تتزهر على أوراق بعض الأشجار مثل الظرفاء وغيرها، وطعمها حلو كالعسل فيها لبن وهى سهلة الهضم، والسلوى طائر السمانى كان يغطى الأرض فيأخذ منه كل إنسان حاجته. وبعد أن تفضّل الله عليهم بهذه النعم الجليلة، أمرهم أن يأكلوا من هذه الطيبات حلاً لهم، ولكنهم كفروا بتلك النعم وطلبوا غيرها، فكانوا بذلك من الظالمين لأنفسهم. طلبوا استبدال المنّ والسلوى والعسل الذى ينالونه من الجبل والشجر والسمانى من الطير التى تنزل عليهم فيصيدون منها دون عناء، بالثوم والعدس والبصل والقثاء لهذا قال الحسن البصرى فيهم: كانوا نتانى أهل كرات وأبصال وأعداس، فنزعوا إلى مكرهم بمكر السوء، واشتاقت طباعهم إلى ماجرت إليه عادتهم، فقالوا ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾[البقرة: ٦١].

---

(١) هذه العيون توجد بالبر الشرقى للقناة، قريبا من مدينة السويس مشهورة بعيون موسى، وقلّ اليوم ماء هذه العيون وبعضها طُمست آثاره.

(٢) وانظر تفسير الألوسى فى تفسيره لهذه الآية (وإذا استسقى موسى لقومه...).

اقرءوا الآيات

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٩، ١٦٠].

ذهاب موسى لميقات ربه

كان موسى قد وعد قومه بنى إسرائيل - وهم بمصر - إن أهلك الله فرعون أتاهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذرون، فلما أهلك الله فرعون سأل موسى ربه الكتاب، فأمره الله أن يصوم ثلاثين يوما وهى شهر ذى القعدة، فلما أتم الثلاثين أنكر موسى خلوف فمه، فاستاك أو أكل بعض النبات، فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسْك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذى الحجة.

وأخرج الديلمى عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال: «لما أتى موسى ربه عز وجل وأراد أن يكلِّمه بعد الثلاثين، وقد صام نهارهن ولياليهن، كره أن يكلّم ربه وريح فمه ريح فم الصائم، فتناول من نبات الأرض فمضغه فقال له ربه: لم أفطرت؟ وهو أعلم بالذى كان، قال أى رب كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب الريح، قال: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندى أطيب من ريح المسك؟ أرجع فصم عشرة أيام ثم ائتنى ففعل موسى عليه السلام الذى أمره ربه به» أ. هـ.

وذلك مصداق قوله تعالى ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وقبل ذهاب موسى لميقات ربه، أمر أخاه هارون أن يكون خليفة على بنى إسرائيل، وأكد عليه الأمر بالنظر فى مصالحهم وشئونهم واليقظة فى أمرهم. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

الدعاء الثاني عشر

وبعد تمام الأربعين كلّم موسى ربه، متضرعا قائلا: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فبعد تمام الأربعين كلّمه ربه بكلامه الأزلى من غير واسطة، فنال بذلك حظوة امتاز بها عن البشر، عندئذ اشتاق إلى رؤية ربه لما أسمعه كلامه فسأله النظر إليه، فقال الله له ﴿لَن تَرَانِي﴾ أى لن تستطيع رؤيتى فى الدنيا فإن هذه البنية البشرية لاطاقة لها بذلك، ثم أراد الله أن يُعلمه أنه إنما طلب شيئا عظيما لا تتحمله الجبال، فتجلى الله للجبل فصار دكا - أى غاص فى الأرض، أو تفتت، وخرّ موسى مغشيا عليه، من هول ما رأى كمن أخذته الصاعقة ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أى فلما صحا من غشيته، قال أنزهك يارب تنزيها يليق بجلالك يارب، وتبرئه أن يراك أحد فى الدنيا، تبت إليك من سؤالى لرؤيتك فى الدنيا، وأنا أول المؤمنين بعظمتك وجلالك.

هل استجاب الله تعالى لموسى دعاءه فى تحقيق الرؤية ؟

لم يجب الله تعالى موسى إلى طلبه،ولعل السبب فى ذلك أنه طلبها من غير استئذان من الله تعالى، أو أنه لم يحظ بها فى الدنيا إلا المصطفى ﷺ، وهذا ماذهب إليه أهل السُّنة، أضف إلى ذلك أن أكابر الرسل كآدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام لم يسألها أحدٌ منهم، فكيف ساغ لسيدنا موسى عليه السلام أن يسألها، وأحرى به أن لايسألها، وهو غير قادح فى نبوّته عليه السلام، فإن النبوة لاتتوقف على العلم بجميع العقائد الحقة، أو جميع ما يجوز عليه تعالى، مالا يجوز، بل علمه ما يتوقف عليه الغرض من البعثة والدعوة إلى الله تعالى، وهو وحدانيته، وتكليف عبادة الأوامر والنواهى، تحريضا لهم على النعيم المقيم وليس امتناع لرؤيا من هذا القبيل..

هل عوّضه الله عن الإجابة بما يرضيه؟

نعم : لقد عوّضه الله عن طلبه الرؤية بما أرضاه يتضح ذلك فى قوله تعالى ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾[الأعراف: ١٤٤].

فكأن الله جل شأنه قال لموسى: يا موسى إن كنت قد منعتك من رؤيتى، فقد منحتك كثيراً من نعمى ونعمائى، مالم أعط أحداً من العالمين فاغتنمها وثابر على شكرها، والآية مسوقة لتسليته عليه السلام من عدم الإجابة إلى سؤال الرؤية، كما قال أبو السعود[1] كما أنه يمكن الاستدلال بها على جواز رؤية الله تعالى إذ لو كانت ممتنعة فى ذاتها لما كان هناك داع لذكر هذا القدر.

خاطب الله تعالى موسى عليه السلام بأن اصطفاه على الناس برسالاته (وهى أسفار التوراة)، وفيها ما يحتاجه بنو إسرائيل من المواعظ والأحكام، وأمره أن يأخذ قومه بأحسنها، أى يسيروا على أفضل ما رسم فيها، وأن يفعلوا ما هو أدعى إلى الزلفى من الله تعالى، فإذا نصّ على فعلين أحدهما يستدعى ثوابا أعظم، فعليهم أن يأخذوا بالأفضل، ثم وعدهم الله بأن يريهم دار الفاسقين.

قال تعالى ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾[الأعراف: ١٤٥].

قيل هى ديار فرعون وقومه، وهذا القول مردود، تبدو عليه السهولة وعدم عناء البحث، فلم يثبت تاريخيا أو علميا أن عاد بنو إسرائيل إلى مصر بعد أن خرجوا منها، والأمر ما قاله قتاده من أن المراد بدار الفاسقين أرض الجبابرة والعمالقة بالشام، والتى دخلها بنو إسرائيل مع يوشع بن نون فتى موسى، وهى الأرض التى كتب الله لهم، وموسى لم يدخلها، وإنما رآها فقط، ومعلوم انهم عصوا حين طلب منهم موسى دخولها ونكصوا عن القتال وقالوا : ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [المائدة: ٢٢]. وقالوا ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. فناجى موسى ربه وناده، فكان الأمر أن قال: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

عبادة بنى إسرائيل لعجل السامرى واتخاذه إلها :

قلنا فيما مضى أن بنى إسرائيل لم تكن نفوس أكثرهم مرتاحه للإيمان، غلبت عليهم الوثنية اللاصقة بقلوبهم، وألفوا عبادة المصريين للعجل أبيس، وكان للمصريين عناية فائقة بعبادة هذا العجل، وكانت العجول المؤلهة إذا ماتت حنَّطوها بما يحفظ جسمها من التلف، ودفنوها فى مقبرة خاصة فى جهة سقارة تسمى (سرابيوم).

وقد استغل هذه الظاهرة رجل ماكر منهم سماه القرآن السامرى، فانتهز غيبة موسى وأخذ من بنى إسرائيل بعض حليِّهم التى كانت نساؤهم قد أخذتها من المصريات قبل رحيل بنى إسرائيل، وألقاها فى النار وسبك منها عجلا، وصاغه بطريقه هندسية خاصة تجعل الريح إذا دخلته كأن له خوار، أى صوت الثور، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى وأمرهم بعبادته.

تصدى لهم هارون وأراد ردهم عن عبادة هذا العجل، وأفهمهم أنهم فُتنوا به، فلم يفلح وأصرُّوا على عبادته، حتى يرجع إليهم موسى. كان موسى قد أخبرهم، قبل ذهابه لميقات ربه أن غيبته عنهم لن تطول أكثر من ثلاثين يوما، فلما أمره الله أن يستأنف صوم عشرة أيام أخرى وطالت غيبته عنهم استبطأوه، وقالوا إن موسى أخلفنا وعده، فعندئذ تحركت نزوة الشرِّ فى السامرى فصنع ما صنع.

فلما قضى موسى أجل الصوم، وكلّم ربه وأعطاه الألواح، سأله الله تعالى وهو أعلم، عما أعجله عن قومه، فقال إنهم آتون على أثرى، وعجلت إليك ربى طلبا لرضاك. كان موسى قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقا إلى كلام ربه. وحينئذ أخبره الله تعالى بأنهم فُتنوا عن دينهم وأن السامرى أضلَّهم، فرجع موسى إلى قومه غضبان حزينا حرداً على أخيه هارون، إذ لم يردَّهم عن فتنتهم وظن به التقصير فى النصح، فلما لقيه أخذ بلحيته ورأسه يجره إليه، وكان موسى رجلا أيداً فيه حدّة لايقوم لغضبه أحد. فاعتذر هارون بأنه عمل جهده، وأنه خشى إن زجرهم بالقَوة أن يقع قتال بينهم فيلومه على ذلك موسى، لأنه كان سببا لفتنة بنى إسرائيل، فمن أجل ذلك رأى ألا يفعل شيئا حتى يعود إليهم موسى ويتدارك الأمر بنفسه قال ابن

عباس: وكان هارون هائبا مطيعا له. ولام موسى بنى إسرائيل أشد اللوم، وألقى الألواح ويُقال أنها كُسرت، وقال والغضب يملأه من فعلتهم: ماذا فعلتم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً بإنزال التوراة فيها الهدى والنور، وقد أكرمكم بما وفى، فهل طال عليكم الزمن (الأربعين يوماً) حتى نسيتم العهد، أم أردتم بصنيعكم هذا أن ينزل عليكم سخط الله وغضبه فأخلفتم وعدى؟ قال أبو حيان: وكانوا وعدوه بأن يتمسكوا بدين الله وسُنّة موسى عليه السلام، ولايخالفوا أمر الله أبداً، فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل[1].

فقالوا لموسى لم نخلف وعدنا إياك باختيارنا ورغبتنا، ولكن أضلنا السامرى وغلبنا على رأينا، وقال لنا: إن مالدينا من الحُلىّ التى أخذناها من المصريين قد أغضب ربنا وما هى إلا أوزار نحملها، تؤخر عودتك إلينا، والرأى أن نقذفها فى النار ليرضى ربنا وترجع إلينا فصدّقناه، وقذفنا بالحُلىّ فى النار، وكذلك فعل السامرى فقذف ما معه من جلى، وصاغ لهم السامرى من تلك الحلى عجلا جسداً بلا روح له خوار وهو صوت البقر[2] وقال لهم: هذا إلهكم الذى ينبغى أن تعبدوه، وهو إله موسى الذى غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور. قال تعالى رداً عليهم وبيانا لسخافة عقولهم فى عبادة العجل ﴿ **أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا** ﴾ أى أفلا يعلمون أن العجل الذى زعموا أنه إلههم لا يرد لهم جوابا، ولا يقدر أن يدفع عنهم ضراً أو يجلب لهم نفعا فكيف يكون الها؟ والاستفهام للتوبيخ والتقريع.

ثم أقبل موسى باللوم الشديد على السامرى لنفاقه، وهو الذى تسبب فى إضلالهم، وسأله عن شأنه والأسباب التى حدت به إلى هذا العمل المنكر؟ وأجابه السامرى قائلا: رأيت مالم يروه، وهو أن جبريل جاءك على فرس الحياة، فألقى فى نفسى أن أقبض من أثره قبضة فما ألقيته على شىء إلا دبّت فيه الحياة، فقبضت قبضة من أثر فرس جبريل، فطرحتها على العجل فكان له خوار، عندئذ قال له موسى: اذهب فان الله عاقبك بأن تقول فى حياتك (لامساس)، فكان يتألم

(١) البحر (٦/٢٦٨).

(٢) قال الرازى : قيل صار حيا وخار، وقيل لم تحله الحياة وإنما جعل فيه منافذ تدخل فيه الريح فيخرج له صوت يشبه صوت العجل. (الرازى: ٢٢/١٠٣).

من مس أى إنسان له، فإذا لقى إنسانا وخشى أن يمسه يقول له (لامساس)، وأن الله شدّد عليه المحنة وأن له موعداً للعذاب فى الآخرة لن يتخلف، ثم أحرق موسى العجل كما أخبره وأذرى رماده فى البحر، وقال لبنى إسرائيل ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أى إن المعبود المستحق للعبادة هو الله الذى لارب سواه وهو الذى وسع علمه كل شىء، فلا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

ثم إن الله تعالى أوحى إلى موسى، أن توبة بنى إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم بأن يقتل البرىء منهم المجرم، ثم عفا الله عنهم بعد أن قتلوا من أنفسهم عدداً عظيما.

اقرءوا الآيات:

سورة البقرة:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ٥٤].

سورة طه:

﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ

قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[طه: ٨٤-٩٨].

سورة الأعراف :

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[الأعراف: ١٤٨-١٥٠].

الدعاء الثالث عشر

هو قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

لما تحقق لموسى براءة ساحة هارون عليه السلام من التقصير، طلب عند ذلك المغفرة له ولأخيه فقال ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي﴾ رفع موسى أكف الضراعة إلى ربه ليغفرله ما صدر منه من الغضب والحدة فى حق أخيه هارون، وتكسير الألواح، ولقد قال ابن عباس: لما عاين قومه وقد عكفوا على العجل ألقى الألواح فكسرها غضبا لله وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه[1] ولذا قالوا حدة الغضب فيما يرضى الله تعالى أمرٌ مرغوب فيه ومُثاب عليه، فهى لاتعدو عن مجاوزة موسى لحد الاعتدال ومجانبته للأفضل من الأفعال والأقوال. وهذا من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

قال الزمخشرى: استغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه، ولأخيه مما عسى أن يكون فرط منه فى حين الخلافة، وطلب ألا يتفرقا عن رحمته، ولاتزال منتظمة

(١) الطبرى (١٣/ ١٢٣).

لهما فى الدنيا والأخرة[1] ثم ختم دعاءه بالثناء على الله تعالى، وهذا من باب آداب الدعاء المستوجبة لقبوله.

اعتذار بنى إسرائيل عن عبادة العجل والعفو عنهم

رأى بنو إسرائيل أنهم قد ظلموا أنفسهم، وقارفوا إثما كبيراً بعبادة العجل، فاختار موسى سبعين رجلا ممن لم يعبدوا العجل للذهاب معه إلى جبل الطور - الذى اعتاد أن يناجى ربه فيه - ليقدموا الطاعة لله والندم على ما اقترفوا من إثم وهناك كلّم الله موسى، ولكن جماعة منهم لم يؤمنوا أن الله هو الذى يكلم موسى فتمردوا وعصوا وقالوا له: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة بأعيننا لا يحجبه حاجب، فأرسل الله عليهم ناراً من السماء (الصاعقة) فأحرقهم وزلزل الجبل من تحتهم زلزلة شديدة (الرجفة) فماتوا ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ وفى سورة الأعراف يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ ﴾ أى من قومه ﴿ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا ﴾ أى اختار موسى من قومه سبعين رجلا ممن لم يعبدوا العجل للوقت الذى وعده ربه للإتيان فيه للاعتذار عن عبادة العجل ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ أى فلما رجف بهم الجبل وصعقوا، وراحوا يتساقطون على الأرض صرعى، عندئذ تضرّع موسى إلى ربه بهذا الدعاء.

الدعاء الرابع عشر

﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف: ١٥٥، ١٥٦].

---

(١) الكشاف (٢/ ١٦٢).

أى قال موسى على وجه التضرّع والاستسلام لأمر الله؛ لوشئت يا رب أن تهلكنا قبل ذلك لفعلت، فإنا عبيدك وتحت قهرك وأنت تفعل ما تشاء ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ﴾ أى أتهلكنا وسائر بنى إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء السبعون فى قولهم: ﴿نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ والاستفهام استفهام استعطاف وتذلل فكأنه يقول:

لاتعذّبنا يا الله بذنوب غيرنا. قال الطبرى فى رواية السدى: إن الله أمر موسى عليه السلام أن يأتيه فى ناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل. ووعدهم موعداً فاختار موسى من قومه سبعين رجلا على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى ﴿حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فإنك قد كلَّمته فأرناه، فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكى ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم، ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾[1] فكيف حال الأشرار منهم؟! نعوذ بالله من خبث اليهود. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أى ما هذه الفتنة التى حدثت لهم إلا محنتك وابتلاؤك تمتحن بها عبادك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ أى تضل بهذه المحنة من تشاء إضلاله وتهدى من تشاء هدايته ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ أى أنت يارب متولى أمورنا وناصرنا وحافظنا، فاغفر لنا ما قارفناه من المعاصى، وارحمنا برحمتك الواسعة الشاملة ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ أى أنت خير من صفح وستر، تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وهذا من جملة دعاء موسى عليه السلام، أى حقق واثبت لنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أى تبنا ورجعنا إليك من جميع ذنوبنا ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أى قال تعالى أما عذابى فأصيب به من أشاء من عبادى، وأما رحمتى فقد عمّت خلقى كلهم قال أبو السعود: وفى نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة، المضارع ونسبة السّعة إلى الرحمة بصيغة الماضى إيذانا بأن الرحمة مقتضى الذات، وأما العذاب فبمقتضى معاصى العباد[2].

---

(١) الطبرى (١٣/ ١٤٠) .

(٢) ابو السعود (٢/ ٢٠١).

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى سأجعل هذه الرحمة خاصة فى الآخرة بالذين يتقون الكفر والمعاصى، ويعطون زكاة أموالهم، ويصدِّقون بجميع الكتب والأنبياء.

نتق الجبل فوق بنى إسرائيل

استمر موسى فى إصلاح بنى إسرائيل، ولكنه رأى منهم معارضة وقسوة، عندئذ تهددهم الله بالسَّحق، بأن رفع جبل الطور فوقهم حتى صار كأنه ظُلّة، وظنوا أنه واقع عليهم أو أيقنوا ذلك، فارتاعوا وتضرّعوا إلى الله فأمرهم أن يأخذوا ما آتاهم من الأحكام بقوة، وأن يعملوا بما فى التوراة بجد وعزيمة، ويحفظوه ولاينسوه ولايغفلوا عنه، ليتّقوا الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة، أو لعلهم بذلك يصبحون من المتقين، فلما كشف الله عنهم هذه الغمَّة أعرضوا عن هدى الله، ونبذوا الميثاق بعد ما أخذوه، ولولا فضل الله عليهم بقبول توبتهم، ورحمته بالعفو عن زلّتهم لكانوا من الهالكين. اقرءوا الآيات.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[البقرة: ٦٣، ٦٤].

عصيان بنى إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة

أمر الله موسى أن يذهب ببنى إسرائيل إلى الأرض المقدَّسة، وهى فلسطين لامتلاكها والإقامة بها، وهى أرض الموعد التى وعد الله إبراهيم وإسحق ويعقوب أن تكون ملكا لأولادهم، وأن يطردوا من أمامهم الأمم التى يسكنونها فى ذلك الوقت. خاطب موسى قومه بأمر الله لهم وذكّرهم بالنعم التى أنعمها عليهم، بأن جعل فيهم أنبياء كثيرين[1] لهدايتهم من الضلال، وأنه جعلهم أحرار بعد أن كانوا فى رقّ العبودية، وآتاهم من النعم الكثيرة التى اختصهم بها على عالم زمانهم، فمن واجبهم إزاء ذلك أن يشكروا الله، ويتلقوا ما يأمر به بقبول حسن.

(١) قال البيضاوى : لم يبعث فى أمه ما بعث فى بنى إسرائيل من الأنبياء (البيضاوى: ص ١٤٩).

وقبل أن يطلب موسى من بنى إسرائيل دخول الأرض المقدسة[1]، أرسل رواداً للاستطلاع وليأتونه بخبر أهلها، قال المفسّرون: كانوا اثنى عشر رجلا، فرأوا من جسامة أولئك القوم ما هالهم! فلما عادوا أخبروا بنى إسرائيل بما رأوا فضعفت قلوبهم وتراءى لهم شبح الهلاك فى القدوم على هذه البلاد، ولم يمتثلوا لأمر موسى بمباشرة الغزو، بل قالوا: يا موسى إن فيها قوما عظام الأجسام طوال القامة لاقدرة لنا على قتالهم وهم العمالقة من بقايا عاد، ولن ندخلها حتى يسلّموها لنا من غير قتال، لأننا لايمكننا دخولها ماداموا فيها، فان خرجوا منها فإنا نلبّى طلبك وندخلها، فلما جبنوا حرّضهم رجلان من النقباء[2] ممن يخالف أمر الله ويخشى عقابه فيهما الصلاح واليقين وقالا لهم: لايهولنكم عظم أجسامهم، فأجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة، فإذا دخلتم عليهم باب المدينة[3] غلبتموهم بإذن الله، واعتمدوا على الله فإنه ناصركم إن كنتم حقا مؤمنين، فأبوا وقالوا لموسى ﴿**قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾، وهذا إفراط فى العصيان، مع سوء الأدب بعبادة تقتضى الكفر والاستهانة بالله ورسوله، وأين هؤلاء من الصحابة الأبرار الذين قالوا لرسول الله ﷺ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.

اقرءوا الآيات:

﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾[المائدة: ٢٠-٢٤]. .

---

(١) قال البيضاوى : وهى أرض بيت المقدس سُمّيت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين (البيضاوى ص ١٤٨).

(٢) كانوا من الاثنى عشر نقيبا الذين أرسلهم موسى لاستطلاعهم الأرض وحال أهلها.

(٣) وهى مدينة أريحا المعروفة اليوم.

تمرّد القوم وتلك شيمة بنى إسرائيل ألا يصبرون على أمر، ولايعرفون جميلا، وإنما هم قوم مردوا على القلاقل ولم يكن فى طبعهم الصبر، فتمرّدوا وعصوا أمر الله ورسوله موسى عليه السلام، فماذا يفعل موسى؟

عندئذ لجأ موسى إلى ربه، فناجاه وناداه بهذا الدعاء.

الدعاء الخامس عشر

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

أى قال موسى حينذاك معتذراً إلى الله متبرأً من مقاله السفهاء: يارب لا أملك قومى، لا أملك إلا نفسى وأخى هارون[1] (لوثوقه فيه وإخلاصه وطاعته له)، فافصل بيننا وبين الخارجين عن طاعتك بحكمك العادل، فموسى بعبارته هذه يدعو على قومه وكأنه يقول يارب افصل بيننا وبينهم، واعطنا ما نستحق واعطهم ما يستحقون من العقاب والعذاب.

فاستجاب الله دعاءه وعاقبهم فى التيه أربعين سنة. قال تعالى﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾ والمعنى : قال الله لموسى إن الأرض المقدّسة محرّم عليهم دخولها مدة أربعين سنة يتيهون فى الأرض، ولايهتدون للخروج منها ﴿فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ وواسى الله رسوله موسى قائلا له: لاتحزن عليهم فإنهم فاسقون مستحقون للعذاب، قال فى التسهيل: روى أنهم كانوا يسيرون الليل كله فإذا أصبحوا وجدوا أنفسهم فى الموضع الذى كانوا فيه[2].

تمرّد بنى إسرائيل وكفرهم بالنعم

وبعد، فماذا كان من بنى إسرائيل بعد عبورهم البحر؟ هل تبعوا موسى عليه السلام، وكانوا أتباعا مخلصين حريصين على الرسالة السماوية، عاملين بها متّبعين لتعاليمها؟!

---

(١) وكان معه أيضاً اثنين من النقباء الصالحين من قومه هما يوشع بن نون وكالب بن يوقنا.
(٢) التسهيل (١/ ١٧٤).

واقع بنى إسرائيل كما رأينا يخبر بغير هذا، ويدل على نقيضه. فما وطئت أقدامهم أرض سيناء حتى وقع منهم ما يأتى وعلى مراحل:

أولا: رأوا الكنعانيين يعبدون أصناما فقالوا: ﴿ **يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** ﴾[الأعراف:١٣٨].

ثانيا: سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا: ﴿ **أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ** ﴾[النساء:١٥٣] جزاء ظلمهم أنفسهم.

ثالثا: قالوا لموسى: ﴿ **قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾[الأعراف:١٢٩].

رابعا: بعد أن جاوز موسى بهم البحر، سألوه أن يأتيهم بكتاب من عند الله، فخرج إلى الطور بعد أن اختار سبعين رجلا منهم لميقات ربه، وصعدوا إلى الجبل، وواعدهم أربعين ليلة، فعدّوا فيما ذكره المفسِّرون، عشرين يوما وليلة وقالوا: قد أخلفنا موعده، فاتخذوا العجل وأضلهم السامرى، وعصوا أمر هارون فقالوا: ﴿ **قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ** ﴾[طه:٩١].

خامسا: رفع الله الجبل من فوقهم لتهديدهم حتى ظنوا أنه واقع بهم.

سادسا: أُمروا أن يذبحوا بقرة، ويضربوا الميت ببعضها فتشددوا فى طلبها، فشدّد الله عليهم فى أوصافها، وذلك تهديداً وتنكيلا بهم، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة.

سابعا: اتهموا موسى بقتل أخيه هارون، مع أنه مات فى التيه، وكان ذلك جريا على عادتهم فى اتهام الأبرياء.

ثامنا: اجتراؤهم على الله بقولهم: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ** ﴾[آل عمران:١٨١].

تاسعا: كتب الله عليهم الذلّة والهوان واللّعن، واستمرارهم فى إيقاد نار الفتنة والحرب ﴿ **كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾[المائدة:٦٤].

عاشراً: ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة .

«نقلا عن القرطبى»

موت هارون ثم موسى وموقف بنى إسرائيل من بعدهما

ذهب هارون وموسى إلى جبل (هور) وهناك مات هارون ودفنه موسى، ويقول المفسرون إن بنى إسرائيل قد شغبوا على موسى واتهموه بقتل هارون، إلى أن أراهم الله هارون على سرير بين السماء والأرض ليس به أثر للقتل. وأما موسى فأمره الله أن يصعد إلى جبل (نبو) وينظر إلى أرض الموعد دون أن يدخلها، ففعل ومات على الفسحة، أى الأكمة التى هى من رمل أحمر ودُفن هناك، وخفيت معالم قبره، فلا يعلمه أحد.. وبعد موسى قام بأمر بنى إسرائيل فتى موسى (يوشع بن نون) من سبط يوسف، وعبر بهم إلى الأرض التى وُعدوا بها، وكان أول بلد ملكوه (مدينة أريحا)، وأمرهم الله أن يدخلوها خاشعين متضرِّعين بأن يحط الله عنهم خطاياهم، ولكن القوم كعادتهم خالفوا أمر الله، فقالوا قولا غير الذى أمرهم أن يقولوه، ودخلوا على هيئة غير التى أُمروا بها، فغضب الله عليهم وأنزل عليهم العذاب.

الفصل الثامن
دروس وعبر من أدعية موسى عليه السلام

١- الاعتراف بالخطأ فضيلة. شاهده ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾[القصص:١٦].

٢- حسنات الأبرار سيئات المقربين.

٣- إعلان التوبة فور ارتكاب الفعل. شاهده ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾[القصص:١٦].

٤- طلب النجاة من القوم الظالمين. شاهده ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[القصص:٢١]. .

٥- أن الابتلاء الذى يُصاب به الإنسان فى الدنيا ينبغى أن يُقابل بالرضا، فقد يكون الخير العظيم فى هذا الابتلاء. فهذا موسى قد خرج خائفا من آل فرعون متبعا نصيحة ذلك الرجل الذى جاءه من أقصى المدينة ناصحا له بالابتعاد عن مصر لأن الملأ يأتمرون به. فهاجر من مصر وكان الخير كله فى هجرته، فقد وجد أهلا بأهل وجيرانا بجيران، واصطفاه ربه على الناس برسالاته وجعله واسطة لإنقاذ قومه من فرعون وآله.

٦- أن التوكل على الله حق التوكل يقيّض لصاحبه مخرجا من كل ضيق، ويهىء له من أمره يُسراً، كما قيض ذلك الرجل لموسى فكان سببا لنجاته أولا، وكان فى هذه النجاة أن خصّهُ الله بوحيه.

٧- أن الشخص المستمسك بالحق لايبالى بمن خالفه ولو كان عظيما، فهذا موسى قال له فرعون ﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُوراً﴾[الإسراء:١٠١] فقال له موسى فى غير مبالاة به، ولا اكتراث لما هو فيه من أبهة الملك وعزّ السلطان ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ [الاسراء:١٠٢]. أى هالكا، بعد أن لاطفه موسى وأحسن له فى القول، فلما لم يفد أخشن له القول.

٨- أن الحق لا يُعدم نصيراً، ذلك موسى جاء إلى فرعون لينزله عن عرش الربوبية، ويدعوه إلى عبادة الله فاعتزم قتله، وتآمر مع قومه على موسى، فقام رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه يناصر موسى ويدافع عنه، ويحذّر فرعون وقومه عقاب الله لهم ضاربا الأمثال بالأمم الخالية غير مبال بمخالفة فرعون.

٩- أن لذّة الإيمان إذا تذوقها الإنسان ملكت عليه مشاعره، واستهان فى سبيلها بكل عقاب، لذلك آمن السَّحرة برب العالمين، وصدّقوا برسالة موسى وهارون غير مبالين فرعون وما أُعدّ لهم من عذاب.

١٠- أن الصبر على البلوى حميد العاقبة، فهؤلاء بنى إسرائيل ابتلوا فصبروا على الإهانة والذل والتسخير والتقتيل للأبناء، واستحياء النساء (استرقاقهم للخدمة فى البيوت) من فرعون وقومه، فأعقبهم الله الحسنى كما قال تعالى﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾[الأعراف: ١٣٧].

١١- رغبة الإنسان أن يرشده الله إلى طريق الخير. شاهده ﴿ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾[القصص: ٢٢].

١٢- الالتجاء إلى الله وإظهار الحاجة إليه ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[القصص: ٢٤].

١٣- طلب انشراح الصدر بملئه علما ونوراً مع تحّمل آلام الحياة ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾[طه: ٢٥].

١٤- الرغبة فى تيسير الأمر وتفريج الكرب ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾[طه: ٢٦].

١٥- الالتماس فى إزالة العوائق المانعة من الإرشاد والتوجيه ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾[طه: ٢٧، ٢٨].

١٦- اتخاذ الأهل والأصدقاء والاخوان فى التعاون على الحق ونشره بين الناس ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي ﴾[طه: ٢٩، ٣٠].

١٧- التضجّر من العصاة والدعاء عليهم أمر جائز ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ﴾[يونس: ٨٨].

١٨- تزكية النفس جائزة إذا تجنب صاحبها الغرور والكبرياء، إذ لا يكون الله مع عبده حافظا وناصراً إلا إذا كان على جانب كبير من الصِّلة بالله تعالى، شاهده ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[الشعراء: ٦٢].

١٩- جواز رؤية الله تعالى فى الدنيا والآخرة ﴿قَالَ مُوسَىٰ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[الأعراف: ١٤٣].

٢٠- الاعتذار عند الاعتداء على الغير واقترانه برجاء المغفرة من الله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[الأعراف: ١٥١].

٢١- أن موسى كان حليما على بنى إسرائيل رءوفا بهم، فإن الله قد غضب عليهم بسبب عبادة العجل وهدَّدهم بالإبادة، وكذلك الشيوخ (النقباء) الذين ذهبوا مع موسى إلى جبل الطور لتقديم توبة الشعب، طلبوا رؤية الله تعالى جهلا وعنتا فأخذتهم الصيحة فأخذ موسى يتضرَّع إلى الله ويقول ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ١٥٥، ١٥٦].

٢٢- طلب الرحمة الجماعية من الله تعالى دلالة على قوة إيمان المرء وشفافية نفسه ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[المائدة: ١٥٦].

٢٣- جواز التعبير عن ملكية الإنسان لنفسه، وأنفس المخلصين له إذا كان ذا ثقة كبيرة فيهم ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي﴾[المائدة: ٢٥].

٢٤- استحسان التفريق والتمييز بين الفسقة والصالحين، شاهده قول موسى ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[المائدة: ٢٥].

٢٥- استفتاح الدعاء بالثناء على الله تعالى وتذييله ومزجه به، شاهده ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾[الأعراف: ١٥٥].

٢٦- جواز تخلف أدعية الرسل، لحكمة يعلمها الله وهذا نادر، شاهده ﴿قَالَ مُوسَىٰ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾[الأعراف: ١٤٣].

٢٧- الدعاء برفع العذاب إذا طلب القوم ذلك شريطة العودة إلى الله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ...﴾[الأعراف: ١٥٥].

٢٨- الدعاء على العُصاه بأشد العقوبات أمر جائز تقرّه الشرائع، خصوصا إذا رأى المرشد استحالة الإصلاح، شاهده ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[يونس: ٨٨].

٢٩- استجابة الله تعالى لأكثر أدعية موسى عليه السلام.



١- أدعية داود عليه السلام فى القرآن

٢- أدعية سليمان عليه السلام فى القرآن

٣- دروس وعبر من أدعية داود وسليمان فى القرآن



الفصل الأول
أدعية داود عليه السلام فى القرآن الكريم

داود عليه السلام

هو داود بن عيسى بن عوبيد بن بوعز بن سلمون بن نحشون بنوعمينا داب ابن أرام بن حصرون بن فارص بن يهوذ بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام[1].

كان داود يقيم مع أبيه «يس» فى بيت لحم، وكان شيخا قد تقدمت به السن، يعيش سعيداً آمنا وادعا مع بنيه، ولما وقعت الحرب بين الإسرائيليين بقيادة «طالوت» وبين الفلسطينيين بقيادة «جالوت». كان أبناء «يس» وهم إخوة داود ضمن جند إسرائيل، وكان داود وقتئذ صغيراً فنصحه أبوه بعدم الاشتراك فى الحرب لصغر سنّه، وكان عليه فقط أن يحمل الطعام فى ساحة الحرب، ويأتى بأخبارهم إلى أبيهم، إلا أن الله تعالى أراد أن ينهى هذه الحرب التى هابها الإسرائيليون بضربة من مقلاع داود، حيث وجهها إلى رأس قائد جيش عدوهم وهو «جالوت» فشجّها شجا، وأتبعها بأخرى حتى وقع على الأرض صريعا، فدبّ الذعر فى صفوف جنده، وحمل عليهم الإسرائيليون فكتب الله لهم النصر.

ومن يومئذ عُرف داود، وزوّجه «طالوت» ملك إسرائيل ابنته، ووعده بالمُلْكْ بعد وفاته، وآل إليه المُلكْ فعلا ولكن بعد صراع مرير بينه وبين طالوت، ولكن الله حمى داود وأعطاه مع المُلْك الحكْمة والنبوّة، كما قال تعالى ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾[البقرة: ٢٥٠، ٢٥١].

---

(١) العهد القديم . التوراة.

نعم الله على داود عليه السلام

أنعم الله على داود بنعم عظيمة، فمن ذلك:

١- أن الله ذكر فى الكتاب الكريم أنه سخّر الجبال والطير مع داود، يسبّحن بكرة وعشيا، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[سبا: ١٠] ومعنى (أوبى) رجِّعى بالتسبيح كما رجّع فيه، قال ابن عباس: كانت الطير تسبّح معه إذا سبّح، وكان إذا قرأ لم تبق دابة إلا استمعت لقراءته، وبكت لبكائه(١).

٢- إلانة الحديد. قال تعالى ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ . قال قتاده: سخّر الله له الحديد فكان لا يحتاج أن يدخله ناراً، ولا يضربه بمطرقة وكان بين يديه كالشمع والعجين، فكان يعمل الدروع المسردة، أى ذات الحلق من الحديد بيده معجزة له، وهو فى قدرة الله يسير، فإنه يلين بالنار حتى يصبح كالمداد الذى يكتب به، فأى عاقل يستبعد ذلك على قدرة الله؟(٢).

٣- عمله الدروع المركبة من حلق الحديد، وكانت تُعمل صفائح، فكان هو الذى نسجها من حلق الحديد، تناط الحلقة بأمثالها إلى أن يكمل الدرع، وهى أخف من الدروع الأخرى وأبعد من مضايقة لابسها، وهى تقى لابسها من أن تعمل فيه الأسلحة، فهى على لابسها حصن ينتقل بتنقله كما قال تعالى ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. .

٤- تشديد مُلْكه وإيتاؤه الحكمة وفصل الخطاب كما قال تعالى ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[ص: ٢٠]. والمراد بقوله ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أى قوّاه الله بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود ومزيد النعمة ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ أى النبوة وكمال العلم وعلم الشرائع ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ أى الكلام اللين الذى يفهمه من يُخاطب به(٣) قال مجاهد: يعنى إصابة القضاء وفهمه، وقال القرطبى: البيان الفاصل بين الحق والباطل(٤).

(١) زاد المسير (٦/ ٤٣٦).

(٢) الفخر الرازى (٢٥/ ٢٤٥).

(٣) هذا قول الزمخشرى واختاره ابن عطيه، واستدلّ بقوله تعالى ﴿إنه لقول فصل﴾ واختار الطبرى؛ أنه الفصل فى الكلام والحكم والمحاورة والخطب (انظر الطبرى: ٢٣/ ٨٤).

(٤) تفسير القرطبى (١٥/ ١٦٢).

قال المفسِّرون: كان مُلْك داود قويا عزيزا، وكان يسوسه بالحكمة والحزم معا، ويقطع ويجزم برأى لا تردد فيه مع الحكمة والقوة، وذلك غاية الكمال فى الحكم والسلطان.

٥- أن الله تعالى أعطاه الزبور كما فى قوله تعالى ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾ [الإسراء:٥٥] وهو عبارة عن قصائد وأناشيد تتضمن تسبيح الله وحمده والثناء عليه والتضرع له، وبعض أخبار مستقبله كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[الانبياء:١٠٥] أى أنه تضمن الإخبار بالنبى الآتى وهو محمد ﷺ وأصحابه، كما فى المزمور الخامس والأربعين.

وكان داود عليه السلام حسن الصوت حسن الإنشاد، حتى أنه إلى اليوم مضرب المثل بحسن الصوت، كما قال النبى ﷺ للصحابى الجليل أبى موسى الأشعرى وكان حسن الصوت حين يقرأ القرآن، إنه أُعطى مزماراً من مزامير داود عليه السلام.

٦- إنجابه سليمان عليه السلام، يشير إلى ذلك قوله تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣١].

٧- مدحه الله فى كتابه الكريم وذكره ليتأسى به نبيه محمد ﷺ قال تعالى ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾[ص:١٧] أى وتذكر يا محمد عبدنا داود ذلك النبى الشاكر الصابر، ذا القوة فى الدين، والقوة فى البدن فقد كان يصوم يوما ويفطر يوما، وكان يقوم نصف الليل فلم يهن لشدة ولم يضعف لاضطهاد.

﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أى كثير الرجوع والإنابة إلى الله، والأواب الرّجاع إلى الله، فكان كثير الرجوع إلى الله، واللجوء إليه فى الشدة والرخاء والسِّر والعلانية، وكان داود عليه السلام قد قسم أيامه إلى أربعة أقسام يوما للعبادة، ويوما للقضاء، ويوما للوعظ، ويوما لخاصة نفسه.

بقيت مسألتان.

المسألة الأولى: الحكم فى قضية الزرع

وهى كما حكاها المفسّرون: تخاصم إلى داود رجلان، دخلت غنم أحدهما على زرع الآخر بالليل فأفسدته فلم تُبق منه شيئا، فقضى بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم، فخرج الرجلان على سليمان وهو بالباب فأخبراه بما حكم به أبوه، فدخل عليه فقال: يا نبى الله لو حكمت بغير هذا كان أرفق للجميع! قال: وما هو؟ قال: يأخذ صاحب الزرع الغنم وينتفع بألبانها وصوفها ونسلها، فإذا خرج الزرع رُدت الغنم إلى صاحبها والأرض إلى ربها، فقال له داود: وُفقت يا بنى وقضى بينهما بذلك وهذا ما أشار إليه فى القرآن قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

المسألة الثانية: قضاء داود بين الخصمين

فى يوم من الأيام، كان داود عليه السلام فى مسجده منشغلا بالعبادة والطاعة، إذا برجلين يتخطيان الأسوار فى غفلة من الحراس ويدخلان عليه فى محرابه، ففزع منهما لهول المفاجأة، وظن أنهما يريدان به شراً، فقالا له: لا تخف، نحن خصمان تعدّى بعضنا على بعض، فجئنا نحتكم إليك فاحكم بيننا بالحق ولا تكن جائرا وارشدنا إلى الطريق الواضح المستقيم، ثم أخذ المُعتدى عليه يعرض شكواه فقال: إن صديقى وأخى فى الدين هذا وأشار إلى صاحبه يملك تسعا وتسعون نعجة، وأنا أملك نعجة واحدة ، فطمع فى نعجتى وأراد أن يأخذها منى ويضمها إلى نعاجه، وقد حاولت إقناعه بفساد طلبه لكنى فشلت وغلبنى فى الجدال والخصومة.

سمع داود القصة فأنكر على صاحب النعاج الكثيرة أن يأخذ من صاحبه نعجته الواحدة، وحكم عليه بأنه ظالم فى طلبه هذا، شأنه شأن الكثيرين من الشركاء الذين يتعدون على بعضهم البعض، إلا المؤمنين الذين يعملون الصالحات فإنهم لا يبغون وهم قليل فى المجتمع الإنسانى، وهنا تنبّه داود وأيقن أن الله اختبره بهذه الحادثة وتلك الحكومة ،اقرءوا الآيات.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا

إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ [ص: ٢١-٢٤].

دعاء داود عليه السلام

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[ص: ٢٤].

أى طلب المغفرة من الله، وخرّ ساجداً لله تعالى ورجع إليه بالتوبة والندم على ما فرط منه. قال أبو حيّان وذكر فى هذه القصة [(١)] أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء، ضربنا عن ذكرها صفحا، والذى يدل عليه ظاهر الآية من أن المتسوّرين للمحراب كانوا من الإنس، ودخلوا عليه من غير المدخل وفى غير وقت جلوسه للحكم، وأنه

(١) وقع بعض المفسّرين فى خطأ فاحش حين نقلوا بعض الأقوال الواهية فى تفاسيرهم، اعتماداً على ماجاء عند أهل الكتاب من غير تحقيق ولا تمحيص، مما لا يصح سنده ولا يجوز اعتماده، لأنه من القصص الإسرائيلية التى تتنافى مع العقيدة الإسلامية فى (عصمة الأنبياء) من هذه الأباطيل المدسوسة ما روى من أمر عشقه لزوجة قائد جيشه وخلاصتها «أن داود كان يمشى على سطح داره فنظر إلى امرأة تستحم فأعجبته وعشقها، وكانت زوجة أحد قواده ويسمى (أوريا) فأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها، فأرسله فى إحدى المعارك وحمّلة الراية وأمره بالتقدم فانتصر، فأرسله مراراً ليتخلص منه حتى قتل فتزوجها..» الخ ما هنالك من الكذب والبهتان، قال ابن كثير: وقد ذكر كثير من المفسِّرين ههنا قصصا وأخباراً أكثرها إسرائيليات، ومنها ما هو مكذوب ولا محالة، تركنا إيرادها فى كتابنا قصداً اكتفاء بمجرد تلاوة القصة من القرآن الكريم، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم وقال البيضاوى: وماقيل إنه أرسل (أوريا) إلى الحرب مراراً، وأمره أن يتقدم حتى قتل فتزوجها داود، فزور وافتراء، ولذلك قال على رضى الله عنه (من حدّث بحديث داود على ما يرويه القصّاص، جلدته مائة وستين جلدة وهو حد الفرية على الأنبياء)، وقال البيضاوى: وأقصى ما فى هذه القصة الإشعار بأنه عليه السلام ودّ أن يكون له ما لغيره، وكان له أمثاله فنبّهه الله بهذه القصة.. والصحيح فى موضوع هذه القصة ما ذكر المحققون من أئمة التفسير وعلمائه الأعلام، وبيان هذه القصة أن داود عليه السلام كان يخصص بعض وقته لتصريف شئون المُلك وللقضاء بين الناس، ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل الزبور تسبيحا لله فى المحراب، وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس، وفى ذات يوم فوجىء بشخصين تسوّرا المحراب الذى يتعبد فيه، ففزع منهما وأضمر فى نفسه أن يبطش بهما، فبادرا يطمئنانه أنهما خصمان اختلفا فى أمر بينهما، وبدأ أحدهما فعرض خصومته، كما قصّها القرآن الكريم، فى آياته البينات والقضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلما صارخا مثيراً لا يحتمل التأويل ومن ثم اندفع داود يقضى على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثا، ولم يطلب إليه بيانا، ولم يسمع له حجة، ولكنه مضى يحكم بقوله (لقد ظلمك بسؤال نعجتك =

فزع ظناً منه أنهم يغتالونه إذا كان منفرداً فى محرابه لعبادة ربه، فلما اتضح له أنهم جاءوا فى حكومة، وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قصّ الله تعالى، فاستغفر من ذلك الظن، وخرّ ساجداً لله عز وجل، ونحن نعلم قطعا أن الأنبياء معصومون من الخطايا، إذ لو جوّزنا عليهم شيئا من ذلك لبطلت الشرائع ولم نثق بشىء مما يذكرون، فما حكى الله فى كتابه يمر على ما أراده الله، وما حكى القصّاص مما فيه غض من منصب النبوة طرحناه[1] وقد استجاب الله دعاء عبده ونبيه داود عليه السلام. قال تعالى ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ﴾ أى فسامحناه وعفونا عنه ذلك الظن السيىء بالرجلين قال ابن كثير: أى غفرنا له ماكان منه مما يقال فيه «حسنات الأبرار سيئات المقرّبين»[2].

ثم مدحه الله تعالى وأثنى عليه فى كتابه الكريم قائلا ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾[ص:٢٥]أى وإن له لقربة وكرامة بعد المغفرة، وحُسن مرجع فى الآخرة.

وكانت مدة مُلك داود أربعين سنة، منها سبعة أعوام وهو ملك فى «حيرون» لسبط يهوذا وحده، ولإسرائيل كلهم: ثلاث وثلاثون سنة ملكا لجميع اليهود فى صهيون، وجعل ابنه سليمان ولى عهده قبل أن يموت، ومات وهو شيخ كبير جداً.

= إلى نعاجه..) إلى آخر الآيات فعاتبه الله على ذلك، ونبّهه إلى ضرورة تثبت القاضى من حكمه، وسماعه للخصم الآخر (وهذا رأى حسن). أما ما قاله البعض اعتماداً على بعض الروايات الإسرائيلية مما ذكرناه وحذّرنا منه، فإنه لا يصح بالنسبة إلى عوام المسلمين وجهلة الفساق، فما بالك بالأنبياء فليتدبر هذا من له عقل سليم ودين قوى».

(١) تفسير البحر المحيط (٧/ ٢٩٣) بشىء من الاختصار، وهذا هو الحق الأبلج الذى ندين لله عز وجل به، والذى يجب أن يعتقده المسلم فى الأنبياء والمرسلين.. وانظر التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى (٢٦/ ١٨٩).

بقى أن نذكر هذا الرأى للشيخ فى كتابه (قصص الأنبياء) لوجاهته، يقول رحمه الله: وحاصل ما يفهم من هذه القصة أن داود عليه السلام كان يرى بعض الأشياء عند غيره فيستحسنها وتقع من نفسه موقعا، ويتمنى لو كانت له. هذه الأشياء أعم من أن تكون امرأة أو سواها. وهو لا يريدك بذلك أن يكون له الشىء إلا من وجه حل طبعا، فأراد الله أن ينبهه على القناعة بما عنده من أمثال ما يستحسن مما أنعم الله به عليه، فأرسل الملكين بهيئة متخاصمين فلما أفتاهما وتحقق بعد ذلك أنهما ملكان، ظن أن الله تعالى ابتلاه، وأنهما معاتبان فى الواقع وليسا بخصمين، فاستغفر الله تعالى وأناب إليه.، وأولى منه أن يكون ندم على الحكم قبل سؤال المدعى عليه (رد على الرأى السابق)، هذا هو الذى ينبغى المصير إليه، وهو اللائق بمقام داود الذى يقول الله تعالى فيه ﴿نعم العبد إنه أواب﴾ ويقول أيضا ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مأب﴾ ويقول أيضا ﴿وآتينه الحكمة وفصل الخطاب﴾ وبعيد عن الحكمة أن يكون الحكيم فاسقا قاتلا من غير حق ولا برهان.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣١).

الفصل الثانى
أدعية سليمان عليه السلام فى القرآن الكريم

هو سليمان بن داود عليهما السلام، ورد ذكره فى القرآن الكريم ست عشرة مرة فى سور البقرة، والنساء، والأنعام، والأنبياء، والنمل، وسورة سبأ.

نشأ سليمان بن داود عليهما السلام فى بيت المُلك والنبوة، نشأة الصالحين المؤمنين، فأحبه أبوه حبا شديداً، ولم يكن يطيق فراقه فى حلِّه وترحاله، ولما اطمأن والده إليه وعرف حُسْن أخلاقه، أخذ يعدّه لولاية العَهد من بعده دون أخوته الثمانية عشر، فأخذ يشركه معه فى مجالس الحكم والقضاء، ويستشيره فى مهام الأمور، ويعرض عليه الفصل فى الخصومات، فرأى منه ذكاء خارقا وحكما صائبا.

كان عليه السلام أبيض اللون جسيما، وضيئا جميلا كثير الدهر يلبس البيض من الثياب، وكان لوالديه باراً مطيعا مخلصا حسن الخُلُق، خاشعا متواضعا، يخالط المساكين ويجالسهم ويأكل معهم ويتحدث إليهم ويقول: مسكين يجالس مسكين، وكان لا يشبع إلا من خبز الشعير، ولا يلبس إلا مع سعة ملكه، ولا ينفق إلا من عمل يده، وقد أثنى الله تعالى عليه فى قوله ﴿**وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾[ص:٣١] ومن آيات الله على سليمان وداود عليهما السلام، أن تفضّل الله عليهما فأتاهما علم الشرائع والأحكام، وقد أدرك هذان النبيّان مقدار ما أسبغ الله عليهما من النعم، فقالا الحمد لله الذى فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين، الذين لم يؤتوا من العلم مثلما أوتينا، قال تعالى ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[النمل:١٥] وحمد داود وابنه سليمان يعتبر دعاء ضمنيا لأن الحمد معناه الاعتراف بالجميل لصاحب النعمة، وهو بدوره شكر مستلزم للدعاء، لأن الحامد شاكر، والشاكر داع فكأن لسان حالهما يقول: يا ربنا أدم علينا هذه النعم واحفظها على الدوام،

واجعلنا لك حامدين شاكرين غير جاحدين، ولا متكبرين، ولا متعالين ولا مستغنين. ولما مات داود ورثه سليمان.

قال تعالى ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾[النمل:١٥]، ورثه فى نبوّته وحكمة وعلمه ومُلكه دون سائر أولاده، وكان لداود تسعة عشر ولداً أصغرهم سليمان، ولقد أتاه الله العلم والحكمة وعلّمه منطق الطير، وسخّر له الرياح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، كما سخّر له الجن والشياطين يعملون بأمره ما يشاء، وآخرين مقرّنين فى الأصفاد، وأسال له عين النحاس يصنع منها ما يريد، وغير ذلك مما ذكره القرآن الكريم فى آياته.

وقال السدى: لم يقع لأحد من ملوك الأرض مثل ما وقع لسليمان، وذلك أن الريح مركبه، والبحر خزائنه، والجن خدمه، والملائكة حفظته، والطير من الشمس تظله، والوحوش تحرسه، وآصف برخيا وزيره، والاسم الأعظم مكتوب على خاتمه.

وقال عبد الله بن أحمد[١] بإسناده إلى وهب بن منبه قال: ركب سليمان يوما على الريح، فمرّ بحرّاث فنظر إليه فقال: لقد أُوتى ابن داود مُلْكا عظيما، فحملت الريح كلامه فألقته فى أذن سليمان، فنزل من البساط حتى أتى الحراث وقال له: إنى سمعت كلامك يا أخى، وإنما مشيت إليك لئلا تتمنى مالا تقدر عليه، وأقول لك: إن تسبيحة واحدة يقبلها الله منك خير مما أُوتى آل داود، وقيل: خير من مُلْك ابن داود يفنى فقال له الحرّاث: أذهب الله همّك كما أذهبت همّى، ويبدو أن فترة حكمه كانت حافلة بالأعمال، إذ تم خلالها كثير من الإنشاءات التى تشير إليها آيات سفر الملوك[٢] حينما يذكر العمائر التى تمت فى عهد سليمان وهى:

١- بيت الرب (بيت المقدس)	٢- بيت الملك	٣ - سور أوشليم
٤- حاصور	٥- مجدو	٦- جازر
٧- بيت حورون السفلى	٨- بعلة	٩- تدمر المدينة

(١) كتاب الزهد (٤٠)، وعرائس المجالس (٢٩٣).
(٢) سفر الملوك (س٩).

كل ذلك عدا المخازن ومدن المركبات، ومدن الفرسان، وما بناه فى لبنان وغيرها من سائر مملكته، وكانت الجن والشياطين تطيعه وتنفذ أمره، وكانوا يعملون له ما يشاء من أضخم المبانى، والعمائر والتماثيل (وكانت التماثيل يجوز صنعها عندهم، والقدور الراسيات والجفان التى كأنها الحياض لسفنها)، كما عملوا له الطواحين والحمامات والقوارير والصابون، وحفروا له نهر الملك وقصر شيرين، وكانوا يغوصون فى البحار ويستخرجون له منها أنواع اللآلىء وسائر الجواهر البحرية، وكانوا يستخرجون اليواقيت والزمرد وأنواع الجواهر الثمينة والمعادن وهو أول من فعل ذلك، وقد وكل الله بهم ملكا بيده سوط من نار، فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه ضربةً أحرقته فكان الكل فى طاعته.

وذات يوم دعا سليمان جنوده، فاجتمع جنده من الإنس والجن والطير يتقدمهم سليمان فى أبهة وعظمة كبيرة، والكل مؤتمرون بطاعته، قال ابن عباس: جعل على كل صنف من يرد أولاها على أخراها لئلا يتقدموا فى المسير كما تصنع الملوك[1]، ومضى سليمان بهذا الجند، حتى إذا وصلوا إلى واد بالشام كثير النمل، سمع سليمان نملة تقول لزميلاتها: يا أيها النمل ادخلوا بيوتكم[2] واختبئوا فى جحوركم حتى لا يحطمنكم ويبيدكم سليمان وجيوشه بأقدامهم، وهم لا يشعرون بكم، ولا يريدون تحطيمنكم عن عمد، حذّرت ثم اعتذرت لأنها علّمت أنه نبى رحيم، فسمع سليمان كلامها وفهم مرامها، لأن الله علّمه منطق النمل، فتبسّم سروراً بما سمع من ثناء النملة عليه وعلى جنوده. اقرءوا الآيات:

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾[النمل: ١٧-١٩][3].

(١) الطبرى (١٩/ ٨٨).

(٢) خاطبتهم مخاطبة العقلاء لأنها أمرتهم بما يؤمر به العقلاء.

(٣) يتضح من النص القرآنى أن النمل يعيش فى مساكن، أى أن له مجتمعا خاصا، كما أن من خصائصه اليقظة والحذر، وأن له لغة خاصة يتفاهم بها، هذا وقد عرف عن مجتمع النمل خصائص عدة تظهر أن له مجتمعا منظما، وأنه على قدر كبير من الذكاء والدهاء وحب العمل والمثابرة وسعة الحيلة، فجماعات النمل تحرص على الالتقاء فى صعيد واحد من حين إلى آخر، وهذه الجماعات حين تلتقى تتجاذب أطراف الحديث، ويسأل بعضها بعضا أسئلة تتصل بشئونها، ولولا خشية الإطالة لذكرنا الكثير من خصائص النمل.

لطيفة: قال بعض العلماء هذه الآية ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ...﴾ من عجائب القرآن، لأنها بلفظة (يا) نادت، (أيها) نبّهت، (النمل) عيّنت، (ادخلوا) أمرت، (مساكنكم) نصّت، (لايحطمنكم) حذّرت، (سليمان) خصّت، (جنوده) عمّت، (وهم لا يشعرون) اعتذرت، فيالها من نملة ذكية!!

الدعاء الأول

دعاء سليمان عليه السلام تعقيبا على حديث النملة معه قوله﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ أى ألهمنى ووفقنى لشكر نعمائك وأفضالك التى أنعمت بها علىّ وعلى أبوى، وبهذه الجملة الكريمة أقر سليمان للنملة على ما تظن فيه من الرحمة، فقد دعا ربه أن يجعله من الشاكرين، وفى هذا لفت لطيف إلى أنه ينبغى للقوى أن يرحم الضعيف.

﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أى وفقنى لعمل الخير الذى يقرّبنى منك والذى تحبه وترضاه ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أى وأدخلنى الجنة بفضلك ورحمتك فى عداد عبادك المؤمنين الصالحين الذين نالوا رضاك.

قال الإمام الشوكانى فى تفسيره: هذه الآية منادية بأعلى صوت، وأوضح بيان بأن دخوله الجنة التى هى دار المؤمنين، بالتفضّل منك، لا بالعمل منهم كما قال رسولك الصادق المصدوق فيما ثبت عنه فى الصحيح «سدّدوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته».

ثم قال الشوكانى: فإذا لم يكن إلا تفضّلك الواسع فترك طلبه عجز، والتفريط فى التوسّل إليك بالاتصال إليه تضييع.

---

(١) أوزعنى : اجعلنى أو الهمنى.

سليمان والخيل: الصافنات الجياد[1]

ومن نعم الله على سليمان تلك الخيل الأصيلة التى كان يملكها، والتى كان يستعرضها أمامه من حين لآخر، قال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[ص: ٣٠-٣٢]. .

ويقول بعض المفسّرين فى تفسير هذه الآية: إن سليمان عُرض عليه خيل جياد ـ فى وقت العصر ـ فألهاه ذلك عن صلاة العصر، فغضب لذلك وطلب من الله أن يردّ عليه الشمس بعد غروبها ليصلى العصر حاضراً، فردت ثم غضب على الخيل التى كانت سببا فى فوت الصلاة فقطع أعناقها وسوقها، وأن الضمير فى قوله ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ وفى قوله تعالى:﴿رُدُّوهَا﴾ للشمس المفهومة من قوله: ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ ومعنى ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ أنه أحب هذه الخيل مُعرضا عن ذكر ربه وهو الصلاة، وقال السدى: وأما قول من قال: إنها شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس فضعيف، لأنه لا يتصور من نبى أن يترك صلاة العصر من أجل اشتغاله بالدنيا (أ.هـ) وإنما شغلته عن ذكر خاص له حتى غابت الشمس، ولذا قال سليمان: ردُّوا علىّ هذه الخيل، فشرع يذبحها ويقطع أرجلها لتكون طعاما للفقراء لأنها شغلته عن ذكر الله. . وهذا التأويل وما تضمنه يبدو لنا بعيداً بُعْد المشرقين. . والصحيح ما ذكره الإمام الفخر الرازى فى تفسيره قال: إن هذه القصص إنما ذكرها الله تعالى عقيب قوله تعالى ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾[ص:١٦]،أى قال كفار مكة على سبيل الاستهزاء والسخرية: عجّل لنا يا ربنا نصيبنا من العذاب الذى وعدته لنا، قبل أن يجىء يوم القيامة أن كان الأمر كما يقول محمد. . . فلما بلغ الكفار من السفاهة إلى هذا الحد، قال تعالى

---

(١) الصافنات: الخيل التى تقوم على ثلاث قوائم، وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر يد أو رجل، قاله مجاهد وابن زيد واختاره الزجاج واحتج بقول الشاعر:

ألف الصفوف فما يزال كأنه   مما يقوم على الثلاث كسيرا

لمحمد ﷺ ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾[ص:١٧] ثم ذكر عقبها قصة سليمان، وهذا الكلام لا يكون لائقا إلا بقولنا: إن سليمان عليه السلام أتى فى هذه القصة بالأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة، وصبر على طاعة الله، وأعرض عن الشهوات واللذات. فلو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام فى هذه المواضع، أنه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة، لم يكن ذكر القصة لائقا بهذا الموضع! فثبت أن كتاب الله تعالى ينادى على هذه الأقوال بالرد والإفساد والإبطال: بل التفسير المطابق للحق ولألفاظ القرآن الكريم والصواب: أن نقول إن رباط الخيل كان مندوبا إليه فى دينهم، كما أنه مندوب إليه فى دين محمد ﷺ، فاحتاج إلى الغزو، فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها، وذكر أنه لا يحبها لأمر الدنيا ونصيب النفس، وإنما يحبها لأمر الله تعالى وطلب تقوية دينه، وهو المراد من قوله ﴿عن ذِكْرِ رَبِّي﴾[ص:٣٢] ثم إنه عليه السلام أمر بإعدادها وتسييرها حتى توارت بالحجاب، أى غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين أن يردّوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك المسح أمور.

الأول: تشريفا لها وإبانة لعزّتها لكونها من أعظم الأعوان لدفع العدو.

الثانى : أراد أن يظهر أنه فى ضبط السياسة والمُلْك متضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه.

الثالث : أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض؟ فهذا التفسير الذى ذكرناه ينطبق انطباقا موافقا، ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات إلى سليمان عليه السلام.

ثم قال الرازى: وأنا شديد التعجب من الناس، وكيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع أن النقل والعقل يردانها؟ وليس لهم فيها شبهة فضلا عن حجة. وقد أطال الفخر الرازى فى الرد على من يقول خلاف هذا، وهذا الموقف ليس فيه عند أهل الكتاب كلام أصلا.

ابتلاء سليمان أو فتنته

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾[ص: ٣٤].

هذه إشارة إلى ابتلاء آخر لسليمان عليه السلام ابتلى به، ثم تاب وأناب من تلك الهفوة والزلّة: قال المفسِّرون إن الشيطان سلب مُلْك سليمان، وجلس على كرسيه أربعين يوما قاضيا بين الناس، وذكروا أن اسمه(صخر)، أو (آصف) وقيل غير ذلك.

واختلفوا فى كيفية استيلائه على كرسى سليمان والجلوس عليه، فذكر الطبرى فيما يحكيه عن مجاهد: أن شيطانا اسمه (آصف) سأله سليمان: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرنى خاتمك أخبرك، فلما أعطاه إياه نبذه آصف فى البحر، فساح سليمان وذهب مُلْكه، وقعد آصف على كرسيه. . . . . إلخ.

وروى ابن أخى حاتم أن سليمان عليه السلام أراد أن يدخل الخلاء فأعطى الجراده - زوجته ـ خاتمه، وكانت أحب نسائه إليه فجاءها الشيطان، واسمه هنا صخر، كان خارجا عن طاعة سليمان متمرداً عليه، فقال للمرأة: هاتى خاتمى فظنته سليمان، فأعطته إياه، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين. . . إلخ

وكل هذه الروايات خرافات وأباطيل، وهى من الحكايات الإسرائيلية المصطنعة وقال عنها ابن كثير: وقد أورد بعض المفسّرين آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف، وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات وفى كثير منها نكارة شديدة[1].

ففتنة سليمان ابتلاؤه، وإلقاء الجسد على كرسيه بمعنى جلوس الشيطان عليه، ونفاذ أمره فى الرّعيّة والمُلْك كما زعموا. . . هذه أقوال لم يرد بها قرآن ولا نقل صحيح عن رسول الله ﷺ، ولا تنطبق على عقل ولا على حكمة فهى حرية بالرد، وقد رد عليها العلماء بوجوه:

الأول: أن الشيطان لو قدر على التشبيه فى الصورة والخلق بالأنبياء فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع، فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس فى صورة محمد وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ما كانوا أولئك، بل كانوا شياطين

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦).

تشبّهوا بهم فى الصورة لأجل إغواء الناس وإضلالهم، ولما كان ذلك باطلا لأنه يؤدى إلى إبطال الدين بالكلية، وكان ما أدى إليه باطلا بالكلية.

الثانى: لو قدر الشيطان على سليمان يعامله هذه المعاملة، لقدر على مثلها من العلماء والزهاد فيقتلهم، ويمزق كتبهم ويمحوها ويثبت فيها شيئا آخر. ولما كان الشاهد خلاف ذلك، وأنه لم يقدر على أحد منهم على هذا، فوجب أن يكون سليمان ممن لا يقدر عليهم بالأولى.

الثالث: لو قلنا إن المرأة عبدت صورة أبيها (وهى الجرادة زوجته كما زعموا)، فلا يخلو الأمر إما أن يكون ذلك بأمر سليمان، وحينئذ يكون كافراً وهو محال، وإما أن يكون بدون أمره وعلمه وحينئذ لا جريرة صدرت منه ولا عقاب عليه.

الرابع: يقولون إن الشيطان لما جلس على كرسى سليمان اجتمعت عليه الطير والإنس والجن، وقائل هذا فى غفلة عما جاء فى الكتاب الكريم من أن تسخير الجن لسليمان إنما كان بعد الفتنة لا قبلها، بدليل قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾[ص: ٣٤-٣٧].

فهذه الروايات الضعيفة، وما تحمل من حكايات مصطنعة متلقاة أصلا عن الإسرائيليات الذين ينكرون نبوة سليمان ويزعمون أنه كان ملكا، والنبوة كانت فى أبيه داود، ومن ثم ساغ لهم خلق مثل هذه الخرافات والحكايات المصطنعة.. وهذا باطل بزعمهم ومحض افتراء.. فنبوة سليمان عليه السلام ثابتة بالنص الكريم فى كثير من مواضع الذكر الحكيم قال تعالى ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام: ٨٣]. إلى أن قال ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ أى ومن ذرية إبراهيم هؤلاء الأنبياء الكرام، وبدأ تعالى بذكر داود وسليمان لأنهما جمعا المُلْك مع النبوة.

وفى سورة الأنبياء يخاطب المولى سبحانه وتعالى نبيه محمد ﷺ بقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٢٥].

ثم ذكر من جملتهم داود وسليمان عليهما السلام.. وهكذا. ولعل هذه الفتنة ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾. ما رُوى عنه فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال «قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ـ ولم يقل إن شاء الله ـ فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، والذى نفسى بيده: لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون»[1].

واختار الإمام الفخر أن الفتنة المذكورة فى الآية الكريمة يُقصد بها فتنة فى جسده، حيث أن سليمان ابتُلى بمرض شديد نحلَ منه وضعف، حتى صار لشدة المرض كأنه جسد ملقى على كرسى. قال والعرب تقول فى الضعيف: إنه لحم على وضم، وجسم بلا روح. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أى رجع إلى حال الصحة[2].

الدعاء الثانى

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

أى قال سليمان: رب اغفر لى ما صدر منى، واعطنى مُلْكا واسعا لا يكون لأحد غيرى، ليكون دلالة على نبوتى إنك واسع الفضل كثير العطاء، وقد أعطاه الله ذلك بنص الكتاب الكريم. قال تعالى ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ أى فذلّلنا الريح لطاعته، إجابة لدعوته ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ أى تسير بأمره لينة طيبة حيث قصد وأراد ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أى وسخرنا له الشياطين كذلك تعمل بأمره، منهم من يستخدمه لبناء الأبنية الهائلة العجيبة، ومنهم من يغوص فى البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان ﴿آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ أى وآخرين من

---

(١) تفرّد به البخارى وأحمد أيضا، ورواه أبو يعلى، وعزا إسناده على شرط الصحيح ولم يخرّجوه من هذا الوجه، ولفظة (إن شاء الله) إنما يُقصد بها التّعبد لا إنجاح المطلب، فقد قال موسى للعبد الصالح ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾[الكهف: ٩٦] ولم يصبر.

(٢) انظر التفسير الكبير للرازى (٢٦/٢٠٨) فقد أفاد فيه وأجاد.

الشياطين وهم المردة موثوقون فى الأغلال، مربوطون بالقيود والسلاسل لكفرهم وتمردهم عن طاعة سليمان.

ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه قال ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[ص:٣٧] أى اعط من شئت، وأحرم من شئت، فلا حساب عليك، أى: تصرّف فى المال كيف شئت، فإن الله قد سوّغ لك ما تفعله من ذلك، ولا يحاسبك على ذلك، وهذا شأن النبى الملك، بخلاف العبد الرسول، فإن من شأنه أن لا يُعطى أحداً إلا بإذن الله له فى ذلك.

وقد خُيِّر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين، فاختار أن يكون عبداً رسولا. وفى بعض الروايات أنه استشار جبريل فى ذلك فأشار إليه أن تواضع، فاختار أن يكون عبداً رسولا، صلوات الله وسلامه عليه، وقد جعل الله الخلافة والمُلْك من بعده فى أُمته إلى يوم القيامة، فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة، فلله الحمد والمنة. ولما ذكر تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا، نبّه على ما أعدّه له فى الآخرة من الثواب الجزيل، والأجر الجميل، والقُرْبة التى تقربّه إليه، والفوز العظيم والإكرام بين يديه، وذلك يوم المعاد والحساب حيث يقول تعالى ﴿إِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾[ص:٣٧].

بقى لنا وجه فى فتنة سليمان ودعاءه عليه السلام: ذكره الشيخ النجار[١] فى كتابه (قصص الأنبياء).. قال.

وعندى وجه لم يذكره أحد من العلماء: وهو أن كرسى داود إنما هو كرسى سليمان، لأن داود كان يرشح سليمان للمُلْك والجلوس على كرسيه، وقد قام أبشالوم بن داود وثار على والده[٢]، وانتزع المُلْك من داود وجلس على الكرسى الذى هو فى الواقع كرسى سليمان ـ وهرب منه داود إلى شرق الأردن.. وسرح الجيوش لمقاتلته، وباشر أبشالوم الحرب بنفسه، فقُتل أبشالوم إذ مرّ به بغله تحت

(١) قصص الأنبياء لفضيلة الشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله: ص. ٣٣٠-٣٣١. ط. الحلبى بالقاهرة.

(٢) قال علماء السير: وكان لداود ولد يُقال له شالوم كان أكبر ولده خرج على أبيه داود وأراد قتله، فصرف الله عنه المُلْك إلى سليمان (تاريخ الطبرى... وغيره).

بطمة (شجرة) فتعلق فى أغصانها من شعره، فأتى رئيس الجند (يوآب) وقتله، وعاد سليمان إلى كرسيه بعد أن تزعزع بفعل أخيه أبشالوم. وتضرع إلى الله وسأله مُلْكا لا ينبغى لأحد من بعده.

ويستطرد فيقول: لاشك فى أن سليمان فى تلك البرهة كان يعتقد اعتقاداً جازما لاشك فيه أن الكرسى الملكى أفلت من يده، ولا رادَّ له سوى الله تعالى، فاستغفره تعالى لما قد أسفل من هواجس نفسية لا يخلو منها من كان مثله فى سن الصبا، من زهو بذلك الكرسى، وتسّرب إلى نفسه دبيب اليأس، فاستغفر سليمان ربه لتلك الهواجس التى تعدّ على المقرّبين ذنوبا، وهى غير ذنوب، وأناب إليه ضارعا أن يهب له مُلْكا لا ينبغى لأحد من بعده، فآتاه الله ذلك المُلْك بعد وفاة أبيه داود الذى كان قد بلغ من الكبر عتيا، وسخّر لسليمان ما سخر من الجن والإنس والطير والرياح التى تجرى بأمره، وكل ما يُدعى خلاف ذلك فلا يخلو من أن يكون هاجس نفس أو جموع خيال.

الفصل الثالث

دروس وعبر من أدعية داود وسليمان عليهما السلام

١- أن الله تعالى اختار داود عليه السلام ليفعل على يديه العجائب ولم يكن من أهل تلك الأفعال، لأنه كان غلاما راعيا للغنم، فقتل بيده جالوت الجبار الذى تهابه الأبطال، ولم يقتله بسيف ولارمح، ولم ينزل إليه بدرع ولاترس، وإنما قتله بحجر من مقلاع فى يده، فكان ذلك أدل على قهر الله تعالى للجبابرة بأحقر الأشياء على يد عبده الضعيف داود، فسبحان من زلّت له رقاب الجبابرة، وسبحان من يقول للشيء كن فيكون.

٢- أن الله مالك المُلك يؤتى ملكه لمن يشاء إذا شاء، ويمنعه عمن يشاء، إذا شاء، وهو على كل شيء قدير، فقد صار مُلْك بنى إسرائيل بعد موت شاول وهو ملك بنى إسرائيل إلى داود، وهو من عامة الشعب وقد اتسع مُلكه وامتد من إيله ـ خليج العقبة-وهى المدينة التى على الخليج إلى الفرات.

قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران:٢٦].

٣- أن الشخص الضعيف لا ينبغى له أن ييأس من النجاح، وإحراز أسباب الفلاح، مادام معتصما بأسباب التقوى والشكر لنعم الله تعالى.

٤- أن طاعة الله وشكر نعمه مما يوجب المزيد منها، فإن الله تعالى لما رأى طاعة عبده ونبيه داود زاده من نعمه، فألان له الحديد، وعلمّه صنعة الدروع المسردة لتحصن الناس بأس الحروب، وأنعم الله عليه بولده سليمان.

٥- ومن نعم الله على داود أيضا أن سخر له الجبال يسبّحن معه بكرة وعشيا ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴾[ص:١٨] فخص التسبيح بوقتين، عند مغيب الشمس وامتداد الليل، وعند شروقها، فدل ذلك على اختصاصهما

بمزيد شرف يصلح لأن يكون سببا للحرص على الدعاء فى هذين الوقتين، فإن للأزمنة والأمكنة أثر فى فضيلة ما يقع فيهما من الدعاء والعبادة.

٦- ويخاطب الله داود الحاكم والقاضى بقوله: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[ص:٢٦].

ففى هذه الآية يوصى الله داود بأن يحكم بين الناس بالحق، أى بالعدل الذى به تستقيم الأمور، وتصلح الأمة. ويبين القرآن الأسباب والعوامل التى تصرف الحاكم عن طريق الحق، وهى اتباع هوى النفس ونزواتها وشهواتها، ولهذا فإن الله بعد وصيته لنبيه داود أن يحكم بالحق، يحذّره بقوله له ﴿لَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ .. لأن متابعة الإنسان لهوى النفس يصرفه ويضله عن سبيل الله، الموصل إلى السعادة والفوز العظيم، كما أن الخروج عن الطريق التى رسمها الله، يودى بصاحبه إلى العذاب الشديد يوم القيامة.

وهذه وصية من أروع الوصايا التى ذكرها القرآن الكريم، تعصم الحاكم والقاضى من الزلل، وتجنبهما إصدار أحكام جائرة تكون عواقبها وخيمة على نظام الدولة وهيبة القضاء، فتزعزع بنيانهما من الأساس.

٧- وفى دعاء داود عليه السلام درس فى محاسبة النفس عما يصدر عنها من أخطاء، فإن داود استغفر ربه لمجرد الظن من الوقوع فى الزلل ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[ص:٢٤].

فما بالك بمن يتيقن الوقوع فى الزلل وارتكاب المعاصى، فياله من درس بليغ فى الحرص على محاسبة النفس، وكبْح جماحها إذا مرّ بها خاطر السوء، لأن ترك النفس على غاربها يؤدى إلى فسادها، فإذا حدثتك نفسك أيها المؤمن بإتيان عمل منكر، أو راود ذهنك خاطر من حسد أو بغض نحو أخيك الإنسان، عليك أن تقتدى بنبى الله داود، فتخرّ راكعا لله أو ساجداً، راجعا إليه بالتوبة، فيغفر الله لك، لأن الله يحاسبك حتى علىّ ما تضمره نفسك ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾[ص:٢٨٤].

وهذا أسلوب حكيم من أساليب القرآن لإصلاح النفس فإن الأعمال المنكرة وخاطرات السوء إذا تُركت في الإنسان بدون علاج أضرت بسلوكه، وانعكست على أفعاله ولهذا قال عثمان رضى الله عن: «ما أسرّ أحد سريره إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه»، وقالت العرب: «مافيك يظهر على فيك»، وما أشبهه بقول الشاعر المجرِّب الحكيم، زهير بن أبى سلمى:

ومهما تكن عند امرؤ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

٨- فضل العلم وشرف أهله قال تعالى ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[النمل: ١٥] فهذه الآية دليل على فضل العلم وشرف أهله وتنبيه العلماء أن يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم من فضله، ويستشعروا منزلة العلم التى لا يوازيها شىء، وفى تخصيص الآية بأن الله فضلهما على كثير من عباده، إشاره إلى أن البعض الآخر قد يكون مفضلا عليهما، وفى هذا لفت نظر العلماء إلى أن يتواضعوا، لأن فى عباد الله من يفضلونهم فى العلم. ويكفى فى شرف العلم قوله لنبيه ﷺ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾[طه: ١١٤] وقوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» ومن أطرف ما قرأت فى بيان فضل العلم تلك المحاورة اللطيفة بين العقل والعلم حيث يقول القائل:

علمُ العليم وعقل العاقل اختلفا من ذا الذى منهما قد أحرز الشرفا
فالعلم قال: أنا أحرزت غايته والعقل قال: أنا الرحمن بى عُرفا
فأفصح العلم إفصاحا وقال له بأينا الله فى قرآنه اتصفا
فبان للعقل أن العلم سيّده فقبّل العقل رأس العلم وانصرفا

٩- وجوب الشكر لله على عبده لكل نعمة أسبغها عليه وخاصة نعمة العلم.

١٠- من برِّ الوالدين أن يشكر العبد ربه على ما أسبغ على والديه من النعم.

١١- ومن برِّ الوالدين أن يشكر العبد ربه لنعمة الوالدين عليه.

١٢- تصدير الدعاء باللفظ الدال على الربوبية والتربية وكمال الكفالة لاستمطار الإجابة من الله تعالى.

١٣- التضرع إلى الله تعالى بإلهام العبد بكلمات الشكر والثناء والحمد اللائقة بذات الله تعالى.

١٤- مشروعية الدعاء للحاق بالصالحين من عباد الله فى الدنيا والآخرة بما مُنِحوا من الرضا والمكانة عند الله.

١٥- التوفيق للعمل الصالح من الله ودخول الجنة برحمة الله وليست بعمل الإنسان.

١٦- حُسْن اختيار الألفاظ الصالحة للدعاء والتنسيق فيما بينهما.

١٧- أكثر الناس ابتلاء فى الدنيا الرُّسل والأنبياء والصالحون ثم الأمثل فالأمثل.

١٨- قد تكون عقوبة الدنيا زواجر لا جوابر خصوصا فى حق الأنبياء.

١٩- جواز تركيز الله القوة فى بعض خلقه حتى ولو كانت جماداً كما حدث فى خاتم سليمان.

٢٠- إن حسن الترتيب فى جمل الدعاء مع براعة الاستهلال وجمال التذييل أدعى للقبول.

٢١- جواز تشكل الشياطين بالأشكال المختلفة حتى يلتبس على البشر التمييز بينهم وبين من تشبّهوا بهم.

٢٢- جواز دعاء العبد ربه بأن لا يصيبه مرة ثانية بما سبق أن ابتلاه به.

٢٣- جواز الدعاء بنعم خاصة بالداعى إذا لم يكن ذلك بدافع الحقد والحسد والأنانية.

٢٤- جواز التعبير بجمل تفيد التعليل لما طلبه العبد من ربه وفى الوقت نفسه هى ثناء على الله تعالى.

٢٥- الجن غير الشياطين ولكل منهم قوى متفاوته.

٢٦- جواز تسخير الجن والطير والريح لبنى الإنسان بإرادة الله تعالى.

٢٧- استجابة الله تعالى لأكثر طلبات الرُّسل والأنبياء عليهم السلام.



الباب الثامن

١- أدعية يونس عليه السلام فى القرآن الكريم.

٢- دروس وعبر من أدعية يونس عليه السلام.

٣- أدعية زكريا عليه السلام فى القرآن الكريم.

٤- دروس وعبر من أدعية زكريّا عليه السلام.

٥- المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.

٦- أدعية عيسى عليه السلام فى القرآن.

٧- دروس وعبر من أدعية عيسى عليه السلام.



الفصل الأول
أدعية يونس عليه السلام فى القرآن الكريم

هو يونس بن متى عليه السلام، نبيّ الله ورسوله. قال الله تعالى ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[الصافات: ١٣٩][١].

ذُكر يونس عليه السلام باسمه فى القرآن الكريم أربع مرات فى سور: النساء والأنعام ويونس والصافات، وذُكر بوصفه فى سورتى الأنبياء والقلم.

بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل نينوى من أرض الموصل[٢] فدعاهم إلى الله عزّ وجل، فكذبوه وتمردوا، وظلوا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث.

ظن يونس عليه السلام أنه قد أدى الرسالة وقام بكل المهمة التى أمره الله بها، وخرج من مدينتهم مغاضبا لهم بسبب عصيانهم وإصرارهم على الكفر، وكان تركه المدينة بدون إذن ربه ظنا منه أن الله لن يضيّق عليه فيؤاخذه على ما فعل، وظل سائراً حتى أتى إلى ساحل البحر، فوجد سفينة على أهبة السفر. فطلب من أصحابها أن يركب معهم ففعلوا.

---

(١) ويونس: هو ابن متى، قيل اسم أبيه وهو من ولد يعقوب، قاله مجاهد، وقال مقاتل: متى اسم أمه، ولم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمه غير يونس وعيسى بن مريم، قال: وهو من ولد بنيامين بن يعقوب، ويونس بن متى عند بعض أهل الكتاب هو (يونان بن امتاى) وله كتاب ضمن الكتب القانونية التى قبلتها الكنيسة، وكتابه يقع فى أربعة إصحاحات (فصول). وقال عنه الشيخ النجار: والظاهر من أمره أنه من اليهود، ويوجد ببلد اسمه (حلحول) قرب مدينة الخليل بفلسطين قبر يقال إنه قبر (يونس) وبمكان غير بعيد عنه قبر آخر يقال إنه قبر (متى).

(٢) كانت نينوى من أرض الموصل عاصمة دولة آشور، تلك الدولة التى بسطت سلطانها على معظم بلاد آسيا، وكانت من أغنى وأعظم المدن الشرقية فى ذلك الزمن، وأدت سعة الرزق بها وغناها الفاحش إلى ضلالها بارتكاب الموبقات والمعاصى، وبالإضافة إلى هذا فقد كان أهل نينوى يعبدون الأصنام ولا يؤمنون بالله تعالى، فكان هلاكهم أمراً مقضيا لولا أن الله تعالى تداركهم برحمته فأرسل إليهم يونس عليه السلام.

يونس فى بطن الحوت

سارت السفينة فى عرض البحر، فناوأتها الرياح والأمواج، فلجَّت بهم، واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها وكادوا يغرقون، فقال الملاحون: إن فينا صاحب ذنب ولابد لنجاة السفينة من إلقائه فى الماء لتنجو من الغرق، فاقترعوا فخرجت القرعة على نبى الله يونس الذى أخبرهم بقصته، فقالوا: أما أنت فليس نلقيك والله ما نرجوا النجاة إلا بك، فأعادوا القرعة ثانية فوقعت عليه أيضا، فاستعد ليخلع ثيابه فأبوا عليه ذلك، فأعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضا لما يريده الله به من الأمر العظيم، فألقى فى البحر، فبعث الله حوتا عظيما فالتقمة وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم.

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ[١] إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ[٢] ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ[٣] فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ[٤] ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ[٥] الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ[٦] ﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٢].

ماذا فعل قوم يونس بعد تركه لهم ؟

فلما خرج يونس من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله فى قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح وأظهروا الإيمان وأخلصوا النيّة، وخرجوا إلى الصعيد بأهليهم وصبيانهم ومواشيهم، وفرّقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب، وعجُّوا إلى الله وبكوا وتضرّعوا، وردوا المظالم إلى أهلها حتى أن الرجل كان يأتى إلى أساس داره فيقلع الحجر الذى غصبه ويرده إلى صاحبه، وصاحوا: ياحى حين لاحى، يا

---

(١) أبق : هرب.

(٢) الفلك المشحون: المملوء.

(٣) ساهم : قارع أى ضرب القرعة قال المبرد: وأصله من السهام التى تجال.

(٤) المدحضين: المغلوبين وأصله من الزلق يقال : دحضت حجته، وأدحضها الله أى غُلب وهُزم .

قال الشاعر:

قتلنا المدحضين بكل فج ... فقد قرّت بقتلهم العيون

(تفسير القرطبى : ١٥/ ١٢٣).

(٥) التقمة : ابتلعه.

(٦) مليم : آت بما يلام عليه.

محيي الموتى. لا إله إلا أنت، آمنا بما جاء به يونس، وكانت ساعة عظيمة فكشف الله عنهم العذاب برحمته ورأفته فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[يونس:٩٨].

أى فهلا كانت قرية واحدة من القرى التى أهلكها الله، تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان عند معاينة العذاب فنفعها إيمانها فى ذلك الوقت غير قوم يونس، فإنهم لما تابوا عن الكفر وآمنوا بالله، رفع عنهم العذاب المخزى المهين فى الحياة الدنيا، ومتعّهم إلى انقضاء آجالهم. وكانوا يزيدون على مائة ألف إنسان قال تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[الصافات: ١٤٧].

دعاء يونس عليه السلام

لما التقم الحوت يونس ألهم الله هذا الحيوان أن لايصيبه بأذى، أخذ الحوت يطوف به فى قرار البحار اللجيّة، ويقتحم لجج الموج الأجاجى[1] فسمع تسبيح الحيتان للرحمن، وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى، ورب السموات السبع والأرضين السبع وما بينها وما تحت الثرى فعند ذلك وهنالك، قال ما قال بلسان الحال والمقال، كما أخبر عنه ذو العزة والجلال، الذى يعلم السّر والنجوى، ويكشف الضر والبلوى، سامع الأصوات وإن ضعفت، وعالم الخفيّات وإن دقت، ومجيب الدعوات وإن عظمت، حيث قال فى كتابه المبين المنزّل على رسوله الأمين، وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين ﴿وَذَا النُّونِ﴾ أى صاحب الحوت وهو يونس عليه السلام: والنون هو الحوت نُسب إليه لأنه التقمه ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ أى حين خرج من بلده مغاضبا لقومه إذ كان يدعوهم إلى الإيمان فيكفرون حتى أصابه ضجر منهم فخرج عنهم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾[القلم: ٤٨] ولا يصح قول من قال: مغاضبا لربه، قال أبو حيان:

(١) نسبة إلى الأجاج وهو: الملح الزعاف

وقول من قال مغاضبا لربه يجب طرحه إذ لا يناسب منصب النبوة[1] وقال الرازى: لا يجوز صرف المغاضبة إلى الله تعالى: لأن ذلك صفة، من يجهل كون الله مالكا للأمر والنهى، والجاهل بالله لا يكون مؤمنا، فضلا عن أن يكون نبيا، ومغاضبته لقومه كانت غضبا لله، وأنفة لدينه، وبغضا للكفر وأهله[2] ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[الأنبياء: ٨٧] أى ظن يونس أن لن نضيقّ عليه بالعقوبة كقوله ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾[الطلاق: ٧] أى ضيق عليه فيه، فهو من القدر لامن القُدرة. قال الإمام الفخر: من ظن عجز الله فهو كافر، ولاخلاف أنه لايجوز نسبة ذلك إلى آحاد المؤمنين، فكيف إلى الأنبياء عليهم السلام! روى أنه دخل ابن عباس على معاوية فقال له معاوية: لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها، فلم أجد لى خلاصا إلا بك، فقال: وما هى؟ قال: يظن نبى الله يونس أن لن يقدر الله عليه؟! فقال ابن عباس: هذا من القدر لامن القُدْرة[3]﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾[الأنبياء: ٨٧] أى نادى ربه فى ظلمة الليل وهو فى بطن الحوت، قال ابن عباس: جمعت الظلمات لأنها ظُلمة الليل، وظُلمة البحر، وظلمة بطن الحوت.

﴿أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧]. هذا هو دعاء يونس عليه السلام فى بطن الحوت، وهو ليس دعاءً صريحا بل هو من أدعية الثناء، وهو مشتمل على جمل ثلاث:

الجملة الأولى: ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ﴾ بهذه الجملة أعلن التوحيد الكامل لله تعالى، فلا إله بحق سواه، فهو ينفى عن الله الشرك الظاهر والخفى، وهى التى قال عنها المصطفى صلوات الله وسلامه عليه:« أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، هى كلمة الإخلاص، وكلمة التقوى، وشهادة الحق، ودعوة الحق، وبراءة من الشرك، ونجاة هذا الأمر، ولأجلها خُلق الخلق، وهى مفتاح الجنة، ومفتاح دعوة الرسل، وبها كلّم الله موسى مواجهة، وهى توجب المغفرة، ونجاة من النار، وهى أحسن الحسنات، وهى تمحو الذنوب

(١) البحر (٦/ ٣٣٥).
(٢) تفسير الرازى (٢٢/ ٢١٤).
(٣) تفسير الرازى (٢٢/ ٢١٥).

والخطايا، وهى تجدِّد ما درس من الإيمان فى القلب، وهى التى ليس لها من دون الله حجاب، وهى التى ينظر الله إلى قائلها ويجيب دعواه. وصيغت الجملة بأبلغ أدوات القصر البلاغى «ألا» كما يقول البلاغيون.

الجملة الثانية: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أى أسبحك تسبيحا لا نظير له ولا شبيه ولامثيل، والتسبيح هو التنزيه وإبعاد ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله عن كل نقص يشينها.

الجملة الثالثة: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى وقد كنت من الظالمين لنفسى وأنا الآن من التائبين النادمين فاكشف عنى المحنة، وفى الحديث «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلاأستجيب له»[1].

وروى الترمذى عن سعد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «دعوة ذى النون إذ دعا ربه وهو فى بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، لم يدعُ بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له».

وفى رواية ابن جرير «اسم الله الأعظم الذى إذا دُعى به أجاب وإذا سُئل به أعطى: دعوة يونس بن متى» قال: فقلت يا رسول الله هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال «هى ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تعالى ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنبياء ٨٧، ٨٨].

فهو شرط من الله لمن دعاه به.

هل استجاب الله دعاء يونس عليه السلام؟

نعم، يشير إلى ذلك قول الله تعالى ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنبياء: ٨٨] أى استجبنا لتضرعه واستغاثته ونجيناه من الضيق والكرب الذى ناله حين التقمه الحوت، وكما نجينا يونس من تلك المحنة ننجى المؤمنين من الشدائد والأهوال إذا استغاثوا بنا.

---

(١) وانظر أصل الحديث فى «سنن أبى داود».

وقوله تعالى ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾[الصافات: ١٤٣] أى لولا أنه كان من الذاكرين الله كثيراً فى حياته ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[الصافات: ١٤٤] أى لبقى فى بطن الحوت إلى يوم القيامة، وأصبح بطنه قبرا له فلم ينج أبداً، ولكنه سبّح الله واستغفره وناداه فى بطن الحوت بقوله ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧] فاستجاب الله تضرّعه ونداءه.

وقد اتخذت هذه الاستجابة مراحل ثلاث، قال الله تعالى:

١ - ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾[الصافات: ١٤٥] أى فألقيناه من بطن الحوت على الساحل بالأرض الفضاء التى لاشجر فيها ولا ظل، وهو سقيم مريض مما ناله من الكرب قال عطاء: أوحى الله تعالى إلى الحوت إنى قد جعلت بطنك له سجنا، ولم أجعله لك طعاما، فلذلك بقى سالما لم يتغير منه شىء[١]، وقال ابن مسعود ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أى ضعيف البدن، كهيئة الفرخ ليس عليه ريش، وقال ابن عباس كهيئة الصبى حين يولد وهو المنفوس ليس عليه شىء، وقد اختلفوا فى مقدار لبثه فى بطن الحوت، فقال مجاهد عن الشعبى: التقمة ضحى ولفظه عشية، وقال قتادة: مكث فيه ثلاثا، وقال جعفر الصادق: سبعة أيام. ويشهد له شعر أميه بن أبى الصلت:

وأنت بفضل الله نجيت يونسا   وقد بات فى أضعاف حوت لياليا

وقال سعيد بن أبى الحسن وأبو مالك: مكث فى جوفه أربعين يوما، والله أعلم كم مقدار مالبث فيه[٢].

٢- ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾[الصافات: ١٤٦] أى وأنبتنا فوقه شجرة لتظله وتقيه حر الشمس، وهى شجرة القرع ذات الأوراق العريضة،قال ابن جزى: وإنما خصّ القرع بالذكر لأنه يجمع كبر الورق، وبرد الظل والذباب لا يقربه، فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لايحتمل الذباب[٣]، وكان هذا من تدبير الله ولطفه، قال أمية بن الصلت فى ذلك بيتا من شعره:

فأنبتّ يقطينا عليه برحمة   من الله لولا الله أصبح ضاويا

(١) تفسير أبى السعود (٤/ ٢٧٧).
(٢) قصص الأنبياء لابن كثير: جـ ١. ص. ٣٩٣
(٣) التسهيل فى علوم التنزيل (٣/ ١٧٦).

فلما استكمل قوته وعافيته ردَّه الله إلى قومه، ليستأنف رسالته معهم، ولهذا قال الله تعالى:

٣- ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[الصافات: ١٤٧] أى وأرسلناه بعد ذلك إلى قومه الذين هرب منهم، وهم مائة ألف بل يزيدون، قال المفسِّرون: كانوا مائة وعشرين ألفا، وقيل: وسبعين ألفا، وهم أهل نينوى بجهة الموصل، و﴿أَوْ﴾ بمعنى بل، أى بل يزيدون. ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[الصافات: ١٤٨] أى فآمنوا وتابوا ورجعوا إلى الله، بعد أن شاهدوا أمارات العذاب الذى وُعِدوا به، فأبقيناهم ممتعين فى الدينا إلى حين انقضاء آجالهم.

قال ابن عباس[1]: إنما كانت رسالة يونس بعدما نبذة الحوت، قال ودليله أن الله ذكر قصة يونس فى سورة الصافات ثم عقبها بقوله ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

والذى عليه عامة المفسِّرين: أن قصة الحوت كانت بعدما أرسله الله إلى قومه، لأن الله قد ذكره فى سورة يونس وهى مقدّمة على الصافات، وأيضا فإن الواو للجمع.

قال مقاتل: ثم عاد يونس إلى الشام فتوفى بأرض فلسطين، ويُقال إن قبره بقرية مشهورة يقال لها حلحول من أعمال بلدة الخليل بفلسطين.

(١) عرائس المجالس (٤٠٧).

الفصل الثانى
دروس وعبر

١- عبادة اللّه وذكره فى حال الرخاء تنجّى عند الضيق: فى قصة يونس ودعائه درس للمؤمن بأن العبادة وذكر الله فى حال الرخاء مدعاة للنجاة فى حال الكرب. قال ابن عباس: من كان ذاكراً لله فى الرخاء ذكره الله فى الشدة واستجاب له، ومن يغفل عن الله في الرخاء وذكره فى الشدة لم يستجب له، قال الله تعالى ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾[الأنبياء: ٨٧].

فقال الله ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

يقول الله كذلك نفعل بالصالحين، إذا وقعوا فى الخطيئة ثم تابوا إذا قبلت توبتهم. روى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «دعا أخى يونس بهذه الدعوات فى الظلمات فأنجاه الله بها، فلايدعو بها مؤمن مكروب إلا كشف الله ذلك عنه إن بها عدّة من الله لا خلف لها»[1].

٢- الصبر فى مجال الدعوة إلى الله: كما يؤخذ من قصة يونس أن على المؤمن تنفيذ إرشادات ربه، والدعوة إليه بصبر وثبات، لئلا يبتليه بصعاب وأهوال لم تكن فى الحسبان، فيونس تعجّل الفرار من الميدان الذى وضعه الله فيه، وتلك فعلة ما كان لنبى أن يفعلها لأول بادرة سوء يصادفها من قومه أو إعراض عنه، وكان لابد من درس يتلقاه النبى من ربه، وهو أن يخرج من ضيق إلى ضيق أشد وأقسى وهو جوف الحوت، ثم تجيء رحمة الله بعد مناجاته وتضرّعه واستغاثته، فتخرجه منه إلى اليابسة، فيعود إلى المدينة التى فارقها، ليعاود الدعوة إلى الله وهو أشد يقينا وأرحب نفسا فيوفقه الله فى مهمته.

ولهذا يدعو الله نبيه محمداً ﷺ إلى الثبات فى مجال الدعوة إلى الله، وعدم

(١) سنن الترمذى (دعورات: ٨١) وتاريخ ابن وثيمة (٢٣٠).

الفرار من قومه قال تعالى ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾[القلم:٤٨] أى فاصبر يا محمد على أذاهم وامض لما أُمرت به من تبليغ رسالة ربك ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾[القلم:٤٨] أى ولاتكن فى الضجر والعجلة كيونس بن متى عليه السلام، لما غضب على قومه لأنهم لم يؤمنوا فتركهم وركب البحر ثم التقمه الحوت، وكان من أمره ما كان ﴿ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾[القلم:٤٨] أى حين دعا ربه فى بطن الحوت وهو مملوء غماً وغيظاً مما كان منه بقوله: ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[الأنبياء:٨٧]. وعندئذ ﴿ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾[القلم:٤٩] لولا أن تداركته رحمة الله ﴿ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾[القلم:٤٩] أى لطُرِح فى الفضاء الواسع الخالى من الأشجار والجبال، وهو ملام على ما ارتكب، ولكن الله أنعم عليه بالتوفيق للتوبة فلم يبق مذموما ﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[القلم:٤٩] أى فاصطفاه ربه واختاره لنفسه فجعله من المقربين. قال ابن عباس ردّ الله إليه الوحى وشفّعه فى قومه[١].

٣- الخطأ الصادر عن الاجتهاد الصادق لايحرم العبد من الثواب، ولكنه قد يعرِّض العبد أحيانا للمؤاخذة والعقاب.

٤- هذا التوجيه الإلهى والعتاب الربانى للرسل، ما هو إلا دليل على أن الكمال المطلق لله وحده.

٥- الثناء على الله والاعتراف بالذنب أفضل من التصريح بالدعاء.

٦- من أفضل الأدعية المقبولة عند الله ما كان تسبيحا لله وتقديسا مثل دعاء يونس عليه السلام.

٧- كثيراً ما يكون التعجيل بالعقوبة خيراً فى الدنيا والآخرة لمن حاد عن سواء السبيل، ثم تاب وأناب بصدق وإخلاص. لأن رحمة الله بعباده واسعة، ولا يخلو عقاب صادر منه تعالى على بعض خلقه إلا وهو محاط بصور من الرحمة...

٨- أرجح الآراء أن الاسم الأعظم الذى إذا دُعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، هو ما ورد فى دعاء يونس عليه السلام، وهو لفظ الجلالة «الله» وقد وردت الآثار بأنه ما من مسلم يدعو بدعوة يونس عليه السلام إلا استُجيبت له.

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/٩٩).

الفصل الثالث

أدعية زكريا عليه السلام فى القرآن

ذُكِر زكريا[1] عليه السلام فى القرآن الكريم ثمان مرات، فى سور آل عمران والأنعام ومريم والأنبياء.

وهو والد النبى يحيى عليهما السلام، كان ممن لهم شركه فى خدمة الهيكل وعلى ذلك فهو «لاوى».

نبوتـــه

عمل زكريا فى خدمة بيت المقدس، وحرّر نفسه له، ووهبها لله فكان الحبر الكبير، والعابد المخلص، فبعثه الله نبيا ورسولا إلى بنى إسرائيل، فكان يعظهم ويعلمّهم أمور دينهم، ويقضى بينهم بالفتوى الشرعية، وكان صلبًا فى الدين لايخاف فيه لومة لائم، وفى سبيل تمسّكه بأحكام دينه ورسالته أُوذى حتى قُتل. جاء فى انجيل برنابا «أن المسيح قال لليهود: ستأتى عليكم دماء الأنبياء الذين قتلتموهم إلى دم «زكريا» الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح... قال ابن كثير : كان زكريا نبيا عظيما من أنبياء بنى إسرائيل، وفى صحيح البخارى وغيره أنه كان نجاراً يأكل من عمل يده فى النجارة.

(١) يوجد زكريا آخر ليس له قصة فى القرآن أصلا وهو «زكريا بن برخيا»، له كتاب من الكتب القانونية عند النصارى، وكان فى زمن داريوس أى قبل زمن المسيح بما يقرب من ثلاثة قرون، وهو الذى تكلم فى كتابه فى الفصل التاسع عن ولاية «عمر بن الخطاب» وغلبه على «أورشليم» ودخوله إليها منصوراً وادعا راكبا على حمار (جامع البيان حـ٧ ص ١٧٢) وقيل هو ابن أزن وكان هو وعمران بن ماتان بن يعاقيم من ولد داود النبى من سبط يهوذا ابن يعقوب، وكانا فى زمان واحد، فتزوج زكريا ايشاع إبنة عمران اختا لمريم ابنة عمران، واسم أم مريم حنة، وكان يحيى وعيسى ابنى خاله، وكان زكريا نجاراً واشاعت اليهود أنه ارتكب مع مريم الفاحشة وقتلوه فى جوف شجرة وقطعوها وقطعوه معها (المعارف ٢٤، راجع روح المعانى حـ ١ ص٥٦١، حـ١ ص ٥٥) وقيل إن زكريا هو أبو يحيى، وهو ابن برخيا من ولد يهوذا، وقيل من ولد سليمان أرسله الله تعالى إلى بنى إسرائيل بعد أن عادوا من أسر بابل وانغمسوا فى المعاصى، وكانت زوجته ايشاع بنت فاقود أخت حنة زوجة عمران بن ماتان (عرائس المجالس : ٣٧٠، ٣٧٤) وقيل إن زوجة زكريا ايشاع، وأنه زوج خالة مريم (التسهيل حـ١ ص ١٠٥، وحـ٣ ص ٣٢) وليس زوج أختها كما قال ابن قتيبة وقيل هو زوج خالة مريم اليصابات.

كفالته مريم عليها السلام

عندما ولدت مريم ابنة عمران، أم المسيح عليهما السلام، أخذتها أمها «حنّة بنت فاقود» إلى بيت المقدس لتودعها فيه لأنها كانت قد نذرتها له، فأخذها أحبار البيت، وخدّام الهيكل، وأجروا القرعة على من يكفلها، فكانت القرعة من نصيب زكريا عليه السلام، زوج خالتها.. أو زوج أختها كما قيل، وذلك قول الله تعالى ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٥:٣٧] فى طفولتها، وفى صباها حتى بلغت مبلغ النساء، فكان يأتيها بطعامها وشرابها فى كل يوم، وكان إذا دخل عليها فى غرفتها ببيت المقدس وجد عندها رزقا، أى فاكهة فى غير وقتها، فكان يرى فاكهة الشتاء فى فصل الصيف، وفاكهة الصيف فى فصل الشتاء، وهذه من كرامات الأولياء فلما سألها زكريا ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ من قطوف الجنة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران: ٣٧].

دعاء زكريا عليه السلام
وطلبه من الله الذرية الصالحة

كان زكريا عليه السلام قد بلغ من الكبر عتيا، واشتعل رأسه شيبا، وكانت سنّه مائة وعشرين سنة، وامرأته عاقراً لم تلد وعمرها أصبح ثمانية وتسعين عاما، وقد بلغ درجة اليأس من أن يكون له ولد، وكان يخشى على بنى إسرائيل أن يبتلوا بأقاربه الذين يولون الرياسة فيهم بعده لما يعلم من حالهم وعدم استمساكهم بالشريعة، فحفزه ما يراه من إكرام الله تعالى لمريم على أن يطرق باب الدعاء له، ليرزقه ذرية صالحة، ليذهب من الدنيا مطمئنا، وكان يناجى ربه بما فى نفسه ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾[مريم:٣] ويدعوه بصوت خفى لايكاد يسمع قال المفسِّرون:

لأن الإخفاء فى الدعاء أدخل فى الإخلاص وأبعد من الرياء وأدعى للقبول. وقال قتاده عند تفسير هذه الآية إن الله يعلم القلب النقى، ويسمع الصوت الخفى، وقال بعض السلف: قام من الليل فنادى ربه مناداة أسرّها عمن كان حاضراً عنده مخافته فقال: يارب يارب يارب. فقال الله: لبيك لبيك لبيك.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾[مريم:٤] أى ضعف وخار من الكبر ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾[مريم:٤] أى انتشر الشيب فى رأسى، انتشار النار فى الهشيم. يذكر نبى الله زكريا أن الضعف استحوذ عليه ظاهراً وباطنا، وقوله ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾[مريم:٥] أى ما عوّدتنى فيما أسألك إلا الإجابة. قال البيضاوى: هذا توسّل بما سلف له من الاستجابة، وأنه تعالى عوّده بالإجابة وأطمعه فيها، ومن حق الكريم أن لا يخيّب من أطمعه[1].

وكان الباعث له على هذه المسألة، أنه لما كفل مريم بنت عمران، وكان كلّما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة فى غير إبانها ولا فى أوانها، وهذه كما قلنا من كرامات الأولياء، فعلم أن الرازق للشىء فى غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً وإن كان قد طعن فى سنّه ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾[آل عمران: ٣٨].

تباينت الآراء فى تحديد معنى هذه الكلمة ﴿هُنَالِكَ﴾ وإن كان أصلها للمكان.. فمن قائل يجوز استعمالها للزمان والمكان، ومن قائل أنها للمكان إذا خلت من اللام وللزمان معها.. والمكان الذى دعا فيه زكريا عليه السلام هو المحراب، أى مكان العبادة الذى كانت تتبتل فيه السيدة مريم، والزمان الذى دعا فيه زكريا هو الذى رأى فيه عند مريم فاكهة فى غير أوانها، رزقا من عند الله يأتيها من غير أن يكون له دخل فيه وهو كافل لها، والذى حمله على اختيار هذا المكان والزمان وعاءً لدعائه ما استقر فى عقله من حلول البركة فى هذا المكان. ووقوع خوارق العادات فى هذا الزمان.. أى فى الزمان والمكان الذى رأى فيه زكريا كرامة الله لمريم، عندئذ دعا ربه متوسلا ومتضرعا..

---

(١) البيضاوى : ٢/ ١٤.

صيغ هذا الدعاء

ورد هذا الدعاء على لسان زكريا عليه السلام بثلاث صيغ: أولها: فى سورة آل عمران قوله ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾[آل عمران:٣٨] صدّر دعاءه بلفظ الربوبية استعطافا لما فى هذا اللفظ من التربية والكفالة والرعاية.. وذكره لفظ الهبة فضلا عن كونه تأدبا فهو استدرار لتحقيق المرجو، أى اعطنى الولد من عندك، لا مقابل طاعتى أو عبادتى لك.. وذكره لفظ ﴿لِي﴾ للدلاله على أن ذكريا هو المنتفع بثمرة هذا الدعاء.. أما المولى جل وعلا فهو النافع لمن والاه بالطاعة من عباده.. والتعبير بلفظ ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ ليفيد التوحيد الكامل والتنزيه.. كما يفيد احتياجه الشديد لله تعالى، فكأنه قال: أنت القادر وحدك على كل شىء.. لاحدَّ لقدرتك، ولا مانع من إرادتك، فلا أثر للأسباب فى مسبباتها إيجاداً، ولاعبرة بالأعراف والعادات والقوانين أمام إرادتك..

والمراد من الذرية النسل. ويُطلق على الواحد والجمع بدليل قوله: ﴿وَلِيًّا﴾ ولم يقل أولياء، ولعل التنكير لإفادة الرضا بالقليل ولو واحداً، أى اعطنى من عندك ولداً صالحا، ومعنى ﴿طَيِّبَةً﴾ صالحة مباركة، فيكون المقصود هو الصلاح والتقوى أو النبوة والرسالة.

والصيغة الثانية قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾[مريم:٥].

اشتركت هذه الصيغة والصيغة الأولى فى هذه الألفاظ ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾، وانفردت الأولى بلفظ الربوبية، وهذه الثانية بلفظ ﴿وَلِيًّا﴾ ليكون ذلك بمثابة التوضيح وإزالة الإبهام فى لفظ ﴿ذُرِّيَّةً﴾ ولعله فعل ذلك ولم يصرّح بطلب الولد فى الآية السابقة، لما علم من نفسه بأنه قد صار هو وامرأته فى حالة لا يجوز فيها حدوث الولد بينهما، وحصوله منهما وخصوصا أنه شيخ كبير، وامرأته عجوز وعاقر، ولا مانع من سؤال من كان مثله لما هو خارق للعادات، فإن الله سبحانه قد يكرم رسله بما يكون مصدِّقا لدعوتهم وكأن زكريا ناشد ربه قائلا: يارب امنحنى من فضلك وليا ذكراً.. أو ولداً صالحاً.. ولا مانع..

والصيغة الثالثة ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾[الأنبياء: ٩٨] أى منفرداً وحيداً لا ولد لى، أى آمل فى كرمك أن لا تتركنى وحيداً مقطوع النسل لاذرية لى تبقى بعد وفاتى. قال ابن عباس: كان سنّه مائة سنة وسنّ زوجته تسعا وتسعين(١).

براعة تذييلات صيغ أدعية زكريا عليه السلام

لقد وفُقّ نبى الله زكريا عليه السلام فى أدعيته وذَيّلها بأرق العبارات المتضمنة لأعظم المعانى، والهادفة لأسمى الغايات:

١- الثناء الأول ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾[آل عمران: ٣٨].

جاء هذا عقب قوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾[آل عمران: ٣٨] فهذا ثناء مستطاب على ربه الكريم بما هو له أهل، وكأنه يقول: إنك يارب سميع لكل شىء مجيب لدعاء من ناداك، فأجب دعائى هذا الذى أرفعه إليك، وتضرّعى الذى أبثه إليك، فإنى آمل فى جلالك تحقيقه، وراغب من رحمتك إجابته إنك سميع الدعاء.

٢- الثناء الثانى ﴿ وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾[مريم: ٤] أى لم تخيب دعائى فى وقت من الأوقات بل عوّدتنى الإحسان الجميل، فاستجب دعائي الآن كما عّودتنى فيما مضى قال البيضاوى: هذا توسّل بما سلف له من الاستجابة، أنه تعالى عوّده الإجابة وأطمعه فيها، ومن حق الكريم أن لا يخيّب من أطمعه(٢). وقد جاء هذا الثناء عقب قوله ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾[مريم: ٤] فهو يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه ظاهراً وباطنا، ثم كان ثنائه الجميل الذى يذكر فيه نعم الله عليه ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾[مريم: ٤] ولهذا قال العلماء: يستحب للمرء أن يجمع فى دعائه بين الخضوع والتذلل وإظهار الضعف والافتقار إلى الله تعالى.

(١) الرازى (٢٢/٢١٧).
(٢) البيضاوى (٢/ ١٤).

٣- الثناء الثالث ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾[الأنبياء:٨٩] أى وأنت يارب خير من يبقى بعد كل من يموت قال الألوسى: وفيه مدح له تعالى بالبقاء، وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء، واستمطار لسحائب لطفه عز وجل[١].

صفات الهبة التى رفعها زكريا إلى الله فى دعائه القرآنى

ثم قدم زكريا عليه السلام: بين يدى الله تعالى الغرض الذى من أجله كان دعائه، والصفات التى أحب أن يجمّل الله الغلام الذى سيرزقه بها، قال تعالى حاكيا عنه ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾[مريم:٦] أى يرثنى ويرث أجداده فى العلم والنبوّة قال البيضاوى: المراد وراثة العلم والشرع فإن الأنبياء لا يورّثون المال[٢] وقال ابن كثير: يعنى كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء فاجعله مثلهم فى الكرامة التى أكرمتهم بها من النبوة والوحى، وليس المراد وراثة المال، يؤيد هذا الحديث المتفق عليه بين العلماء المروى فى الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال «لا نُورث ما تركنا فهو صدقة»[٣]، ورواه الترمذى بلفظ يعم سائر الأنبياء «نحن معاشر الأنبياء لانورّث» وصححّه.

وإن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم، فإن من لايصل إلى قريب من منازلهم فى الزهادة لايهتم بهذا المقدار أن يسأل ولدا يكون وارثا له فيها، وان زكريا عليه السلام كان نجاراً[٤] يعمل بيده ويأكل من كسبها، كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده، والغالب ولاسيما فى مثل حال الأنبياء أنه لايجهد نفسه فى العمل إجهاداً يستفضل منه مالا يكون ذخيرة له يخلفه من بعده، وهذا أمر بيّن واضح لكل من تأمله وتدبره وتفهمه إن شاء الله[٥].

---

(١) روح المعانى (١٧/ ٨٧).
(٢) البيضاوى (٢/ ١٤).
(٣) ولهذا منع الصدّيق أبو بكر رضى الله عنه أن يصرف ما كان يختص به فى حياته ﷺ إلى أحد من وراثة الذين لولا هذا النص لصرف إليهم وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه العباس رضى الله عنهم وأحتج عليهم الصديق بهذا الحديث وقد وافقه عليّ رضى الله عنه على روايته.
(٤) روى أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: كان زكريا نجاراً. رواه مسلم وابن ماجة.
(٥) ابن كثير : قصص الأنبياء.

وقد لخص زكريا عليه السلام الصفات التى أحب أن يّجمل الله بها الغلام الذى سيرزقه به فذلك قوله ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[مريم: ٦] أى اجعله يارب مرضيا عندك.. ولعل المقصود ذلك أحد الأمور الآتية أو كلها.

* مرضيّا فى أخلاقه وأفعاله.
* راضيا بقضاء الله وقدره.
* رجلا صالحا ترضى عنه.
* نبيّا كما جعلت آباءه أنبياء.

قال الرازى: قدّم زكريا عليه السلام على طلب الولد أموراً ثلاثة:

أحدها: كونه ضعيفا.

والثانى: أن الله ما ردّ دعاءه البتة.

والثالث: كون المطلوب بالدعاء سببا للمنفعة فى الدين، ثم صرّح بسؤال الولد وذلك مما يزيد الدعاء توكيداً لما فيه من الاعتماد على حول الله وقوته والتبرّى عن الأسباب الظاهرة[١].

---

(١) التفسير الكبير (٢١/١٨).

استجابة الله لدعاء زكريا عليه السلام

أجاب الله نداء عبده زكريا بفضله وكرمه، وارتدت الإجابة ثوب البشارة فى سورتى آل عمران ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ﴾[آل عمران:٣٩][١] وهو قائم يصلى فى المحراب ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾، وسورة مريم ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾[مريم:٧]، وفى سورة الأنبياء جاءت الإجابة محققه ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾[الأنبياء:٩] أى رزقناه ولداً أسمه يحيى على شيخوخته ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أى جعلناها ولوداً بعد أن كانت عاقراً وقال ابن عباس: كانت سيئة الخُلق طويلة اللسان فأصلحها الله تعالى فجعلها حسنة الخلق[٢].

لقد دعا زكريا ربه أن يهب له ولداً، فاستجاب الله له ووهبه يحيى بالاسم والصفة واللقب فقال ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾[مريم:٧] وقوله تعالى ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران:٣٩] فقد خاطبته الملائكة شفاها فأسمعته وهو قائم يصلى فى محراب عبادته ومحل خلوته، ومجلس مناجاته وصلاته، أن الله يبشرك بولدك من صُلْبك، وسيكون أول من يؤمن بالمسيح، ويكون سُنّته ومنهاجه.

---

(١) قال الألوسى: المراد من الملائكة رئيسهم جبريل، وأن الجمع هنا مجاز عن الواحد للتعظيم، أو يكون هذا من إسناد فعل البعض للكل، وأورد قولا آخر أن المقصود بعض الملائكة، وعن قتاده قال: إن الملائكة شاورته بذلك مشافهة فبشرته بيحيى (روح المعانى حـ١ ص ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٤).والنصارى تقول أن الذى بشر زكريا هو جبريل (متى ١:١٩)، ويقول الطبرى: وأما الصواب من القول فأن يُقال أن الله أخبر أن الملائكة نادته والظاهر من ذلك أنها جماعة من الملائكة دون الواحد، وجبريل واحد، فلن يجوز ان يحمل تأويل القرآن إلا على الأكثر والأظهر من الكلام المستعمل فى لسان العرب دون الأقل ما وجد إلى ذلك سبيل (جامع البيان حـ٣ ص ١٦٩ ، ١٧٠)..

(٢) القول الأول قول قتاده وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين كذا فى القرطبى (١١/ ٣٣٦).

ومن صفاته أنه يكون سيداً فى العلم والعبادة، فهو الفقيه العالم، السيد فى خُلقه ودينه الذى لا يغلبه الغضب، وهو الشريف الكريم على الله، والحصور الذى لايأتى النساء[1] معصوم من الفواحش والقاذورات وكذلك نبيا من الصالحين.

قال ابن كثير[2]: وهذه بشارة ثانية بعد البشارة بولادته وهى أعلى من الأولى كقوله تعالى لأم موسى ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص:٧].

وقد تحقق زكريا عليه السلام من هذه البشارة، وعرف أنها لابد حاصلة وهو قد كبرت سنّه، وعلاه المشيب، فعجب من أمر الله، وبشارة الملائكة إذ كان فى نفسه أنه يطلب الممنوع، لأن حاله وحال زوجه يحولان دون وقوعه.

وما كان تعجب زكريا عندما أُخبر بأنه وزوجه سيلدان، إلا من فرط الدهشة وهو انفعال إنسانى عادى، فهو لم يشك مطلقا فى قدرة الله على الإتيان بالمعجزة، ولكنها المفاجأة التى دعته إلى التساؤل، كيف يرجع إلى حالة الصبا والشباب مرة أخرى؟! ولقد حدث لزكريا ما حدث لإبراهيم وزوجه من قبل﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾[هود:٧٢].

فلما بُشِّر غلبه السرور حتى أنساه دعاءه السابق فقال ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[مريم:٨].

فأجابه المَلَك ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾[مريم:٩]، ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[مريم:٩] فأمره عظيم لا يعجزه شىء، أو يتعاظمه أمر.

---

(١) وما قاله بعض المفسرين أنه كان عنّينا فباطل لايجوز على الأنبياء لأنه نقص وذم والآية وردت مورد المدح والثناء. قال ابن كثير نقلا عن القاضى عياض: اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان حصوراً ليس كما قال بعضهم إنه كان عنّينا ولا ذكر له، بل قد أنكر هذا حذّاق المفسِّرين وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولايليق به الأنبياء عليهم السلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب أى لا يأتيها كأنه حصوراً أو يمنع نفسه من الشهوات، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص وإنما الفضل فى كونها موجودة ثم يمنعها، إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله كيحيى عليه السلام» انتهى.

(٢) مختصر ابن كثير (١/ ٢٨١).

إن المعجزة التى حدثت لزكريا وزوجه، ولو أنها لم تكن مصحوبة بتحدى المعاندين أو غير المصدقين بنبوة زكريا، إلا أنها حدثت أمامهم، وتحت سمعهم وبصرهم، وصارت على أى حال دليلا على أن زكريا مرضىّ عنه من ربه، وأنه قريب منه، وأن فى الاستماع له استماع لأوامر الله، والاهتداء به اهتداء بهدى الله، خصوصا أن هذه المعجزة اقترنت بآية ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾[آل عمران:٤١] علامة أعرف بها هذا، واستدل بها على وجود الولد منى ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾[آل عمران:٤١] فتكون صحيحا معـافى، ولكـنك لا تستطيع النطـق، فتكلم النـاس بالإشـارة. ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾[آل عمران:٤١] ومع هذا فأنت مأمور بكثرة الذكر والشكر والتسبيح والدعاء فى هذه الحال. وصدق القول وتحققت البشارة، كان يحيى عليه السلام بركة وبشرى، واستجابة الدعاء.

التقوى وخيراتها

يشير إلى ذلك قول الله تعالى فى سورة الأنبياء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠] هذه الجملة تعليلية لما قبلها من إحسان الله تعالى إلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، فالضمير المذكور راجع إليهم، إى إنما استجبنا دعاء من ذُكر من الأنبياء لأنهم كانوا صالحين يجدّون فى طاعة الله، ويتسابقون فى فعل الطاعات وعمل الصالحات وذلك تقوى الله، هذا وقيل الضمير راجع إلى زكريا وامرأته ويحيى ابنه.. ونقول لامانع من شمول الضمير للجميع.

وقيل ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أى كانوا خير مواطنيهم حيث يقبلون على الخيرات اعتقاداً وقولا وفعلا.. يسارعون إليها بجدّ ونشاط، ويباشرونها برغبة وحب وإخلاص وإتقان وذلك تقوى الله، يفعلون ذلك لهم ولغيرهم من بنى البشر وبخاصة من كانوا فى حاجة إلى عونهم ومساعدتهم. ولما كان إيصال الخيرات إلى الناس من أهم الأسباب التى توطد الصلة بين العباد، وتنمّى فيهم الحب والتعاون والإيثار، لذا قدّمه على سائر الصفات خصوصا وأن الصفتين التاليتين خاصتين بزكريا وأهله فلم يتجاوز مفعولهما إلى أعداد كثيرة من البشر.

الصفة الثانية : ﴿يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[الأنبياء: ٩٠].

اللغة : قرأ طلحة بن مصرف: ﴿يَدْعُونَنَا﴾ بنون واحدة.. وقرأ الأعمش بضم الراء فيهما وإسكان ما بعدهما.. وقرأ ابن وثاب بفتح الراء فيهما وإسكان ما بعدهما، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو .. وقرأ الباقون بفتح الراء وفتح ما بعدهما فيهما..

المعنى: أى طمعا ورجاء فى رحمتنا وخوفا وفزعا من عذابنا، وقيل المعنى أنهم كانوا يتضرعون إلينا فى حال الرخاء وحال الشدة؛ وذلك تقوى الله. وقيل المراد من الرغبة رفع بطون الأكف إلى السماء، والمراد بالرهبة رفع ظهور الأكف إلى السماء..

وقال الثورى: رَغبا فيما عندنا ورَهبا مما عندنا وانتصاب ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ إما على المصدريّة أو الحاليّة أو العلّة.

الصفة الثالثة: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أى كانوا متذللين خاضعين لله يخافونه فى السِّر والعَلَن.. وذلك تقوى الله. وروى ابن أبى حاتم عن عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر رضى الله عنه ثم قال: أما بعد فإنى أوصيكم بتقوى الله، وتثنوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠].

فالله لا يتخلى عن عباده المتقين، وهو القائل فى القرآن

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾[الطلاق: ٢] ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾[الطلاق: ٤].

فالتقوى وسيلة لإدرار الرزق، واليُّسر والفرج من الضيق وما أحرانا أن نتصف بها، ونتزود منها لنحصل على السعادة فى الدنيا والآخرة، فهى أفضل زاد فى مسيرة الحياة كما قال الله تعالى مخاطبا المؤمنين ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[البقرة: ١٩٧].

يحيى عليه السلام ثمرة دعاء أبيه

ولد يحيى ثمرةً لدعاء أبيه ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[مريم: ٥، ٦].

ولد وقد تحققت فيه البشارة، فورث النبوة والحبورة والعلم، إذ خاف أبوه أن يضيّع بنو عمه دين الله، ويغيّروا أحكامه بعد أن شاهد منهم تبديل الدين وقتل الأنبياء، فسأل ربه ولداً صالحاً يأمنه على أُمته، ويرث نبوته وعلمه لئلا يضيع، فسأل ربه رضيا، براً نقياً، صالحاً مرضياً.

وُلد يحيى ولم يكن له من قبل سميًا، فلم يولد أحد قبله باسمه: وإنما نادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾[آل عمران: ٣٩] فاسمه وارد من الملائكة قبل حمله وولادته ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾[مريم: ٧] فلم يكن له شبيه فلا يعصى الله قط، ولايهم بمعصية فلم تلد العواقر مثله ولد، وقد قال له ربه ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[مريم: ١٢] فتناول التوراة من بعد موسى عليه السلام، وأخذها بجد واجتهاد فكان مصيبا فى رأيه، مرضيًا فى خلقه حصوراً فى نفسه، أودع الحكم وهو ابن ثلاث سنين فالله قد أحكم عقله، ولايقدح هذا فى سير النبوة وتحديد زمنها فى الإنسان، لأن أصل النبوة مبنى على خرق العادات، فإذا ثبت هذا فلا يمنع صيرورة النبى وقد ثبت فى يحيى الصبى.

وقيل أراد بالحكم فهم الكتاب فقرأ التوراة وهو صغير ولذلك قيل: من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فهو ممن أوتى الحكم صبيا. ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾[مريم: ١٣] فكان طائعا مخلصا صالحا فى عمله، وكان مسلما.. وكان من تقواه أنه لم يعمل خطيئة، ولم يهمّ بها ولذلك قال رسول الله ﷺ «مامن أحد يلقى الله يوم القيامة إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا» وقال قتادة: «ما أذنب ولا همّ بذنب».

وفى رواية أخرى «ما من أحد يلقى الله يوم القيامة إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا».

وقيل: «إن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا، فقال عيسى: استغفر لى، أنت خير منى، فقال الآخر: استغفر لى فأنت خير منى. فقال عيسى له: أنت خير منى، سلّمت على نفسى وسلّم الله عليك فعُرف والله فضلها».

وُلد يحيى برّاً بوالديه لطيفا بهما، محسنا إليهما لأنه لاعبادة بعد تعظيم الله تعالى أعظم من برّ الوالدين. ولم يكن جباراً عصيا فكان ليّن الجانب متواضعا. وُلد يحيى وسلام عليه يوم وُلد، ويوم يموت، ويوم يبعث حيا، فأمان من الله له يوم ولادته من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بنى آدم، وأمان له يوم يموت من عذاب القبر، إذ لم يرتكب فى دنياه ما يُحاسب عليه، وأمان له يوم يُبعث حيا يوم القيامة.

ولذلك قيل: أوحش ما يكون الخلق فى ثلاثة مواطن: يوم وُلد لأنه يرى نفسه خارجا من مكان قد كان فيه، ويوم يموت، لأنه يرى قوما ما شاهدهم قط، ويوم يُبعث لأنه يرى مشهداً عظيما.

وقد أكرم الله يحيى فى هذه المواطن كلها فخصَّه بالسلام فيها، مذكوراً فى القرآن الكريم، منعوتا بهذه الأوصاف كلها[1] وليس كل الناس كذلك، فما كل مولود يولد ببشارة، ويأتى بناء على دعوة، واستجابة لدعاء رسول مكرم مطهر. ولكن الله كرّم يحيى فى أوصافه وخلقه وطبيعته، وقد ذكره القرآن الكريم وبين ما وهبه الله إيَّاه.

فرحم الله يحيى بن زكريا عليهما السلام، وذلك صدق القرآن فى إخباره وخبره عن الأنبياء والمرسلين ﴿**كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا** ﴿٩٩﴾ **مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا**﴾[طه: ٩٩، ١٠٠].

وكانت خاتمة يحيى فى حياته أن قُتِل، قتله بنو إسرائيل ظلما وبغيا فكانوا هم الخاسرين كما قتلوا أباه من قبل.

(١) وانظر ابن كثير، القرطبى ، النسفى، الخازن.

الفصل الرابع
دروس وعبر

١- طلب الذرية الصالحة: فنبى الله زكريا عليه السلام بلغ من العمر ما بلغ، وفات أوان حمل زوجته فطرق باب الله بالدعوات أن يرزقه الذرية الصالحة، حتى لاييأس أحد من فضل الله ورحمته ولا يقنط من فضله تعالى، فدعا ربّه قائلا ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾[آل عمران:٣٨] وفى هذا توجيه لنا لابتغاء الذرية، والحرص على أن تكون ذرية طيبة نشرف عليها بالتربية الصالحة، ونكون لها قدوة حسنة فيما نقول ونعمل، حتى تكون الذرية متعة لنا فى حياتنا وعونا لنا فى الملمات، وذخراً صالحا بعد الممات، ننتفع منها بصالح الدعوات، ولهذا يقول الرسول ﷺ «إذا مات ابن ادم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

والجدير بالملاحظة أن زكريا حينما اتجه إلى ربه راجيا الولد كان خاشعا لله فى دعائه، متضرعا إليه، متذلّلا بين يديه، معترفا له بفضله ونعمه عليه، ذاكراً ضعفه وعجزه، ملتمسا تحقيق أمنيته، وفى هذا درس للمؤمنين فى كيفية تضرّعهم إلى الله ولجوئهم إليه فى كل ما يبتغون منه.

وعند إجابة الدعاء على الإنسان أن يُكثر من شكر الله والثناء عليه بما هو أهله، وتسبيحه وحمده، فزكريا عندما تلقى البشرى أشار إلى أهله وأتباعه أن يفعلوا كما فعل من تسبيح[1] الله فى الصباح والعشى.

٢- الدعاء مطلوب فى كل وقت وإن تراءى للناس أن تحقيق ثمرته لم تجر به العادة ولا المألوف.

---

(١) التسبيح: قيل هنا بمعنى تنزيه الله وقيل بمعنى الصلاة وقد أمر الله زكريا حين يرى البشارة بالذكر والتسبيح فى هذه الحال وأن يكون ذلك هو آية الوليد.

٣- من أهم أسباب قبول الدعاء ما سلف من صلاح الداعى فعلا أو قولا.

٤- لا حرج فى أن يضع العبد الصالح لمطلوبه شروطا يرفعها إلى مولاه وهذا من باب دلال العبد على خالقه.

٥- الإكثار من ذكر الله أمر مشروع وموافق للطبائع البشرية السليمة لما يرجى منه من مهام الأمور.

٦- مزج الدعاء بالثناء على الله تعالى بما هو أهله، واشتماله على الرغبة والرهبة يجعله فى موضع الرضا من الله، وهو أجدر بالإجابة.

٧- من كرم الله أنه لا يُعطى السائل سؤله فقط بل قد يزيده كما فعل بزكريا عليه السلام. فزكريا النبى الذى عاش دهره دون ولد، وهبه الله بعد الدعاء الاستجابة بيحيى النبى، وقد تحلّى بصفات لدُنِّيَّه فاقت ما تمنّاه زكريا حين قال ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[آل عمران: ٣٨] ولم يحدد صفاتها إلا بقوله: ذرية طيبة فوهبه الله أكثر مما طلب، وهكذا يفعل الله ما يشاء.

٨- جواز سؤال العبد ربه علامة على ما أخبره به.

٩- للعبد أن يذكر ما منحه الله من نعم سالفة عند كل دعاء جديد وهو من الثناء على الله تعالى.

١٠- استحباب الإسرار فى الدعاء، وخفض الصوت عند المناجاة.

١١- الأزمنة المفضلة للدعاء والعبادة:

قال الله تعالى ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾[آل عمران: ٤١].

وقال ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

فتخصيص هذين الوقتين بالذكر، دلّ على اختصاصهما بمزيد شرف كما سبق أن ذكرنا، فيصلح التخصيص لأن يكون سببا للحرص على العبادة والدعاء فى هذين الوقتين، فإن للأزمنة والأمكنة أثراً فى فضيلة ما يقع فيهما من العبادة والدعاء.

فعند مغيب الشمس وامتداد الليل، تصفوا النفوس وترنوا إلى التأمل فى الطبيعة وقد غمرها السكون، وتراءت النجوم فى سماءها مشعّة وضاءة، مما يُطلق النفس من قيودها التى سببها ضجة العمل، وزحمة العيش ويجعلها تهفو إلى خالقها مسبّحة بحمده، ممجدّة لعظمته.

وكذلك وقت شروق الشمس حيث تظهر الطبيعة فى أجلى مظاهرها، وقد كساها الندى حللا وتحرّك ما فيها من إنسان وطير وحيوان، كل ذلك يثير الإحساس الروحى فى قلب الإنسان ويدعوه إلى تمجيد خالقه.

الفصل الخامس
المسيح عيسى[1] بن مريم عليه السلام

هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهو آخر أنبياء الله ورسله من بنى إسرائيل، كما أن آخر الأنبياء والرسل من بنى الإنسان وإليهم جميعا هو النبى الخاتم محمد رسول الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد ذكره الله تعالى فى القرآن الكريم عدة مرات، تارة باسمه العلمى وهو «عيسى» وتارة بكنيته الكريمة «ابن مريم» تعظيما لشأن أمه الطاهرة الشريفة، وتارة بلقبه السمح وهو «المسيح» إعلاء لقدرة بين قومه اليهود المنكرين الجاحدين الذين تحولوا إلى المادية، وتجاوزوا حدود الله ولم يراعوا كتابه: فأحلوا حرامه، وحرّموا حلاله، وأرسله الله إليهم بمملكة الفضائل ومكارم الأخلاق والرحمة والإخلاص ليهديهم إلى الطريق السوىّ، ويردهم عن الضلال ويخلّصهم من آثامهم، ويطهِّرهم من أرجاسهم وشرورهم. ولكن الشيطان استبدّ بهم، وأعماهم عن الحق وعن الطريق المستقيم فوضعوا أصابعهم فى آذانهم، ولما ضاقوا به ذرعا، هموّا بقتله وصلبه، فرفعه الله إليه.

مريم بنت عمران والبشارة بالمسيح عيسى عليهما السلام

نشأت مريم عليها السلام نشأة طُهر وعفاف، وبُعْد عن الآثام والمحرمات، فعاشت فى جوار بيت المقدس، مكلوءة بعناية الله، محروسة برعايته سبحانه وتعالى.

---

(١) عيسى معرب يسوع ومعناه السيد، والمسيح هو لقبه، ولفظ المسيح له تاريخ، فقد كان الأحبار والأنبياء يسمون (مسحاء) وتنهى التوراة عن المساس بهم «لاتمسّوا مسحائى ولا تؤذوا أنبيائى» (الإصحاح ١٦ من سفر الأيام)، والمسح بالزيت هو أول شعائر تتويج الملوك، ومبايعتهم فكان شاءول وداود من هؤلاء المسحاء (المصدر السابق ص ٢٩) هو أيضا من شعائر التقديس والتكريم (الإصحاح ٢٨٠ من سفر التكوين) ثم أطلقت كلمة (المسيح) مجازاً على كل مختار، فسمى كورش الفارسى مسيحا (الإصحاح ٤٥ من سفرا شعيا) وسمى كذلك كل من يوسف وموسى مسيحا. كما سمى الشعب اليهودى نفسه مسيحا أى المختار كما جاء فى المزامير وكتاب النبى حبقوق، ومنه «خرجت لخلاص شعبك: خلاص مسيحك».

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران: ٤٢].

وهذا إيذاناً بأن مريم وقد اصطفاها ربها للعبادة وطهرّها تطهيراً كاملا سوف يصطفيها بعد ذلك لأمر عظيم ستتمخض عنه الأيام، ذلك الأمر الذى أثار عجب الدنيا، وبهر التاريخ، وجدّد فى الإنسان حدثا عجيبا يعتبر من أصدق الآيات الكونية على إبداع الخالق وقدرته.. وهو كما بشّرتها الملائكة بأن الله سيهب لها ولداً اسمه المسيح عيسى بن مريم، وأنه يكون وجيها فى الدنيا والآخرة، وأنه يكون من المقرّبين، وأنه يكلم الناس فى المهد وكهلا، للإشارة إلى أنه يتكلم فى المهد بكلام إنما يصدر مثله ممن كان كهلا، وأن الله تعالى سيعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة، ويعطيه الإنجيل أى البشارة[1]، وأنه سيكون آية على قدرة الله تعالى ورحمة منه لعباده إذ نصب لهم به سبيل الخلاص مما هم فيه من أحوال يتركسون فيها، إذ كان اليهود قد صاروا إلى المادية، وتجاوزوا حدود الله ولم يراعوا كتابه، فأحلوا حرامه وحرّموا حلاله، فجاء لهدايتهم وردهم عن ضلالهم.

كقوله تعالى ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾[آل عمران: ٤٥-٤٨].

لما بلغت مريم مبلغ النساء وأصبحت فى سن الثالثة عشرة من العمر، خرجت ذات يوم من الأيام من محرابها، وسارت جهة المشرق من بيت المقدس، ترويحا عن النفس وطلبا للراحة، فبينما هى تسير إذ فاجأها الملاك (جبريل الأمين) عليه السلام، وقد تمثّل لها فى صورة شاب وضىء الوجه، حسن الصورة، مستوى الخلق ففزعت واضطربت وخافت على نفسها منه، وارتابت فى أمره لأنه ظهر لها فجأة فظنَّت به الظنون وجعلت تبتعد عنه، وهى تخشى أن يهمّ بها بسوء فى مكان

(١) كلمة (إنجيل) معناها: بشرى لأن المسيح عليه السلام جاء مبشراً بقدوم محمد ﷺ.

ليس فيه مُنْقذ أو نصير، فلما رأى الأمين جبريل اضطرابها وخوفها، طمأنها وأزال عنها الفزع، وأخبرها بالحقيقة حتى تطمئن على نفسها، وقال الملك مجيبا لها:

لست ممن تظنين ولكنى رسول ربك بعثنى الله إليك ليَهب لك غلاما ذكيا، يكون له شأناً عجيباً، ويعطيه الله النبوة والحكمة كقوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴾[مريم:١٦-١٩].

قال أبو حيان «وإنما تمثل لها الملك فى صورة الإنسان لتستأنس بكلامه، ولا تنفر منه، ولوبدا لها فى الصورة الملكية لنفرت منه ولم تقدر على استماع كلامه، ودل على عفافها وورعها أنها تعوّذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفائقة فى الحُسْن، وكان تمثّله على تلك الصفة ابتلاء لها وسبراً لعفتها»[1].

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾[مريم: ٢٠] وقد كان جواب الأمين جبريل لها: إنها إرادة الله ومشيئته، فهو جل ثناؤه لا يعجزه شيء وإذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، ونفخ فى جيب درعها فإذا هى حامل ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾[مريم: ٢١] .

ويقول الله تعالى ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[الأنبياء: ٩١].

إن ولادة عيسى من غير أب تُعلن قدرة الله سبحانه الذى لايتقيد فى خلقه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات التى نرى العالم يسير عليها فى نظامه الذى أبدعه.

وقد اتخذ البعض من خلق عيسى بدون أب حجة على ألوهيته، والبعض الآخر وجد من ذلك منفذاً للطعن فى أمه أو الشك فى وجود المسيح، هؤلاء

(١) البحر (٦/ ١٨٠).

جميعا يرد عليهم القرآن، ويخاطبهم الله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[آل عمران: ٥٩، ٦٠][١].

الحمل بعيسى وولادته

حملت مريم عليها السلام بالمسيح عيسى بمجرد نفخ الملك فى جيب درعها، وطبيعى أنها قد مرت بجميع أدوار الحمل إلى أن ولدته. والقرآن الكريم لم يذكر عن تلك الأدوار شيئا.

قال تعالى ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾[مريم: ٢٢] أى أنها حملت بالجنين فاعتزلت وهو فى بطنها مكانا بعيداً لايراها فيه أحد لأنها علمت أن كثيراً من الناس سيكون منهم كلام فى حقها، ويقول البيضاوى: وكانت مدة حملها سبعة أشهر وقيل ثمانية، ولم يعيش مولود وُضع لثمانية غيره، وقيل ساعة. كما حملته نبذته أ. هـ.

وقال ابن كثير «ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن، إذ لو كان خلاف ذلك لذُكر»[٢]، ولما حان انفصال جنين مريم ألجأها المخاض إلى جذع نخلة فى الموضع الذى فيه مدينة «بيت لحم» وهى على بضعة كيلو مترات من بيت المقدس ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾[مريم: ٢٣] ويقول البيضاوى: إن الزمن كان زمن شتاء والنخلة يابسة، وإنما كان مجيئها إليها لتستتر أو لتعتمد عليها.

هنا حسبت مريم ألف حساب لما هى قادمة عليه من لوم اللائمين من قومها وما سيرمونها به من الفاحشة ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[مريم: ٢٣] فتمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا اليوم أو كانت ﴿ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾

(١) الممترين: المتشككين. وانظر كتاب سيدات نساء أهل الجنة. تأليف: د. موسى الخطيب، ص ١٢، وما بعدها.

(٢) ابن كثير (٣/ ١٢٠)، وقصص الأنبياء لابن كثير (٢/ ٣٧٤ - ٣٧٥).

أى لم تخلق بالكلية. قال ابن كثير: عرفت أن الناس يتهمونها ولايصدقونها بل يكذبونها فى خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة وهى من بيت النبوة تصبح محل اتهام! ولذلك قالت ما قالت، قال: وفيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتن[1] ﴿فَنَادَاهَا﴾ مناد ﴿مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[مريم:٢٤] قيل إن هذا المنادى هو جبريل كان فى مكان أسفل من مكانها، وقيل هو عيسى عليه السلام. والسرىّ هو النهر، وقيل الوجيه من الناس فيكون المراد به عيسى عليه السلام، ويؤكد كونه نهراً قوله تعالى بعد ذلك ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[مريم:٢٥] وقد أراد الله تعالى بهذا أن يسكن روعها ولتعلم أن من أوجد لها الرطب من النخلة اليابسة فى الشتاء، وأوجد لها الماء الجارى فى تلك الهضبة التى كانت عليها من الجبل! قادر أن يرد عنها عيب العائبين وقذف القاذفين، أى فكلى وأشربى وقرّى عينا، ولايحزنك ما يقولون ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[مريم:٢٦] أى فإذا رأيت من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوما عن الكلام[2] فلن أكلم اليوم إنسيا، وفى ذلك الحين يتولى الله البرهنة على براءتها.

عيسى يتكلم فى المهد

فلما ولدته أتت قومها وعلى يدها عيسى تحمله، ارتاعوا لهذا الحدث النازل والخطب العظيم، وزاد فى ارتياعهم ما كانوا يعلمونه فيها من طهارة المنبت وطيب البيئة، ونشأة التقوى التى نشأتها، فكانت المفاجأة داعية للاتهام لأن المفاجأة تذهب الروية ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾[مريم:٢٧] أى بدعا منكراً من الإثم ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ أى يا شبيهة هارون فى الصلاح والعبادة ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[مريم:٢٨] أى لست من بيت هذا شيمتهم ولا سجيتهم فكيف صدر منك هذا وأنت من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة؟ قال قتاده: كان

(١) ابن كثير (٣/ ١٣٠)، وقصص الأنبياء لابن كثير (٢/ ٣٧٤ - ٣٧٥).
(٢) كان الصوم ضربا من العبادة عندهم.

هارون رجلا صالحا فى بنى إسرائيل مشهوراً بالصلاح فشبهوها به[1]، وليس بهارون أخى موسى لأن بينهما ما يزيد على ألف عام، وقال السهيلى: هارون رجل من عُبّاد بنى إسرائيل المجتهدين كانت مريم تشبّه به فى اجتهادها وليس بهارون أخى موسى بن عمران فإن بينهما دهراً طويلا[2] كما أن شهرة أنها من بيت «داود» لاتحتاج إلى بيان. فلما ضاق الحال، وانحصر المجال وامتنع المقال، عظم التوكل على ذى الجلال ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أى خاطبوه وكلّموه فإن جوابكم عنده، وما تبغون من الكلام لديه، فعدّوا ذلك غريبا وقالوا ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[مريم:٢٩] فلم يمهلهم عيسى أن أجابهم الجواب الشافى الدال على براءة أمه. قال الرازى: روى أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وكلّمهم، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان[3] ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ أى قال عيسى فى كلامه حين كلمهم: أنا عبد الله خلقنى بقدرته من غير أب، قدّم ذكر العبودية ليُبطل قول من ادّعى فيه الربوبية ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[مريم:٣٠] أى قضى ربى أن يؤتينى الإنجيل ويجعلنى نبيا، وإنما جاء بلفظ الماضى لإفادة تحققه فإن ما حكم به الله أزلا لابد إلا أن يقع ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أى حجل فىّ البركة والخير والنفع للعباد حينما كنت وأينما حللت ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[مريم:٣١] أى أوصانى بالمحافظة على الصلاة والزكاة مدة حياتى ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ أى جعلنى باراً بوالدتى محسنا لها ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[مريم:٣٢] أى لست بفظّ ولا غليظ ولا يصدر منى قول ولا فعل ينافى أمر الله وطاعته﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[مريم:٣٣] أى سلام الله علىّ فى يوم ولادتى، فالسلام والأمان له يوم ولادته فلم يولد من سفاح، وما كان له أب من البشر، وهذا دفاع أبلغ دفاع من الولى لما رماها القوم بالمعتاد من الناس، وغفلوا عما هو حاصل فعلا، وأن الملك نفخ فيها من روح الله، وسلام الله علىّ يوم أموت ويوم خروجى من قبرى حيّاً عند البعث.

---

(١) الطبرى (١٦/٧٧).
(٢) مختصر ابن كثير (٢/ ٤٥٠).
(٣) التفسير الكبير (٢١/٢٠٨).

قال ابن كثير: هذه الأوقات الثلاثة: الميلاد والموت والبعث، أشد ما تكون على الإنسان، فإنه ينتقل فى كل منها من عالم إلى عالم آخر، فيفقد الأول بعدما كان ألفه وعرفه ويصير إلى الآخر ولايدرى ما بين يديه، ولهذا يستهل صارخا إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمّها وينتقل إلى دار الدنيا ليكابد همومها وغمّها! إلا ابن مريم عليهما السلام، فلم يكن للشيطان إليه سبيل؛ كما جاء فى صحيح البخارى قال رسول الله ﷺ «مامن مولود يولد إلا والشيطان يمسّه حين يولد فيستهل صارخا من مسّ الشيطان إيّاه إلا مريم وابنها»، ومن المتفق عليه ما رواه البخارى وأحمد أيضا «كل ابن آدم يطعنه الشيطان فى جنبه حين يولد غير عيسى بن مريم ذهب يطعن فيه، فطعن فى الحجاب».

وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار، وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور، وانتظر هناك النفخة فى الصور ليوم البعث والنشور، فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور، وما بين جبير وكسير وفريق فى الجنة وفريق فى السعير، ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول:

ولدتك أمك باكيا مستصرخـــــا والناس حولك يضحكون سروراً

فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكوا فى يوم موتك ضاحكـــا مسروراً

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم، سلّم الله على عيسى - كما سلّم على يحيى من قبل - فى كل موطن منها، فقال تعالى ﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[مريم:٣٣] [1] هذا ما نطق به من الله المسيح عليه السلام وهو طفل رضيع فى المهد.

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٤) وقصص الأنبياء لابن كثير (٢/ ٣٣٨ - ٣٣٩).

وقد بُشِّر المسيح عليه السلام بالنبوة ، وأعطاه الله الإنجيل[1] وهو ابن ثلاثين عاما وعلّمه التوراة والكتابة والسداد فى القول والعمل، أو سنن الأنبياء قال ابن كثير وكان عيسى يحفظ التوراة والإنجيل. قال تعالى ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٤٦].

وقال تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[آل عمران: ٤٨، ٤٩].

جاء المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام لمهمة سامية، ذلك أن بنى إسرائيل قد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وحرّفوا شريعة الله التى جاءهم بها موسى عليه السلام، وانحرفوا عن الطريق الواضح وما أقامهم عليه الأنبياء من السبيل السوّى، وخرجوا إلى الإفراط والتفريط. فمن إفراطهم فى مراعاة التوراة وإخراجها عن روحها المراد لله تعالى، أنهم كانوا يتحرجون من عمل الخير فى

(١) معنى الانجيل (البشارة) لأن المسيح عليه السلام جاء مبشراً بمحمد عليه السلام، والشواهد متضافرة على أن الله أعطى المسيح الأنجيل وأنه كتاب تضمن الهدى والنور، وقد أهاب ببنى إسرائيل أن يرجعوا إلى الله ويعبدوه، وأنبأهم بأحداث مستقبله وبشّرهم باقتراب زمن النبى الذى وعد بنو إسرائيل بأن الله سيبعثه، وعلى يديه يكون بعث شريعة جديدة، وأنه يكون كموسى صاحب شريعة مستقلة وفيه وصفه ووصف أتباعه. ويُطلق اسم إنجيل عُرفا الآن على تلك القصص التى وُجدت بعد زمان المسيح تقص أحواله وأعماله وأقواله التى وعظ بها ومعجزاته وخوارق العادات التى أجراها الله على يده.. والكنيسة تعترف بأربعة منها هى: «إنجيل متى» و«إنجيل مرقص» و«إنجيل لوقا» و«إنجيل يوحنا». والقدر الذى وصل إلى العالم من تلك الأناجيل من الجمل والأمثال والنصائح ـ المتقطعة مما نطق به المسيح من العظات والحكم ـ يتضمن حث الناس على توحيد الله تعالى واختصاصه بالعبادة والإخلاص فى طاعته والعمل بأوامره واجتناب نواهيه وحسن المعاملة بين الإنسان وأخيه، والتواضع والبعد عن الكبرياء والصلف والظلم والتعدى وتأمر بالبذل فى سبيل الخير، وأن الواجب أن لا يتهالك الناس على الدنيا وزخارفها ويمثل الناس بالمسافر، والمسافر لايتخذ القصور ولايتأثل بالعقار!، وأن الواجب على المرء الذى وقف نفسه على طاعة الله أن يتوكل على الله حق التوكل فلا يكون أمر طعامه وكسوته أكبر همه لأن الرازق هوالله وهو كفيل بكل ذلك للمتوكلين عليه.. وهكذا من الأخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة.

لم يكتب شىء من هذه الأناجيل فى زمانه ـ ولكن بعد انتهاء أمر المسيح ـ بالخاتمة التى انتهى بها ـ قام بعض التلاميذ وتلاميذهم، وتلاميذ تلاميذهم وكتبوا قصصا كثيرة.. فأين يوجد اليوم إنجيل المسيح الذى ذكره القرآن الكريم؟ إن الإنجيل الذى أتى به المسيح وسلّمه إلى تلاميذه وأمرهم أن يبشروا به لايوجد الآن، وإنما توجد كما قلنا قصص ألفها التلاميذ وغير التلاميذ ولم تسلم من المسخ والتحريف وبالزيادة والحزف!!.

يوم السبت باعتباره يوم عطلة لايجوز العمل فيه، ففوّتوا طاعات كثيرة توجب الزلفى إلى الله بتلك الحجة! والله إنما يريد الكف عن الأعمال الدنيوية، وأما فعل الخير فإنه لاحرج فيه وليس من الأفعال المنهى عنها، لذلك جاء المسيح ليرد اليهود عن ذلك التنطع المفضى إلى تعطيل الخير فى ذلك اليوم. ومن تفريطهم تهالكهم على المادة واستغراق حبّ المال تفكيرهم، فكانوا يحرّضون الفقراء والمحتاجين على النذر للهيكل ليستولوا على ذلك المال، والناذرون والباذلون، فى أشد الحاجة إلى بعض ما يبذلون يصرفونه على أنفسهم وعيالهم وآبائهم وأمهاتهم، فأراد المسيح أن يخفف من هذه الأنانية فى الكهنة ورجال الدين قال تعالى ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ** ﴾[الزخرف: ٦٣، ٦٤].

ولكن العناد والكفر ظلا مسيطرين على هؤلاء، ولما وجد عيسى تيار العناد يقوى وبوادر الكفر تطغى وقف فى قومه قائلا: من أنصارى إلى الله؟ فلباه تلاميذه الذين آمنوا به، وأعلنوا إيمانهم بجرأة وهم القلة وسط جموع الكافرين، وهذا ما يقصه علينا القرآن:

﴿ **فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾[آل عمران: ٥٢، ٥٣].

والحواريون هم أصحاب عيسى وتلاميذه المقرَّبون، وكانوا اثنى عشر رجلا ـ هم المبشِّرون بلغة هذا العصر ـ الذين أرسلهم المسيح فى حياته لبث دعوته فى القرى المجاورة.

البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم

وكان من ضمن رسالة عيسى التبشير بمجيء محمد رسول الله ﷺ. قال تعالى حكاية على لسان عيسى عليه السلام ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**

﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[الصف:٦] وقد وردت البشارة فى التوراة والإنجيل، ووردت فى التوراة فى قوله «أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك لأجعل كلامى فى فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به»(١).

وكأن الله تعالى جعل هذه العبارة مجملة، وألهمهم هذا التفسير حفظا لهذه البشارة، لأنهم لو عرفوا أن الرسول المبشّر به سيكون من ولد إسماعيل لأخفوها أو محوها، وقد أثبتت الأيام أن الرسول المبشّر به هو محمد ﷺ.

وورد فى الإنجيل ما يدل على انتقال النبوة من ولد إسحق إلى ولد إسماعيل فى قوله «الحجر الذى رفضه البناءون قد صار رأس الزاوية، ومن قبل الرب كان هذا هو عجيب فى أعيننا، كذلك أقول لكم: إن ملكوت الله ينزع منكم، ويعطى لأمه تعمل على أثماره»(٢).

والحجر الذى رفضه البناءون كناية عن إسماعيل عليه السلام جد محمد ﷺ الذى قال: «مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبهم البناء فيقولون: إلا وضُعت ها هنا لبنة ليتم البناء؟ فأنا اللبنة جئت فختمت الأنبياء»(٣).

وقال المسيح عليه السلام للحواريين: «إن لى أموراً كثيرة أيضا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون الآن أن تحتملوا، وأما متى جاء ذاك - روح الحق - فهو يشردكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتيه»(٤).

---

(١) سفر التثنية (٨:١٨).

(٢) إنجيل برنابا : الباب الرابع ص ٢٢٠.

(٣) روى هذا الحديث بألفاظ مختلفة تتضمن نفس المعنى عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى وجابر بن عبدالله رضى الله عنهم «راجع باب ذكر كونه ﷺ خاتم الأنبياء» من كتاب الفضائل جـ٤ صحيح مسلم. ط الحلبى.

(٤) إنجيل يوحنا (١٦، ١٢ ، ١٣).

ويأخذ من المخطوطات التى عُثر عليها بجوار البحر الميت كذلك أن عيسى كان مسيا المسيحيين[١]، وأن هناك مسيا آخر سيأتى بعده، وقد قال عنه المسيح «ومتى جاء ـ الفارقليط ـ فهو يشهد لى» وهى تعريب لفظ «بيريكلتوس، اليونانية، وهى عبارة مجملة، فسّرها اليهود بمجىء رسول منهم، لا من ولد إسماعيل ومعناها «الذى له حمد كثير»[٢] ومحمد ﷺ هو الذى جاء بعده، فشهد له، وأنصفه، ودافع عنه وعن العقيدة الصحيحة التى جاء بها.

وقد جاء فى إنجيل برنابا ـ الذى استبعدته الكنيسة فى عهدها الأول، وحرّم البابا جلاسيوس قراءته سنه ٤٩٢ م. ما يؤيد هذه المخطوطات، ويوضح ما فيها من إجمال، قال: «فلما كان الناس قد دعونى الله، وابن الله ـ على أنى كنت بريئا فى العالم ـ أراد الله أن يهزأ الناس فى هذا العالم بموت يهوذا معتقدين أننى أنا الذى مت على الصليب لكيلا تهزأ الشياطين بى فى يوم الدينونة، وسيبقى هذا إلى أن يأتى محمد رسول الله ، الذى متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله»[٣].

وبهذا تكون البشارة فى الأناجيل المختلفة مطابقة للبشارة فى التوراة، فللبشرية نبى كموسى، من وسط إخوتهم، ونزل عليه كتاب يكلّم الناس بما فيه، وهو روح الحق، ولا يتكلم من نفسه، بل بما يوحى به إليه، وصدق الله العظيم فى قوله تعالى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[النجم: ١-٥].

---

(١) مسيا: كلمة أرمية معناها رسول.

(٢) سأل العلامة عبد الوهاب النجار مؤلف كتاب «قصص الأنبياء» الدكتور «كارلو نلينو» المستشرق الإيطالى عن كلمة «بيركلوتوس» فأجابه بقوله : إن القسس يقولون : إن هذه الكلمة معناها (المعزى) فقال له : إنى أسأل الدكتور كارلونلينو الحاصل على الدكتوراه فى آداب اللغة ولست أسأل قسيسا فقال: إن معناها (الذى له حمد كثير) فسأله أيضا : هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من (حمد أى أحمد) فقال : نعم ، وهذا يؤيد ما جاء فى القرآن ﴿ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه احمد﴾.

(٣) إنجيل برنابا: الباب الرابع ص ٢٢٠.

ومهما أخفى القوم من الأناجيل الصحيحة فإن القرآن الكريم قد تكفل ببيان ما لابد من بيانه مما أخفوا، قال تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة: ١٥، ١٦].

معجزات عيسى عليه السلام

ومنذ كُلف عيسى عليه السلام بالرسالة، كانت بينه وبين كهنة اليهود محاورات ومجادلات يبغى من ورائها ردهم إلى طريق الله، وذلك بعد أن تلين قلوبهم التى قست وأصبح حبّ المال فيها هو وحده الإله المعبود!

وكان طبيعيا أن يتجمع ضد المسيح عليه السلام كل من تهددهم دعوته من «الصدوقيين»، وهم المنكرون للبعث والقائلون بأن الإنسان يوفى كل جزائه فى الدنيا إن خيراً وإن شراً، «والفريسيون» الذين كانوا فى البدء متجرِّدين لله ثم أغرتهم الدنيا فاستخدموا ظاهرهم للخديعة والغش، وانحرفوا عن سِنن سلفهم، وألهتهم الحياة الدنيا بزبرجدها وزخرفها، وأقبلوا على الشهوات يستسِّرون بها وهم فى عملهم يراءون الناس استدراجا لهم، ليوقعوهم فى مجالسهم ويبتزوا أموالهم، فكان ظهورهم بمظهر الزُّهد فخ نصبوه لصيد الدرهم والدينار، ثم الكتبة والكهان من خدم الهيكل وكانوا قد صاروا إلى حال رديئة ويحرّفون كلام الله، ويتهالكون على الحطام الفانى.

كل هؤلاء كانت أحوالهم تستدعى إصلاحا قويما، ومصلحا مخلصا فجاء المسيح، لتخليصهم جميعا من الأحوال التى ارتطموا فى حمأتها، فكان يوبّخهم ويبكتهم جهده.

فاجتمع كل هؤلاء ضد المسيح وأخذوا يأتمرون به، وأيده الله سبحانه وتعالى بمعجزاته الدالة على صدق دعوته، والتى ذكرها القرآن فى قوله تعالى ﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ

فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران: ٤٩](١).

ولقد كانت هذه المعجزات سببا فى افتتان بعض الناس به، والقول بأنه إله وابن إله.. ويرد القرآن الكريم على هذه المزاعم. قال تعالى:

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[المائدة: ٧٥].

تأمل كيف قَرَن الله المسيح بكلمة (ابن مريم) ليلفت الأنظار بأنه ابن مريم لا ابن الله.. «كما ينبه الله المسيحيين إلى أن المسيح وأمه ﴿ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ ومن البيّن أن الذى يأكل الطعام فيتحول فى جسمه دما ولحما وعظما وينضح عرَقا ويخرج فضلة، لو بقيت فى الجسم لأضرته... من الواضح أن كائنا من هذا النمط لا يمكن أن يكون إلا بشراً خاضعا لكل قوانين البشرية التى لا تؤدى إلى نقص فى مرتبته كرسول»(٢).

ويذكر القرآن هذه المحاورة التى ستكون بين الله ورسوله عيسى يوم القيامة:
﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[المائدة: ١١٦-١١٨].

---

(١) جاء فى كتب النصارى اعتراف المسيح بأن المعجزات التى أتت على يديه إنما هى من عند الله (متى ١١: ٢٧)، وجاء فيها أن الناس حينما رأوا هذه المعجزات اعترفوا بقدرة الخالق الذى يحقق مثل هذه الأفعال الخارقة للعادة على يد البشر، من ذلك قول متى: فلما رأى الجموع تعجّبوا ومجّدوا الله الذى أعطى الناس سلطانا مثل هذا (متى ٩:٨).

(٢) انظر كتاب: التفكير الفلسفى فى الإسلام للدكتور/ عبد الحليم محمود.

وهكذا يعلن عيسى عبوديته لله، فليس هو إلها، ولا ابن إله، ولا ثالث ثلاثة كما يزعم النصارى، إنما عبد ورسول يحيا ويموت كسائر البشر، خلقه الله من أم دون أب ليكون آية على قدرة الله الباهرة، ولهذا جاء التعقيب المباشر ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾[مريم: ٣٤] أى ذلك هو القول الحق فى عيسى ابن مريم، لا ما يصفه النصارى من أنه ابن الله، أو اليهود من أنه ابن زنى ويشكون فى أمره ويمترون﴿سُبْحَانَهُ﴾ أى تنزّه الله عن الولد والشريك ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[مريم: ٣٥]. من هذا كله نعتقد أن السيد المسيح عليه السلام قد ولد إنسانا، وعرفه تلاميذه والناس جميعا إنسانا قبل أن يكون نبيا ورسولا، ولم يدر بخلد أحد ولابخلده هو كالثابت على لسانه فى القرآن والإنجيل أنه إله أو ابن إله بل إن هناك من المسيحيين من ينفى عنه هذا اللاهوت.

يقول السير آرثر فندلاى[١]: «لا يعتبر عيسى إلها أو مخلّصا، وإنما هو رسول من الله، خدم فى حياته القصيرة فى علاج المرضى، وبشّر بالحياة الأخرى، وعلم بأن الحياة الدنيا ما هى إلا إعداد لحياة أخرى للملكوت الإلهى، لحياة أفضل لكل من يعمل صالحا».

ثم يؤكد براءة عيسى من شبهات المسيحية فى أكثر من موضع فيقول[٢]: «إن بولس هو الذى وضع أساس الدين الذى يُسمى الدين المسيحى.. الدين الذى وُلد طفلا عملاقا متكاملا فى مجمع نيقيه سنة ٣٢٥م بأمر الإمبراطور قسطنطين، وفى هذا المجمع وضع نهاية لدين الناصرى المتواضع، دين الوحدانية إلى دين التثليث».

ويقول القس (أ. باول ديفر) رئيس كنيسة كل القديسين فى واشنطن فى كتابة (مخطوطات البحر الميت)[٣] فى الصحيفة الأولى: «إن مخطوطات البحر الميت - وهى من أعظم الاكتشافات أهمية منذ قرون عديدة ـ قد تغيِّر الفهم التقليدى للإنجيل».

---

(١) كتاب «الكون المنشور» تأليف السيرا آرثر فندلاى ترجمة ع.ع. راضى (ص ١١٨).

(٢) المصدر السابق (١١٧).

(٣) كتاب مخطوطات البحر الميت ترجمة ع.ع. راضى.

ويقول القس (الدكتور تشارلس فرنسيس بوتر)[١] : «لدينا الآن وثائق كافية تدل على أن المخطوطات هى حقيقة (هبة الله إلى البشر) لأن فى كل ورقة تُفتح تأتى إثباتات جديده على أن عيسى كما قال عن نفسه (ابن الإنسان) أكثر منه (ابن الله) كما ادّعى عليه ذلك أتباعه وهو منه برىء».

وقال أيضا[٢] : «من العسير العثور على كتاب فى العهد القديم لا يحتاج إلى تصحيحات تحت ضوء مخطوطات البحر الميت، وكذلك ليس هناك كتاب فى العهد الجديد لا يحتاج إلى تفسير شامل للآيات الأساسية التى تقوم عليها الشريعة».

ويقرر الدكتور تشارلس فرنسيس[٣] «أن إنجيلاً يُدعى إنجيل برنابا استبعدته الكنيسة فى عهدها الأول وأن المخطوطات التى اكتُشفت حديثا فى منطقة البحر الميت جاءت مؤيدة لهذا الإنجيل».

وكتب يوحنا أيضا فى إنجيله للرد على هذه الفئة وفى هذا يقول كتاب (درب المجد)[٤] :

«وقال ايرناوس أيضا إن يوحنا الإنجيلى قصد ببشارته الرد على الضلال الذى قرره كيرنتوس الهرطوقى فى عقول الناس والذى جاء أولا من جماعة اليفقولاوين لكى يقنعهم بأنه لا يوجد إلا إله واحد قد خلق جميع الأشياء بكلمته».

وهناك إقرار فى هذا المبحث من رجال الكنيسة على لسان الدكتور (راشدال اسقف ثانى كارليل) يقول فيه «لم يدَّع المسيح الألوهية لأنه كان رجلا بمعنى الكلمة، وكانت له أيضا نفس وعقل وإرادة بشرية لا جسم بشرى فقط». وجاء على لسان رئيس اكسفورد قوله «لم يقل عيسى فى الأناجيل أنه ابن الله بحالة طبيعية أو حالة جسمانية بل نادى بأنه ابن الله معنوياً أى بالحالة التى بها تكون كل المخلوقات البشرية أبناء الله».

---

(١) كتاب السنون المفقودة من عيسى تكشف ص ١٢٢ .
(٢) المصدر السابق ص ١٢ .
(٣) المصدر السابق ترجمة الدكتور ع.ع. راضى.
(٤) كتاب «درب المجد»: ص ٢٤١ وما بعدها.

وإن الأرض المشتركة التى يقف عليها الآن المسلمون والمسيحيون على السواء هى أن السيد المسيح نبى ورسول وأن الإيمان به هو جزء من الإيمان بالله وبكتبه وبرسله جميعا . .

إن الآلوهية المدعاة لم تثبت بيقين، بل إنها موضع خلاف شديد بين القائلين بها أنفسهم . .

والتوحيد فى الإنسانية قديم . .

وعليه قامت رسالة الرُّسل عليهم الصلاة والسلام . .

وعليه قامت السماوات والأرض . .

وسيظل كذلك إلى الأبد . .

خاتمة أمر المسيح عليه السلام

ولقد تربص به أعداؤه الذين آذتهم دعوته، وأضرت بمصالحهم فأغروا به لدى الحاكم الرومانى قائلين له: إنه يدّعى مُلْك اليهود ونحن لا نرضى بغير قيصر حاكما لنا، واستجاب الحاكم وأرسل من رجاله من يقبض عليه، فلما جاء الجند قبضوا على الذى شُبِّه لهم، وأما عيسى رسول الله فقد نجاه الله من كيدهم وشرهم فلم يُقتل ولم يُصلب بل رفعه الله إليه، وإلى هذا يشير القرآن بقوله تعالى ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[النساء: ١٥٧، ١٥٨] .

يقول العلامة (روى ديكسون سميث)[١]: «لا يوجد متدين مهما كان مذهبه يعتقد أن الله العظيم قد أرسل ابنه الوحيد إلى هذه البشرية التى لا توازى ـ فى مجموعها منذ بدء الخلق إلى نهايته ـ كوكبا من الكواكب المتناهية فى الصغر لكى يعانى موتا وحشيا فوق الصليب! لترضية النقمة الآلهية على البشرية، ليغفر لها

(١) كتاب (ضوء جديد على البعث) للعلامة روى ديكسون سميث ترجمة ع.ع. راضى

خطيئتها الأولى، على شرط أن تعلن البشرية اعترافها بهذا العمل الهمجى الذى لا يستسيغه عقل ألا وهو الفداء.. إلا أن يكون الذى دبر هذه الحادثة قد تنبأ بالنتائج العظيمة من أن هذه الحادثة سوف تكون سببا فى حد ذاته فى انتشار الإنجيل؟!

ثم يقول: «لقد كان الصَّلب خدعة كبرى بات على الإنسان أن يحلّ طلسمها».

ويقول برنابا فى إنجيله: «لأن الله سيصعدنى من الأرض، وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياى، ومع ذلك فإنه لما يموت شر ميتة، أمكث فى ذلك العلو زمنا طويلا فى العالم، ولكنه متى جاء محمد رسول الله المقدس، تزال عنى هذه الوصمة، وسيفعل الله هذا لأننى اعترفت بحقيقة مسيا[١] الذى سيعطينى هذا الجزاء، أى أن أُعرف أنى حى، وأنى برىء من وصمة تلك الميتة»[٢].

يقول أبو العلاء المعرى فى قصيدة اللزوميات:

فعجبا للمسيح بين أنـــاس	وإلى غير والد نسبـــوه
أسلمته إلى اليهود النصارى	وأقـــرّوا بأنهـــم صلبـــوه
يُشفــق الحــازم اللبيب على	الطفل إذا ما لدّاته ضربوه
فإذا كان ما يقولون فى عيسى	صحيحـــا فأيـن كـان أبــوه
كيف خلّى وليـده للأعــادى	أم يظنـــون أنهـــم غلبـــوه

وقال مقاتل بن حيان: جمع عيسى عليه السلام الحواريين فى تلك الليلة، وأوصاهم وقال: لَيكفُرنَّ بى واحد منكم ويبيعنى بدراهم ثم تَفرّقوا، ودخل خوخة، وجاءت اليهود تطلبه، فدلَّهم عليه بعض من كان، وأعطوه ثلاثين درهما، فألقى الله عليه شبَهَ عيسى، فصلبوه.

(١) مسيا : كلمة آرامية بمعنى الرسول.
(٢) إنجيل برنابا الباب ٢٢١.

وقال مجاهد: دخل عيسى عليه السلام الخوخة، ومعه سبعة عشر من الحواريين، فأحاط اليهود بهم، فقال عيسى عليه السلام: من يبيع نفسه منكم بالجنة؟ قالوا: وكيف؟ قال: فيُلقى عليه شبهى فيُصلب، فيكون رفيقى فى الجنة. فقال شاب منهم: أنا.

فألقى الله عليه شَبَهه، فقُتِل وصُلِب، ورُفِع عيسى عليه السلام.

وقال مقاتل: لا خلاف بين النصارى واليهود أن عيسى عليه السلام صُلب، وأنه لما رُفع ليصلب طُعن برمح، فصاح وقال: يا أبى الذى فى السماء إن قدرت أن تصرف عنى هذه الكأس فافعل، ومعنى أبى أى ربى. وقد تكررت منه هذه اللفظة مراراً، فإنه قال للحواريين: إذا سألتم الله فقولوا: يا أبانا الذى فى السماء افعل كذا. ولا خلاف بين المسلمين أن المصلوب غير عيسى عليه السلام. قال تعالى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[النساء: ١٥٧].

واختلفوا فى تفسير قوله تعالى ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[آل عمران: ٥٥] على أقوال، أحدها: إنى قابضك ورافعك إلىّ من غير موت، ودليله قوله تعالى ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾[المائدة: ١١٧] أى رفعتنى وأنا حى وافيا لم ينالوا منى شيئا.

والثانى : أن معناه: أنى منيمك ، من النوم، من قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ﴾[الأنعام: ٦٠] لأن النوم أخو الموت.

والثالث: أنى مميتك، قالوا: توفاه ثلاث ساعات من نهار، ثم أحياه ورفعه إليه.

والرابع: إنى متوفيك عن حظوظ نفسك وشهواتك، لأن عيسى عليه السلام كان فى الدنيا بهذه المثابة.

والخامس: ما قاله قتادة [١]: إن فى الكلام تقديما وتأخيراً، ومعناه: إنى رافعك إلىّ ومظهرّك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك من السماء.

وقال الطبرى[٢] : وقال آخرون معنى ذلك: إذ قال الله يا عيسى إنى رافعك إلىّ ومطهرّك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالى إياك إلى الدنيا ثم قال: «وأما

(١) رواه قتادة عن ابن عباس وسيأتى ذكره.
(٢) الطبرى (٦/٤٥٨).

قول بعض المفسّرين أنه توفى ثلاث ساعات من نهار ثم رُفع، وقول بعضهم المراد بالوفاة وفاة النوم فضعيف فقد ردّه المحققون».

وقال القرطبى[1]: والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد وهو اختيار الطبرى وهو الصحيح عن ابن عباس».

النصرانية أقرب الأديان مودة للإسلام

من الأمور التى يجهلها الكثيرون أن الإسلام خصَّ النصارى من بين جميع الأديان بالود، فهو وإن أنكر أُلوهية المسيح والصُلب والتثليث إلا أنه من جهة أُخرى أعلن أن النصرانية أقرب الأديان مودة إلى الإسلام، وهذا ما صرّح به القرآن ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[المائدة:٨٢] كما أثنى الله على أتباع المسيح الذين ساروا على هدية وتخلّقوا بأخلاقه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾[الحديد:٢٧].

الفاتيكان والكنيسة البابوية يكرمون الإسلام ونبى الإسلام

أصدر مجمع الفاتيكان الثانى بموافقة أمراء الكنيسة تصريحا بالإجماع، هذا نصه «تنظر الكنيسة بعين الإكرام إلى المسلمين الذين يعبدون الله، الأحد الحى القيوم الرحمن القدير فاطر السماوات والأرض، الذى كلّم البشر، فالمسلمون دأبهم التسليم من صميم نفوسهم لأحكام الله الخفية، كما استسلم لله إبراهيم الذى يتخذونه لإيمانهم أسوة مستحبة. أجل إنهم لا يدينون بيسوع إلها، ولكنهم يجلُّونه نبيا، كما أنهم يكرمون والدته السيدة العذراء مريم، وهم إلى ذلك يترقبون يوم الدين، يوم يجازى الله جميع الناس بعد إذ يُبعثون، ومن ثم فهم يراعون مكارم الأخلاق ويعبدون الله، خصوصا بالصلاة والزكاة».

ولعله بعد ما ذكرناه من قبل فى نظرة القرآن إلى المسيح وأمه والإقرار لهما بالفضل وعلوّ المكانة عند الله، وهو ما شهد به الفاتيكان والكنيسة البابوية للإسلام

---

(١) القرطبى (١٠٣/٤)، . وانظر أسباب النزول للواحدى (ص ٥٨).

ونبيّ الإسلام ﷺ، لعل ذلك كله يهيب بالمسيحيين والمسلمين أن يتعاطفوا ويتوادوا ويتعاونوا على خير الإنسانية، وأن يقفوا صفا واحداً فى وجه الإلحاد الذى بدأ يستشرى فى هذا العالم.

متى ينتهى التعصّب فيعمّ السلام هذا العالم؟

قال السيد محمد توفيق البكرى[1] : قلت مرة للسيد جمال الدين الأفغانى: ما هو دين المستقبل؟ قال [2]: هذه الآية من كتاب الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٦٢].

وقال السيد رشيد رضا رحمه الله[3].

سمعنا هذه المسألة من البكرى، وقال أمامنا، إن السيد قال له : انقشوا هذه الآية على هرم الجيزة إلى أن يجيء المستقبل يفسّرها.

ومعنى الآية الكريمة : أن الحق تبارك وتعالى يدعو أصحاب الملل والنحل «المؤمنون، واليهود والنصارى، والصابئين» إلى الإيمان الصادق وإخلاص العمل لله، وساقه بصيغة الخبر فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المؤمنون أتباع محمد ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ اليهود أتباع موسى ﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ أتباع عيسى ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي من آمن من هذه الطوائف بالنبى الخاتم ﷺ إيمانا صادقا فصدّق بوحدانية الله، وأيقن بالآخرة ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي عمل بطاعة الله وشريعته فى دار الدنيا ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أى لهم ثوابهم عند الله لا يضيع منه مثقال ذرّة ﴿وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى ليس على هؤلاء المؤمنين خوف فى الآخرة، حين يخاف الكفار من العقاب، ويحزن المقصِّرون على تضييع العمر وتفويت الثواب.

---

(١) هو المرحوم السيد محمد توفيق البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية سابقا.
(٢) تفسير المنار (٥/ ٦١٠).
(٣) المصدر السابق (١٢/ ٩٣).

إن وجه الإسلام الجميل قد رفع نقابة ليتعرَّفوه. إنهم واقفون على عتبته ولا يلبث أن يفتح مصراعيه فيدخلوه.

وقد مرّ بك رأى السيد جمال الدين الأفغانى، وهو فيلسوف إسلامى كبير، وكأنه قد رأى بعين بصيرته: أن الناس سيصلون إن شاء الله بعلومهم وعقولهم إلى مرتقى تزول فيه الجنسيات. . وتختفى العصبيات المذهبية.

ويجتمع شمل المؤمنون فى كل الدنيا على الإيمان الصادق بالله، وإخلاص العمل لله، والعمل بطاعته فى دار الدنيا، وتقديم الأعمال الصالحة النافعة للبشرية، والإيمان باليوم الآخر وبذلك يعيشون فى الحياة تحت ظل من السعادة ظليل، متحابين، متعاونين على عمل ما فيه الخير لكل قبيل.

وما يوجد بينهم من خلاف وعدوان، وبغضاء وشنآن، سببه التعصّب يطرحونه وراء ظهورهم لأنه لا يعود إلا بالضرر الكبير عليهم.

فعندئذ يختفى الصراع، وتنتهى الحروب . . فيعمّ السلام هذا العالم. أ. هـ.

الفصل السادس

أدعية المسيح عليه السلام في القرآن الكريم

الدعاء الأول

قال الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[المائدة: ٧٨].

قال الإمام الرازى[١] فى ربط هذه الآية بما قبلها:

بعد أن خاطب الله تعالى أهل الكتاب بقوله ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[المائدة: ٧٧].

بعد هذا وصف أسلاف أهل الكتاب هؤلاء قائلا ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ والمراد باللعن الطرد من رحمة الله أو هو مطلق الدعاء، وذلك ماذهب إليه ابن عباس فى تفسيره المروى فى تنوير المقباس لأبى طاهر محمد بن يعقوب الفيروزابادى الشيرازى الشافعى صاحب القاموس المتوفى سنة ٨١٧، ولعل ابن عباس ذهب إلى هذا المعنى باعتبار ما آل إليه أصحاب السبت من المسخ قردة، وأصحاب المائدة من المسح خنازير بعد الدعاء عليهم من موسى وعيسى باللعنة أو بمطلق العذاب..

وهل كان هذا اللعن من الله أم بأمر من الله أم من الرسولين داود وعيسى لاقتضاء فعل أصحاب السبت والمائدة ذلك؟ ذهب الألوسى[١] فى تفسيره أن الله تعالى لعنهم على لسان هذين النبيين بأن أنزل سبحانه وتعالى فيهما «ملعون من

---

(١) التفسير الكبير (١٢/ ٥٣).

(٢) روح المعانى (٨/ ٩٢).

يكفر من بنى إسرائيل بالله تعالى أو أحد من رسله عليهم السلام» لهذا بنى الفعل لما لم يسم فاعله جريا على سنن الكبرياء . .

وهذا الرأى مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما، وذكر ذلك فى فتح القدير أيضا أن الله لعنهم على لسان نبييه داود وعيسى فى الزبور والأنجيل . .

وذهب ابن كثير[١] فى تفسيره إلى أن هذا إخبار من الله تعالى بأنه لعن الكافرين من بنى إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود وعيسى بن مريم عليهما السلام، وذكر الفخر الرازى[٢] أن بعض العلماء قال بأن اليهود كانوا يفتخرون بأنهم من أولاد الأنبياء فذكر الله هذه الآية لتدل على أنهم ملعونون على ألسنة الأنبياء.

لهذا روى عن العوفى قول ابن عباس أنهم لُعنوا فى التوراة والإنجيل والزبور والقرآن . وذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا اللعن من قِبَل داود وعيسى أى أنه صادر منهما لعصيان أصحاب السبت وأهل المائدة.

ولذا قال الزجاج إن المراد أن داود وعيسى عليهما السلام أعلما بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وبشّرا به وأمرا باتباعه ولعنا من كفر به من بنى إسرائيل، وهذا الرأى منسوب أيضا إلى الأصم الرازى.

أما أصحاب السبت فهم قوم داود وهم أهل «أيلة» لما اعتدوا فى السبت بأخذ الحيتان على ذكر الله تعالى وهذه القصة فى سورة الأعراف.

قال داود «اللهم العنهم واجعلهم آية فمُسخوا قردة»[٣].

وعند الألوسى[٤]، قال داود «اللهم ألبسهم اللعن مثل الرداء ومثل المنطقة على الحقوين فمسخهم الله تعالى قردة».

---

(١) ابن كثير (٢/ ٨٤).
(٢) التفسير الكبير (١٢/ ٥٤).
(٣) المصدر السابق.
(٤) روح المعانى : المرجع السابق.

أما أصحاب المائدة: فإنهم لما كفروا بعد أكلهم من المائدة ولم يؤمنوا دعا عليهم عيسى عليه السلام قائلا : «اللهم العنهم كما لعنت أصحاب السبت»[1].

وفى رواية «اللهم عذِّب من كفر بعد ما أكل من المائدة عذاباً لم تعذبه أحداً من العالمين، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت فأصبحوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم امرأة ولا صبى. . ».

والمراد باللسان إما الجارحة المعروفة وإفراده أحد الاستعمالات الثلاث المشهورة فى مثل ذلك وقيل المراد باللسان اللغة.

ثم بيّن الله تعالى أن تلك اللعنة بسبب عصيانهم واعتدائهم، وهل اللعنة مسببة عن العصيان والاعتداء معا لكل من أصحاب السبت وأصحاب المائدة، أم أن العصيان ينصرف إلى أصحاب المائدة حيث كفروا وعصوا بعد الأكل منها وأن الاعتداء ينصرف إلى أصحاب السبت لمجاوزتهم الحد. . كل ذلك جائز.

ثم فسّر الله تعالى هذا العصيان والاعتداء بقوله ﴿**كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ**﴾[المائدة: ٧٩]. . فسّر ابن عباس فى تنوير المقياس بأن المراد من المنكر هو القبيح، والمقصود من عدم تناهيهم هو عدم توبتهم أى لايتوبون. . والتناهى ههنا له معنيان: أحدهما: وهو الذى عليه الجمهور أنه تفاعل من النهى، أى كانوا لا ينهى بعضهم بعضا.

روى ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال: «من رضى عمل قوم فهو منهم ومن كثر سواد قوم فهو منهم».

ثانيهما: التناهى بمعنى الانتهاء يقال انتهى عن الأمر وتناهى عنه إذا كفّ عنه لكن يرد على هذا اعتراض ملخصه هو: أن الانتهاء عن الشىء بعد أن صار مفعولا غير ممكن ذمهم عليه وقد يجاب عن هذا بأحد أمور ثلاثة.

أ - وإما أن يكون المراد (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه).

ب- وإما أن يكون المراد (كانوا لا يتناهون عن منكر أرادوا فعله وأحضروا آلاته وأدواته).

---

(١) التفسير الكبير : المصدر السابق.

جـ- أو أن يكون المراد (كانوا لا يتناهون عن الإصرار على منكر فعلوه).

والمنكر : قد يكون صيدهم السمك يوم السبت - أو أخذهم الرشوة فى الحكم، أو أكلهم الربا وأثمان الشحوم.. وقد يكون المراد به العموم فيدخل ذلك فيه دخولا أوليا..

والشاهد فى آيتنا هذه لعنة عيسى عليه السلام على أصحاب المائدة، غير أن هذه اللعنة لم يذكر القرآن نصها وإنما نُصَّ عليها فى الكتب السابقة.

وها هو نصها «اللهم عذِّب من كفر بعد ما أكل من المائدة عذابا لم تعذِّبه أحدا من العالمين، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت..»

دروس وعبر

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

ولقد وردت أحاديث كثيرة تحث المسلمين على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما تحذِّرهم من الإهمال فيهما - من هذه الأحاديث ما يلى:

(١) عن ابى عميرة عن النبى ﷺ قال: «إذا عُملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فكرهها - وقال مرة فأنكرها - كان كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها»[(١)]..

(٢) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قام خطيبا فكان فيما قال «ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول الحق إذا عَلمه» قال فبكى أبو سعيد وقال والله رأينا أشياء فهبنا»[(٢)]..

(٣) وروى عنه أيضا حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قيل يارسول الله متى يُترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قال «إذا ظهر فيكم ما ظهر فى الأمم قبلكم «قلنا يا رسول الله وما ظهر فى الأمم قبلنا؟ قال: «المُلْك فى صغاركم

---

(١) تفرد به ابو داود.

(٢) رواه ابن ماجه.

والفاحشة فى كباركم والعلم فى رذالكم»[1] قال زيد فى تفسير معنى قول النبى ﷺ والعلم فى رذالكم إذا كان العلم فى الفسّاق.

الدعوة إلى نصرة دين الله

الدعوة إلى نصرة دين الله تبدو لنا فى قول عيسى لقومه ، وقد شعر بالريبة من إيمان بعضهم ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ فكان جواب أنصاره ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ فالقرآن ينوّه ويثنى على تلك الفئة التى آمنت بعيسى، وجاهرت بإيمانها، وأظهرت استعدادها لنصرته مهما كلّفها ذلك من تضحيات.

أمثلة رائعة من الإيمان والتضحية يضعها الله أمام أنظار المؤمنين ليقتدوا بهؤلاء ويسيروا على منوالهم، لهذا يخاطبهم الله فى القرآن بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾.

فالإيمان الحقيقى هو الذى يهيب بالمؤمن لنصرة دين الله، وإعلاء شأنه، والتبشير به بين الناس، والاستماتة فى الدفاع عنه، لأن نصرة دين الله نصرة للعدالة والإصلاح، وإحقاق الحق، والقضاء على الطغيان والفساد.

---

(١) تفرّد به ابن ماجه.

الفصل السابع
الدعاء الثانى

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[المائدة: ١١٤].

صلة هذه الآية بما قبلها

أنها امتداد لأحوال عيسى، وذلك ابتداء من قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾[المائدة: ١١٠] وبالأحرى تعديد لنعم الله على عيسى بن مريم عليه السلام، وامتنان بالله عليه بأن جعل له أصحابا وأنصاراً.

لماذا كان هذا الدعاء ؟

كان دعاء عيسى هذا بناء على طلب الحواريين،خلصاء عيسى والناشرين لرسالته ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[المائدة: ١١٣].

قال القرطبى[١]: وكان هذا السؤال فى ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل، ويجوز أن يكون ذلك صدر ممن كان معهم من الجهال كما قال بعض قوم موسى ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[الأعراف: ١٣٨]
وقال ابن كثير[٢]: هذه قصة المائدة وإليها تُنسب السورة، فيُقال: سورة المائدة، وهى مما امتنّ الله على عبده ورسوله عيسى لما أجاب دعاءه بنزولها فأنزل الله آية باهرة وحجة قاطعة، وقد ذكر بعض الأئمة (سيأتى ذكره) أن قصتها ليست مذكورة

---

(١) القرطبى (٦/ ٣٦٤).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١١٨).

فى الإنجيل يعرفها النصارى إلا من المسلمين، فالله أعلم، فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾[المائدة: ١١٢]. هذه قراءة كثيرين وقرأ آخرون ﴿هل تستطيع ربك﴾ أى هل تستطيع أن تسأل ربك. أ. هـ .

وقرأ علىّ وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد ﴿هل تستطيع﴾ ربَّك بالتاء، ونصب ﴿ربك﴾، وقرأ بهذه القراءة أيضا الكسائى وعائشة وابن معاذ وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم، حتى قالت عائشة[1] رضى الله عنها: كان الحواريون أعلم بالله من أن يقولوا ﴿هل يستطيع ربك﴾ إنما قالوا: تستطيع ربك أن تدعوه، ويؤيد هذا ما قاله معاذ بن أبى جبل رضى الله عنه قال: «أقرأنى رسول الله ﷺ ﴿هل تستطيع ربك؟﴾ بالتاء يعنى الفوقية[2]»، ومثله عن ابن عباس أنه قرأها كذلك[3]، وعليه فلا إشكال فيه وقرأ الحسن رضى الله عنه وغيره من أهل التفسير ﴿هل يستطيع ربك﴾ بالتحتية ورفع ربك، وقالوا: إن الحواريين كانوا مؤمنين وهم خواصّ عيسى، وأنهم لم يشكُّوا فى قدرة الله، وإنما سألوه سؤال مستخبر هل ينزل أم لا؟ فإن كان يُنزل فاسأله لنا[4]، فسؤالهم كان للاطمئنان والتثبت ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[المائدة: ١١٢] أى اتقوا الله فى أمثال هذه الأسئلة إن كنتم مصدقين بكمال قدرته تعالى ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾[المائدة: ١١٣] أى قال الحواريون نريد بسؤالنا المائدة أن نأكل منها تبركًا وتسكن نفوسنا بزيادة اليقين ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾[المائدة: ١١٣] أى ونعلم علما يقينا لاتحوم حوله شائبة من الشّك بصدقك فى دعوى النبوّة ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[المائدة: ١١٣] أى نشهد بها عند من لم يحضرها من الناس.

فلما لم يقلعوا أجابهم عيسى إلى سؤالهم لإلزامهم بالحجة الدامغة. روى أنه لما أراد الدعاء، لبس جبة شعر، ورداء من شعر، وقام يصلّى ويدعو ربه ويضرع ويبكى.

(١) اخرجه ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عائشة رضى الله عنها.
(٢) أخرجه الحاكم وصححه الطبرى وابن مردويه.
(٣) أخرجه أبو عبيد وعبد بن حميد.
(٤) البحر (٤/ ٥٣).

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾[المائدة: ١١٤].

قال أبو السعود : نادى عيسى ربه مرتين: مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات، ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية إظهاراً لغاية التضرّع[١]. ﴿تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أى يكون يوم فرح وسرور لنا ولمن يأتى بعدنا ﴿وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[المائدة: ١١٤] أى ودلالة وحجة شاهدة على صدق رسولك، وارزقنا يا الله فإنك خير من يعطى ويرزق لأنك الغنى الحميد.

فاستجاب الله دعاء عبده ورسوله عيسى عليه السلام ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾[المائدة: ١١٥] أى قال الله سبحانه وتعالى إنى سأنزل عليكم هذه المائدة من السماء، والجمهور على أنها نزلت كما دلّت عليه الآثار، وكما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن ولاسيما قوله تعالى ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ كما قرره ابن جرير والله أعلم.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[المائدة: ١١٥] أى من كفر بعد تلك الآية الباهرة، فسوف أعذّبه عذابا شديداً لا أُعذّب مثل ذلك التعذيب أحداً من البشر وفى الحديث «أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحما وأُمروا ألا يدّخروا لغد، ولايخونوا فخانوا وادّخروا ورفعوا لغد، فمُسخوا قردة وخنازير»[٢] .

قال فى التسهيل: جرت عادة الله عزّ وجل بعذاب من كفر بعد اقتراح آية فأعطيها، ولما كفر بعض هؤلاء مسخهم الله خنازير[٣].

وقد روى ابن جرير بإسناد صحيح إلى مجاهد وإلى الحسن أنهما قالا عن المائدة: لم تنزل وإنهم أبو نزولها حين قال ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ ولهذا قيل إن النصارى لا يعرفون خبر المائدة وليس مذكوراً فى كتابهم مع أن خبرها مما تتوفر الدواعى على نقله. والله أعلم.

---

(١) أبو السعود (٢/ ٧٣) .

(٢) أخرجه الترمذى فى باب التفسير.

(٣) التسهيل (١/ ١٩٤).

دروس وعبر

(١) قال الإمام الشاطبى[1]: الإكثار من الأسئلة مذموم، وله مواقع نذكر منها عشرة.

أحدها: السؤال عما لاينفع فى الدين كسؤال بعضهم: من أبى؟

ثانيها: أن يسأل ما يزيد عن الحاجة كسؤال الرجل عن الحج، أكُل عام؟

ثالثها: السؤال عن غير احتياج إليه فى الوقت، ويدل عليه الحديث «ذرونى ماتركتكم».

رابعها: أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها، كما جاء فى النهى عن الأغلوطات.

خامسها: أن يسأل عن علّة الحكم فى التعبدات، كالسؤال عن قضاء الصوم للحائض دون الصلاة.

سادسها: أن يبلغ بالسؤال حد التكلّف والتعمّق، كسؤال بنى إسرائيل عن البقرة وما هى ومالونها؟

سابعها: أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسُّنّة بالرأى، ولذلك قال سعيد: أعوامى أنت؟

ثامنها: السؤال عن المتشابهات، ومن ذلك سؤال مالك عن الاستواء فقال الاستواء معلوم . . . الخ.

تاسعها : السؤال عما حصل بين السلف، وقد قال عمر بن عبد العزيز: «تلك دماء كفّ الله عنها يدى فلا أُلطّخ بها لسانى».

عاشرها : سؤال التعنت والإقحام وطلب الغلبة فى الخصام، ففى الحديث «أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخصم».

---

(١) نقلا عن محاسن التأويل للقاسمى (٦/ ٢١٧).

(٢) أرزاق الناس من الله يهبها لحكمة اختصّ بها وحده، وقد أدرك الحواريون هذا السرّ فكان تذييلهم لسؤالهم؛ هو هذا الثناء الجميل على الله تعالى: ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[المائدة: ١١٤]، ومن الأسرار التى كشف عنها القرآن: أن تقوى الله وسيلة إلى استنزال ما عنده من أرزاق طيبة للعباد. قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[الأعراف: ٩٦].

الفصل الثامن

الدعاء الثالث

قول الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[المائدة: ١١٨].

صلة الآية بما قبلها

فى أسلوب سام من الوعظ، ودعوة إلى تصحيح الأفكار عن حقيقة عيسى عليه السلام، يخاطبه الحق جل وعلا فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[المائدة: ١١٦] قال ابن عباس: هذا القول يكون من الله يوم القيامة على رءوس الخلائق ليعلم الكفار أنهم كانوا على باطل(١)، وقال القرطبى: إنما سأله عن ذلك توبيخا لمن ادّعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ فى التكذيب وأشد فى التوبيخ والتقريع(٢) ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾[المائدة: ١١٦] أى أنزهك عما لايليق بك يارب فما ينبغى لى أن أقول قولا لايحق لى أن أقوله ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾[المائدة: ١١٦] أى إن كان ذلك صدر منى، فإنك لا يخفى عليك شىء وأنت العالم بأنى لم أقله، وهذا اعتذار وبراءة من ذلك القول، ومبالغة فى الأدب وإظهار الذلّة والمسكنة فى حضرة ذى الجلال وقال ابن كثير(٣): وقوله ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾[المائدة: ١١٦] أى إن كان صدر منى هذا فقد علمته يارب فإنه لا

---

(١) البحر (٤/ ٥٨).

(٢) القرطبى (٦/ ٣٧٥) ويدل على أن الخطاب فى الدنيا ووافقه السدى وصوّبه ابن جرير واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين:

١- أن الكلام بلفظ الماضى.

٢- قوله ﴿إن تعذبهم... وإن تغفر لهم﴾ وهذا يقتضى أن يكون الخطاب والجواب فى الدنيا وذلك حين رفع الله عيسى إلى السماء.

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٣).

يخفى عليك شيء، فما قلته ولا أردته فى نفسى ولا أضمرته، ولهذا قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ أى ما دعوتهم إلا إلى الذى أرسلتنى به، وأمرتنى بإبلاغه ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾[المائدة:١١٦] ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾[المائدة: ١١٧] أى هذا هو الذى قلت لهم، وقوله ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾[المائدة: ١١٧] أى كنت شاهداً على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾[المائدة:١١٧] أى فلما قبضتنى إليك بالرفع إلى السماء كنت يا الله الحفيظ لأعمالهم، والشاهد على أفعالهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[المائدة: ١١٧] أى وأنت المطلع على كل شىء لا يخفى عليك شىء..

تنبيه: ما شأن هذه الآية ؟

* روى أحمد فى مسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال: «صلى النبى ﷺ ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع ويسجد بها، قول الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[المائدة:١١٨] فلما أصبح قلت يا رسول الله: مازلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد؟ قال: «إنى سألت ربى عز وجل الشفاعة لأُمتى فأعطانيها وهى نائلة إن شاء الله لمن لا يُشْرِك بالله شيئا».

* وروى الإمام مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[ابراهيم:٣٦] وقول عيسى ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فرفع يديه وقال: اللهم أُمتى أُمتى ويبكى، فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى مُحمّد - وربك أعلم - فاسأله ما يُبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم، فقال الله يا جبريل: اذهب إلى مُحمّد فقل له أنّا سنُرضيك فى أُمتك ولانسوءك».

دروس وعبر

تضمنت الآية دعاء من عيسى عليه السلام رفعه إلى الله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾[المائدة:١١٨] أى إن تعذبهم فأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت، لا اعتراض عليك ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[المائدة:١١٨] أى وإن تغفر لمن تاب منهم فإنك أنت الغالب على أمره الحكيم فى صنعه، والآية تصوير لنفسية عيسى المشعّة بالرحمة للإنسانية، واعتراف بجلال الله وقدسيته وحكمته فى عذابه وغفرانه لعباده.

وهذه الآية لها وقع كبير على النفوس المؤمنة ولهذا روُى - كما فى الحديث السابق - أن الرسول ﷺ قام ليلة إلى الصلاة فظل يرددها حتى أصبح الصباح.

ويلوح لنا هذا السؤال: كيف ساغ لعيسى أن يطلب المغفرة لمن أشرك، والله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾[النساء:٤٨].

يُجاب على هذا بأحد الوجوه الآتية:

١- أنه لما قال الله تعالى لعيسى عليه السلام ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[المائدة:١١٨] علم أن قوما من النصارى حكوا هذا الكلام عنه، والحاكى لهذا الكفر عنه لايكون كافراً بل يكون مذنبا، لأنه كذب فى هذه الحكاية، وغفران الذنب جائز، فلهذا المعنى طلب المغفرة من الله تعالى.

٢- يجوز على المذهب الراجح وعند جمهور البصريين من المعتزلة: جواز غفران الشرك، وذلك لأن العقاب حق الله تعالى على المذنب، وليس فى إسقاطه على الله: سبحانه مضرّة، ويجوز إدخال الكفار الجنة وإدخال الزُّهاد النار، لأن المُلْك ملك الله ولا اعتراض لأحد عليه، ولذا ختم الكلام بقوله ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[المائدة:١١٨] أما قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[النساء:٤٨] فلا تمنع هذه الآية من جواز غفران الله للشرك لأن فى إسقاط ذنب الشرك عن العبد منفعة، والعقاب عليه حق الله وليس فى إسقاطه

علىٰ الله مضرّة فوجب أن يكون حَسَنا بل دلّ الدليل السمعى فى شرعنا على أنه لم يقع، فلعل هذا الدليل السمعى ما كان موجوداً فى شريعة عيسى عليه السلام.

٣- أن القوم لما قالوا هذا الكفر، فعيسى عليه السلام جوّز أنه يكون بعضهم قد تاب عنه فقال ﴿إن تُعَذِّبْهُمْ﴾ علمت يا الله أن أولئك المعذبين ماتوا على الكفر فلك أن تعذبهم فهم عبادك، وأنت حكمت يا الله على كل من كفر من عبادك بالعقوبة، وإن تغفرلهم فقد علمت أنهم تابوا عن الكفر، وأنت حكمت على من تاب عن الكفر بالمغفرة.

٤- وإن توفيتهم على هذا الكفر وعذبتهم فإنهم عبادك فلك ذلك، وإن أخرجتهم بتوفيقك من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، وغفرت لهم ما سلف منهم فلك أيضا ذلك.

هل يستدل بهذه الآية على جواز شفاعة النبى ﷺ للفُسّاق من أمته ؟

احتج بعض الأصحاب بهذه الآية على شفاعة محمد ﷺ فى حق الفُسّاق من أُمته، قياسا على قول عيسى عليه السلام هذه المقالة، فقالوا: أن قول عيسى عليه السلام ﴿إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ ليس فى حق أهل الثواب لأن التعذيب لايليق بهم، وليس حق الكفار أيضا لأن قوله ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لايليق بهم، فدلّ ذلك على أن هذه الآية فى حق الفسّاق من أهل الإيمان، وإذا ثبتت الشفاعة لعيسى عليه السلام لصالح الفساق؛ ثبتت فى حق سيدنا محمد ﷺ بطريق الأولى.

ما الذى أفاده التذييل بقوله ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[المائدة:١١٨] ؟

ذكر العلماء فى سرِّ التذييل بالاسمين الجليلين كلاما طويلا قالوا: أفاد نطق عيسى عليه السلام بهذه الجملة عدة أمور منها:

١- تفويض الأمر لله تعالى والتسليم له.

٢- العزيز هو الذى يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد.

٣- ذكر الاسمين الجليلين ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ من باب الاحتراس، لأن ترك عقاب الجانى قد يكون لعجز فى القدرة.. أو لإهمال ينافى الحكمة فدفع توهم ذلك بذكرهما.

٤- فى أمالى المعز بن عبد السلام أن العزيز معناه هنا الذى لا نظير له، والمعنى: إن تغفر لهم فإنك أنت الذى لا نظير لك فى غفرانك وسعة رحمتك، وأنت أولى من يرحم وأجدر من غفر وستر، والحكيم الذى لايفعل شيئا إلا فى مستحقه، وهم مستحقون ذلك لفضلك وضعفهم.

والأدعية الثلاثة التى ذكرناها فى هذا الباب هى كل ما ورد ذكره من أدعية على لسان سيدنا عيسى عليه السلام فى القرآن الكريم.

الأنبياء والدعاء

أما الأنبياء وهم المكلفون من الله بشريعة خاصة بهم دون تبليغها للغير، أو المكلفون باتباع من سبقه م من الرسل.. وهذا هو أرجح التعاريف التى اعتدت بها جمهرة العلماء الباحثين فى هذا المقام وهو الذى أميل إليه لتضافر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

هؤلاء الأنبياء عليهم السلام مثل لقمان على القول بنبوته لم أعثر فى القرآن الكريم على أدعية لهم..

وهذا لا ينبغى أن يحمل المرء على أنهم ما زاولوا الدعاء ولا باشروه وكيف يكون ذلك والدعاء مخ العبادة بل هو الطاعة والعبادة بعينها وكيف يستساغ لنبى أن يترك مخ العبادة وأن يدع السلاح البتار الذى منحه الله تعالى لعباده المؤمنين وفى مقدمتهم الرسل والأنبياء.

قد أقول أن القرآن الكريم قد تعرض لذكر بعض الرسل دون البعض الآخر كما تعرض لأدعية بعض من تعرض لذكرهم لا لجميعهم وفيهم أولو العزم لعل

السبب فى ذلك طول الأمد بين أقوامهم فى عرضهم للدعوة وما جره ذلك من الجدال والعناد والمحاربة، زد على هذا ما تحمله هذه الأدعية فضلاً عن أسبابها من أهداف وغايات نبيلة ودروس مفيدة ومجدية.

لهذا لم يذكر القرآن لنبى من الأنبياء دعاء لأنهم ما أمروا بالتبليغ أى تبليغ رسالة الله لغيرهم، أما الرسل فاقتضى أمرهم بالتبليغ الدعاء الذى لم يخصوا به أنفسهم بل عنوا به رسالة ربهم وما تقتضيه المصلحة لها، وما ورد فى القرآن من الدعاء لأنفسهم إنما كانت الغاية منه رسالة الله ودينه فإذا طلب الرسول النصر وحمايته إنما يقصد من وراء ذلك نصر رسالة الله والمؤمنين بها.

ملحوظة:

يلاحظ القراء الكرام أننا لم نذكر أدعية آدم عليه السلام، حيث مرّ ذكرها فى كتابنا (الإنسان والدعاء) بما لا مزيد عليه. وأننا لم نعقد بابا لأدعية رسول الله محمد ﷺ والملائكة، ألا فليعلموا أننا جعلنا بمشيئة الله تعالى أدعية رسول الله محمد ﷺ فى كتاب على حدة:

فليرجعوا إليه فى موضعه، وكل آت قريب والحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم الكتاب بحمد الله تعالى وتوفيقه

المؤلفان

المراجـــع

١- البخارى : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (١٩٤ - ٢٥٦هـ) - صحيح البخارى - ط. الشعب.

٢- ابن الأثير : الإمام العلامة أبو الحسن على بن أبى الكرام محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المتوفى سنة ٦٣٠ هـ.

- الكامل فى التاريخ. ط. بولاق سنة ١٢٩٠ هـ.

٣- ابن جزى : الحافظ المفسِّر محمد بن أحمد بن جزى الكلبى المتوفى سنة ٩٢٣هـ - التسهيل لعلوم التنزيل - ط. مصطفى الحلبى سنة ١٣٥٥هـ.

٤- ابن سعد : محمد (١٦٧ - ٢٣٠ هـ) - الطبقات الكبرى - ط. دار صادر بيروت سنة ١٣٧٦ هـ.

٥- ابن سينا : الشيخ الرئيس أبو على الحسين بن على بن سينا (٤٢٨ -٩٨٠ هـ)

٦- ابن قتيبه الدينورى : المتوفى سنة ٢٧٦ هـ-كتاب الشفا - المعارف. ط. الرحمانية بمصر سنة ١٣٥٣ هـ.

٧- ابن قيم الجوزية: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الزرعى المعروف بابن قيم الجوزية (٦٩١ـ ٧٥١ هـ)- كتاب الفوائد.

٨- ابن كثير: الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤ هـ.

- تفسير القرآن العظيم - ط. المكتبة التوفيقية.

- مختصر تفسير ابن كثير - اختصار وتحقيق الأستاذ محمد على الصابونى

- دار القرآن الكريم بيروت (١٤٠٢ـ١٩٨١م).

- البداية والنهاية (١ـ ١٤)، القاهرة (١٣٥١ـ ١٣٥٨).

- قصص الأنبياء لابن كثير تحقيق عبد القادر احمد عطا. ط. دار الكتب الإسلامية (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م).

٩- ابن ماجه: محمد بن يزيد القزوينى (٢٠٧ - ٢٧٥ هـ) - سنن ابن ماجة- تعليق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى. ط. الحلبى. القاهرة.

١٠- ابن منظور محمد بن مكرم : (٦٣٠ـ ٧١١هـ) - لسان العرب ـ ط. دار صادر- بيروت سنة ١٩٥٥.

١١- ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـ بيروت.

١٢- البغوى : أبو محمد الحسين بن مسعود البغوى ـ تفسير البغوى ـ ط. دار الكتب المصرية.

١٣- أبو حيان التوحيدى : البحر المحيط ـ ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٤- أبو داود : سليمان بن الأشعث (٢٠٢ ـ ٢٧٥هـ) - سنن أبى داود - ط.الحلبى بمصر سنة (١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م).

١٥- أبو السعود: خاتمة المحققين وإمام المدققين قاضى القضاة أبو السعود محمد ابن محمد العمادى (٨٩٦ ـ ٩٥١هـ).

ـ تفسير أبى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ـ ط. محمد على صبيح وأولاده. القاهرة.

١٦- الإبيارى : الأستاذ إبراهيم الإبيارى وعبد الصبور مرزوق - الموسوعة القرآنية.

١٧- البيضاوى : الإمام عبد الله بن عمر البيضاوى المتوفى سنة ٧٩١ هـ- أنوار التنزيل وأسرار التأويل وبهامشه الجلالين ـ ط. الحلبى.

١٨- أحمد بن حنبل : (١٦٤ـ٢٤١هـ) - كتاب الزهد - مطبعة أم القرى ١٣٥٧ هـ.

- مسند الإمام أحمد بن جنبل عمل المحدث الفاضل محمد ناصر الدين الألباني - ط. دار صادر ـ بيروت

١٩- أحمد : دكتور محمود أحمد - آيات الدعاء فى القرآن الكريم - رسالة دكتوراه الفلسفة عن قسم التفسير بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر بالقاهرة.

٢٠- الأزرقى: تاريخ مكة للأزرقى (أخبار مكة المشرقة)، صورة عن الطبعة الأوربية، بيروت ١٩٦٤.

٢١- الأستاذ: إبراهيم خليل أحمد - محمد ﷺ فى التوراة والإنجيل والقرآن- ط. مكتبة الوعى العربى.

٢٢- الترمذى : محمد بن عيسى (٢٠٩ ـ ٢٧٩هـ) - سنن الترمذى بشرح الإمام أبى بكر بن العربى المالكى - ط١. الصاوى بالقاهرة سنة (١٣٥٣هـ ـ ١٩٦٤م).

٢٣- الثعلبى: العلامة ابن اسحق احمد بن محمد إبراهيم الثعلبى - قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس، القاهرة ١٩٥٤م.

٢٤- الحمصى : الأستاذ محمد حسن الحمصى - تفسير وبيان القرآن الكريم مع أسباب النزول للسيوطى مع فهارس كاملة للمواضيع والألفاظ - ط. دار الرشيد ـ بيروت.

٢٥- الخازن: الإمام علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الصوفى المعروف بالخازن - تفسير القرآن الجليل المسمى لباب التأويل فى معانى التنزيل (تفسير الخازن) - ط. دار الكتب العربية الكبرى بالقاهرة.

٢٦- الذهبى : الحافظ محمد بن أحمد (٦٧٣ ـ ٧٤٨هـ) ـ سير أعلام النبلاء.

٢٧- الرازى: الإمام أبو الفضل محمد محمد الدين بن عمر بن الحسين الرازى - التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ـ ط. بيروت.

٢٨- العلامة الشيخ رحمة الله الهندى : - كتاب إظهار الحق - ط. المركز الإسلامى (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

٢٩- السيد رشيد رضا : (١٢٨٢ ـ ١٣٥٣) - تفسير المنار «تفسير القرآن الحكيم»-ط. المنار سنة ١٣٢٥ هـ.

٣٠- الزمخشرى: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى (٤٦٧ ـ ٥٣٨هـ).

ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ـ ط. الحلبى بمصر سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م.

٣١- الزجاجى - أمالى الزجاجى- تحقيق عبد السلام هارون - ط. المدنى ١٣٨٢هـ.

٣٢- الزبيدى : تاج العروس للزبيدى (١-١٠) صورة عن الطبعة المصرية الصادرة سنة ١٣٠٧هـ.

٣٣- زيدان: جورجى زيدان - كتاب العرب قبل الإسلام- ط. دار الهلال.

٣٤- سبط ابن الجوزى : (٥٨١ - ٦٥٤هـ) - مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان (السفر الأول) - تحقيق وتقديم د. إحسان عباس- ط. دار الشروق (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

٣٥- السيوطى : عبد الرحمن بن كمال الدين (٨٤٩ - ٩١١هـ) - أسباب النزول. ط- استنبول ١٢٩٠ هـ.

- التحبير.

٣٦ - الألبانى : سلسلة الأحاديث الصحيحة- ط. المكتب الإسلامى.

٣٧- الشوكانى : محمد بن على (١١٧٢ - ١٢٥٠هـ).

- فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية فى علم التفسير- ط. مصطفى البابى الحلبى. القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ.

٣٨- الصابونى: الأستاذ محمد على الصابونى - صفوة التفاسير - دار القرآن الكريم - بيروت ط١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٣٩- الصاوى : حاشية الصاوى على تفسير الجلالين - ط. دار الفكر - بيروت.

٤٠- الألوسى: الإمام أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ

- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى- تحقيق وضبط وتصحيح الأستاذ محمد زهرى النجار - ط. الحلبى القاهرة سنة ١٩٦٦م.

٤١- الخطيب: الدكتور/ موسى الخطيب - سيدات نساء أهل الجنة.

- من دلائل الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسُّنة النبوية. ط. مؤسسة الخليج العربى - القاهرة (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).

٤٢- الطبرى: أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ- تفسير الطبرى (جامع البيان) ١- ١٦. تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر، القاهرة.

- تاريخ الطبرى (١-١٥) صورة عن الطبعة الأوربية.

٤٣- طبارة : الأستاذ/ عفيف عبد الفتاح طبارة - مع الأنبياء فى القرآن الكريم - ط. دار العلم للملايين - بيروت.

٤٤- عبد العال: الأستاذ الدكتور/ محمد عبد المنعم عبد العال - نظرات إسلامية على الأمراض الجلدية - ط. دار السلام.

٤٥- الأستاذ على الطنطاوى : تعريف عام بدين الإسلام- ط. دار الفكر (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) القاهرة.

٤٦- عنبر: الأستاذ محمد عبد الرحيم عنبر- بين عيسى ومحمد.

٤٧- الفيروزابادى: أبو طاهر محمد بن يعقوب الشيرازى الشافعى المتوفى سنة ٨١٧ هـ- تنوير المقياس فى تفسير ابن عباس.

٤٩- القاسمى: جمال الدين القاسمى - محاسن التأويل - ط. دار إحياء الكتب العربية: عيسى البابى الحلبى واولاده- القاهرة.

٥٠- القرطبى: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن بكر بن فرج الأنصارى القرطبى المتوفى سنة٦٧١هـ- الجامع لأحكام القرآن- دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، مصر، ١٩٦٧م.

٥١- القسطلانى: المتوفى سنة ٩٢٣هـ- إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى (١-١٠)، ط. الحلبى القاهرة ١٣٠٥هـ.

٥٢- القرافى : كتاب الأجوبة الفاخرة.

٥٣- الإمام أبو الحسين. مسلم : (٢٠٤ - ٢٦١هـ)-صحيح مسلم، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى - ط. دار إحياء التراث العربى - بيروت.

٥٤- الأستاذ حسن إسماعيل منصور : دراسات قرآنية (من أسرار النبوات فى القرآن) - ط. مجمع البحوث الإسلامية (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م). القاهرة.

٥٥- الأستاذ محمود أبو ريه : دين الله واحد. ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٥٦- النجار: العلامة المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار- قصص الأنبياء - ط٢. الحلبى - القاهرة (١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م).

٥٧- النسفي: الإمام أبو البركات عبد الله بن احمد بن محمود النسفى - مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفى)- ط. محمد على صبيح واولاده ـ القاهرة سنة ١٣٤٤هـ.

٥٨- وصفى: الدكتور محمد وصفى- الارتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل. ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (١٣٨٥هـ-١٩٦٥م).

٥٩- روث مور: الأرض التى نعيش عليها، ترجمة اسماعيل حقى- ط. (مكتبة المثنى ببغداد سنة ١٩٦١م).

٦٠- انجيل برنابا: ترجمة الدكتور خليل سعادة- ط. المنار (١٣٢٦هـ).

٦١- الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد).

محتويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحة
تصدير	٣
* **الباب الأول** : نوح عليه السلام	١١
الفصل الأول : قصة نوح عليه السلام	١٣
سفينة النجاة	١٥
الطوفان : هلاك الكافرين ونجاة المؤمنين	١٥
الفصل الثانى: أدعية نوح عليه السلام فى القرآن الكريم	١٨
القسم الأول	١٨
القسم الثانى	٢٣
الفصل الثالث : دروس وعبر	٢٧
* **الباب الثانى** : أدعية هود وصالح عليهما السلام فى القرآن الكريم	٣٧
ـ تمهيد	٣٩
الفصل الأول : أدعية هود عليه السلام فى القرآن الكريم	٤٠
الفصل الثانى : أدعية صالح عليه السلام فى القرآن الكريم	٤٦
الفصل الثالث: دروس وعبر	٥٢
* **الباب الثالث** : إبراهيم عليه السلام ـ ولوط عليه السلام	٥٩
الفصل الأول : إبراهيم أبو الأنبياء	٦١
اسم ونسب	٦١
موجز عن قصته	٦٣
إبراهيم أبو الأنبياء. . لماذا؟	٦٥
أدعية إبراهيم عليه السلام فى القرآن الكريم	٦٦
الفصل الثانى : الدعاء الأول : طلب الإمامة فى ذريته	٦٧
الفصل الثالث : الدعاء الثانى	٧٣

الموضـــوع	الصفحة
الفصل الرابع : الدعاء الثالث	٨٢
الفصل الخامس : الدعاء الرابع : قدرة الله تعالى على إحياء الموتى	٨٥
الفصل السادس : الدعاء الخامس	٩١
الفصل السابع : الدعاء السادس	٩٥
هجرة ابراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى البلد الحرام (مكة)	٩٥
الفصل الثامن : ابراهيم والبيت المعمور (العتيق)	١٠٤
الفصل التاسع : دروس وعبر	١١٠
الفصل العاشر : أدعية لوط عليه السلام	١١٣
لوط وأضيافه من الملائكة ودعائه الضمنى أو الرمزى	١١٦
الفصل الحادى عشر : دروس وعبر	١٢٠
* **الباب الرابع** : أدعية يعقوب ويوسف عليهما السلام	١٢٥
الفصل الأول: أدعية يعقوب عليه السلام فى القرآن الكريم	١٢٧
الدعاء الأول	١٢٩
الدعاء الثانى	١٢٩
الدعاء الثالث	١٣١
الدعاء الرابع	١٣٣
الدعاء الخامس	١٣٤
الدعاء السادس	١٣٤
الدعاء السابع	١٣٧
الفصل الثانى: أدعية يوسف عليه السلام فى القرآن الكريم	١٣٩
الدعاء الأول	١٤١
الدعاء الثاني	١٤٣
يوسف وامرأة العزيز	١٤٥
شيوع الخبر فى المدينة وتحدّث النساء به	١٤٧
يوسف فى السجن	١٤٨

الموضــوع	الصفحة
الدعاء الثالث	١٤٩
الدعاء الرابع	١٥٠
الدعاء الخامس	١٥٣
الفصل الثالث: دروس وعبر	١٥٨
* **الباب الخامس**: أدعية أيوب وشعيب عليهما السلام فى القرآن	١٦٩
الفصل الأول: أدعية أيوب عليه السلام فى القرآن الكريم	١٧١
- تمهيد	١٧١
الدعاء الأول	١٧٢
الدعاء الثانى	١٧٣
الفصل الثانى: دروس وعبر	١٧٧
الفصل الثالث: أدعية شعيب عليه السلام فى القرآن الكريم	١٧٩
قومه وعبادتهم	١٧٩
الدعاء الأول	١٨١
الدعاء الثانى	١٨٢
الدعاء الثالث	١٨٣
الدعاء الرابع	١٨٦
الفصل الرابع: دروس وعبر من أدعية شعيب عليه السلام	١٨٧
* **الباب السادس**: أدعية موسى الكليم عليه السلام	١٩١
الفصل الأول: أدعية كليم الله موسى عليه السلام	١٩٣
ولادته ورضاعته وتربيته فى بيت فرعون	١٩٣
خروج موسى من مصر إلى أرض مدين وسببه:	١٩٥
الدعاء الأول	١٩٦
الدعاء الثانى	١٩٧
الفصل الثانى: أرض مدين ونزول موسى بها	١٩٩
الدعاء الثالث	١٩٩

الصفحة	الموضـــوع
٢٠٢	مصاهرة الشيخ لموسى
٢٠٣	الدعاء الرابع
٢٠٥	الفصل الثالث: موسى بالوادى المقدس (الطور)
٢٠٥	بعثته وأخيه هارون عليهما السلام
٢٠٧	آيات الرسالة
٢٠٨	الدعاء الخامس والسادس
٢١٢	الفصل الرابع: موسى عليه السلام بعد المناجاة ودعوته لفرعون
٢١٣	الدعاء السابع
٢١٤	دعوة موسى لفرعون للإيمان بالله تعالى
٢١٦	فرعون يدّعى الآلوهية ويأمر ببناء صرح يصعد به إلى السماء
٢١٧	الفصل الخامس: كفاح موسى وقومه: معجزة العصا واليد وإيمان السّحرة
٢١٩	الدعاء الثامن
٢٢١	الدعاء التاسع
٢٢٢	الدعاء العاشر
٢٢٤	الفصل السادس: مصير فرعون وقومه
٢٢٥	خروج بنى اسرائيل وهلاك فرعون وجنوده
٢٢٦	الدعاء الحادى عشر
٢٢٩	مصير آل فرعون فى الآخرة
٢٣٠	الفصل السابع: فى الطريق إلي أرض الميعاد
٢٣١	تذكير بنو إسرائيل بنعم الله عليهم
٢٣٢	ذهاب موسى لميقات ربه
٢٣٣	الدعاء الثانى عشر
٢٣٣	هل استجاب اللّه تعالى لموسى دعاءه فى تحقيق الرؤية؟
٢٣٤	هل عوّضه اللّه عن الإجابة بما يرضيه؟
٢٣٥	عبادة بنى إسرائيل لعجل السامرى واتخاذه إلها

الصفحة	الموضـــوع
٢٣٨	الدعاء الثالث عشر
٢٣٩	اعتذار بنى إسرائيل عن عبادة العجل والعفو عنهم
٢٣٩	الدعاء الرابع عشر
٢٤١	نتق الجبل فوق بنى إسرائيل
٢٤١	عصيان بنى إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة
٢٤٣	الدعاء الخامس عشر
٢٤٣	تمرّد بنى إسرائيل وكفرهم بالنعم
٢٤٥	موت هارون ثم موسى وموقف بنى إسرائيل من بعدهما
٢٤٦	الفصل الثامن: دروس وعبر
٢٥٣	* **الباب السابع**: أدعية داود وسليمان عليهما السلام فى القرآن
٢٥٣	الفصل الأول: أدعية داود عليه السلام فى القرآن الكريم
٢٥٣	داود عليه السلام
٢٥٤	نعم الله على داود عليه السلام
٢٥٦	المسألة الأولى: الحكم في قضية الزرع
٢٥٦	المسألة الثانية: قضاء داود بين الخصمين
٢٥٧	دعاء داود عليه السلام
٢٥٩	الفصل الثانى: أدعية سليمان عليه السلام فى القرآن الكريم
٢٦٣	سليمان والخيل: الصافنات الجياد
٢٦٥	ابتلاء سليمان أو فتنته
٢٧٠	الفصل الثالث: دروس وعبر من أدعية داود وسليمان عليهما السلام
٢٧٥	* **الباب الثامن**: أدعية يونس عليه السلام ـ أدعية زكريا عليه السلام ـ أدعية المسيح عليه السلام
٢٧٧	الفصل الأول: أدعية يونس عليه السلام فى القرآن الكريم
٢٧٨	يونس فى بطن الحوت
٢٧٨	ماذا فعل قوم يونس بعد تركه لهم؟

الموضـوع	الصفحة
دعاء يونس عليه السلام	٢٧٩
هل استجاب الله دعاء يونس عليه السلام؟	٢٨١
الفصل الثانى: دروس وعبر	٢٨٤
الفصل الثالث: أدعية زكريا عليه السلام فى القرآن	٢٨٦
نبوّته	٢٨٦
كفالته مريم عليها السلام	٢٨٧
دعاء زكريا عليه السلام وطلبه من الله الذرية الصالحة	٢٨٧
صيغ هذا الدعاء	٢٨٩
براعة تذييلات صيغ أدعية زكريا عليه السلام	٢٩٠
صفة الهبة التى رفعها زكريا إلى الله فى دعائه القرآنى	٢٩١
استجابة الله لدعاء زكريا عليه السلام	٢٩٣
التقوى وخيراتها	٢٩٥
الفصل الرابع: دروس وعبر	٢٩٩
الفصل الخامس: المسيح عيسى بن مريم عليه السلام	٣٠٢
مريم بنت عمران والبشارة بالمسيح عيسى عليهما السلام	٣٠٢
الحمل بعيسى وولادته	٣٠٥
عيسى يتكلم فى المهد	٣٠٦
رسالة عيسى عليه السلام	٣٠٩
البشارة بمحمد ﷺ	٣١٠
معجزات عيسى عليه السلام	٣١٣
خاتمة أمر المسيح عليه السلام	٣١٧
النصرانية أقرب الأديان مودة للإسلام	٣٢٠
الفاتيكان والكنيسة البابوية يكرمون الإسلام ونبى الإسلام	٣٢٠
متى ينتهى التعصب فيعمّ السلام هذا العالم؟	٣٢١
الفصل السادس: أدعية المسيح عليه السلام فى القرآن الكريم	٣٢٣

الموضــوع	الصفحة
الدعاء الأول	٣٢٣
دروس وعبر	٣٢٦
الفصل السابع: الدعاء الثانى	٣٢٨
دروس وعبر	٣٣١
الفصل الثامن: الدعاء الثالث	٣٣٣
تنبيه : ما شأن هذه الآية؟	٣٣٤
دروس وعبر	٣٣٥
هل يُستدل بهذه الآية على جواز شفاعة النبى ﷺ للفُسَّاق من أمّته؟	٣٣٦
- الأنبياء والدعاء	٣٣٧
- المراجع	٣٣٩
- محتويات الكتاب	٣٤٥

رقم الإيداع
٩٩/٧٤٥٨
I.S.B.N.
977 - 294 - 119 - 8

مطابع آمــون

٤ الفيروز من ش إسماعيل أباظة
لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٣٥٤٤٥١٧ - ٣٥٤٤٣٥٦